المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فهذه هي المجموعة الثالثة من كتاب:

«المنتقى من بطون الكتب»

ولقد يسر الله جمعه وانتقاءه من كتب عديدة، وفي موضوعات متنوعة، ولمؤلفين مختلفين، وفي عصور متباينة.

ويُهدف من وراء ذلك أمور كثيرة منها: التعريف ببعض الكتب، وبيان ما تضمنته من علوم خصوصاً إذا كانت نادرة، أو قليلة الانتشار.

ومنها: الوقوف على مناهج بعض المؤلفين، وطرائقهم في الكتابة والتأليف خصوصاً وأن هذه المجموعة ستتضمن تعريفاً موجزاً بالمؤلفين ومناهجهم.

ومنها: ـ وهو أعظمها ـ إنهاض الهمم، وتوسيع المدارك، وزيادة الإيمان، وترسيخ الفضيلة، وإبهاج النفوس، والرقي بالأخلاق؛ وذلك من خلال النقول التي تتضمن حكماً بالغة، أو مواعظ حسنةً، أو تجاربَ ناضجةً، أو نظراتٍ ثاقبةً، أو أفكاراً سامية، أو عباراتٍ رائعةً رائقةً، أو تحريراتٍ عاليةً، أو أساليبَ بارعةً، أو معانيَ لطيفةً، أو قصصاً نادرةً مؤثرة، أو تعريفاتٍ جامعةً مانعة، أو غير ذلك مما جرى مجراه، مما يفيد الإنسانَ في معاشه ومعاده.

فأسأل الله ـ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ـ أن يجعل هذا العمل مباركاً

نافعاً، خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجزي خير الجزاء من أعان على إخراج هذا الكتاب؛ إنه سميع قريب.

وإلى تلك النقول، والله المستعان، وعليه التكلان، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

محمد بن إبراهيم الحمد

ص.ب ٤٦٠

الرمز البريدي : ١١٩٣٢

الزلفي : ١٤٢٥/٦/٨هـ

www.Toislam.Net

البريد الإلكتروني :

alhamad@toislam.net

أولاً: نقولات مختارة من كتاب:

أدب النفس؛ للحكيم الترمذي ت٣٢٠

«**تعريف بالمؤلف وبالكتاب**»:

هو أبو عبدالله محمد بن علي الحكيم الترمذي الحافظ المحدث المتوفى سنة ٣٢٠.

وله عدد من المؤلفات منها: منازل العباد من العبادة، وحقيقة الآدمية، والمعرفة، وإنبات العقل، والاحتياطات وغيرها.

ومنها هذا الكتاب الذي بين أيدينا وهو (أدب النفس).

وهذا الكتاب يبحث في النفس الإنسانية وما يعتريها من الهوى، والشهوة، والجهل، وما تتأدب به النفوس، وتتهذب، وتصبح راضية مطمئنة.

وهذا الكتاب من القطع المتوسط، وعدد صفحاته ١٢٦، وقد قام بتحقيقه والتعليق عليه د. أحمد عبدالرحيم السَّايح، وهذه الطبعة هي الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م، وقد نشرته الدار المصرية اللبنانية.

ـ «**النقولات المنتقاة**» : قال الحكيم الترمذي رحمه الله :

١ـ إن الله أنشأ خلقه؛ لإظهار ربوبيته، ولبروز آثار قدرته، وتدبير حكمته، وليكون ذكره ومدحه مردداً على القلوب وعلى ألسنة الخلق والخليقة، لما علم في غيبه، فأنبأنا في تنزيله، فقال ـجل ذكرهـ: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ الجاثية:٢٢.

فَأَعْلَمَنا لِمَا خلق، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات:٥٦. فقال أهل اللغة: إلا ليوحدون، ومثل ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ الفاتحة:٥ يعني نوحد. ص١١

٢ـ وأباح ذكره على كل حال؛ تقديماً له على سائر الحالات وأعمال البر، وحصر ما سواه من الأفعال في أوقات مخصوصة، مع ما ذكر في الكتاب، وجرت به الأخبار عن الرسول ﷺ بتفضيل الذكر على سائر الطاعات؛ لأن في الذكر مدحه. ص١٢

٣ـ وندب العباد في غير آية من كتابه إلى أن ينشروا ذكره، ويذكروا عنه جميل صنائعه، فقال ـتعالىـ: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ الأعراف:١٨٠

في كل ذلك يحثهم على مدحه، وذكره بالجميل، والثناء الحسن، وفي كل اسم له مدحه، وجميل ذكره. ص١٣

٤ـ ثم إن الله ـ تعالى ـ دعاهم إلى أن يوحدوه قلباً وقولاً وفعلاً؛ فمن قبل ذلك منه جملة، فاستقرت المعرفة بأنه واحد، فاطمأن به قلبه، وترجم به لسانه عما في ضميره، وعزم على الفعل مائلاً له ـ فقد آمن به، وهذا كله من العبد في

وقت واحد، فركب فيه الشهوات والهوى، وجعل للشياطين فيهم وساوس يجرون فيهم مجرى الدم، ويغوصون غوص النون في البحر. ص١٤

٥ـ وجعل القلب ملكاً على الجوارح، فالشهوة تحرك البدن الساكن، وتزعج القلب، والشيطان يمنِّيه، ويزين له، ويَعِدُه، والهوى يميل به، ويقوده؛ فالمؤمن قلبه مطمئن بالإيمان، والتوحيد ظاهر على لسانه.

فإذا جاء وقت فعل الأركان عمل فيه الشهوات، وزين له العدو، ومال به الهوى حتى يفعل الفعل الذي يخيل إليك في الظاهر أنه لم يؤمن بعد، فهو موحد بالقلب واللسان.

ولكن تغلبه الشهوة وقوتها، فبظلمة هذا الهوى، ووسوسة هذا العدو والتزيُّن غلب على القلب، لا على ما في القلب، مما في القلب من المعرفة، فالقلب به مطمئن، ولكن صار مأسوراً مقهوراً، وهو أبداً لمن غلب عليه، وقهره. ص١٤، ١٥

٦ـ فمَن نَوَّرَ الله قلبه بنور الإيمان قويت معرفته، واستنارت بنور اليقين، فاستقام به قلبه، واطمأنت به نفسه، وسكنت، ووثقت، وأيقنت، وائْتَمَنته على نفسها، فرضيت لها به وكيلاً، وتركت التدبير عليه. فإن وسوس له عدو بالرزق والمعايش لم يضطرب قلبه ولم يتحير؛ لأنه قد عرف ربه أنه قريب، وأنه لا يغفل، ولا ينسى، وأنه رؤوف رحيم، وأنه رب غفور رحيم، وأنه عدل لا يجور، وأنه عزيز لا تمنع منه الأشياء، وأنه يُجِير ولا يُجار عليه. ص١٦، ١٧

٧ـ فعامة أهل التوحيد قد أيقنوا بهذا، إيماناً به، وقبولاً له، ولم يستقر ذلك

الإيمان في قلوبهم حتى إذا كانت وقت الحاجة اضطربت قلوبهم، وتحيرت، واشتغلت عن خالق الأشياء ومالك الملوك.

وأهل اليقين الذين قد استنار الإيمان في قلوبهم فسكنت القلوب، واطمأنت النفوس إلى ضمان ربها، وقربه منهم، وقدرته عليهم. ص١٧

٨ـ وإنما تقع حلاوة صنع الصانع في قلبك على قدر حبك للصانع، وإنما تحب الصانع على قدر معرفتك بقدره، وكلما كنت به أعلم، وكان هو أرفع منزلة في الأشياء كان قدره عندك أعظم؛ فهو إليك أحب. ص٢٦

٩ـ قال له القائل: وما رياضة النفس؟ وكيف يكون ذلك؟ قال: يسير على من يسره الله ووفقه؛ فأما الرياضة فهي مشتقة عربيَّتها من الرضِّ، وهو الكسر، وذلك أن النفس اعتادت اللذة والشهوة، وأن تعمل بهواها؛ فهي متحيِّرة، قائمة على قلبك بالإِمْرة، وهي الإمرة بالشهوة، فيحتاج إلى أن يفطمها، فإذا فطمها عن العادة انفطمت. ص٣٤

١٠ـ ويقال في اللغة: راض، ورضَّ، بمعنى واحد، فمن قال: رضَّ، فلما أدغم الألف في الضاد شدَّد، ومن أبرز الألف خفَّف الضاد، فقال راض، فالرَّض الكسر، فقيل في الأشياء المكسورة: رضَّ، وقيل في الأخلاق المكسورة: راض؛ فهذه النفس إذا فطمتها انكسرت عن الإلحاح عليك، ومنازعتك في الأمور؛ فإن النفس اعتادت اللذة والشهوة، وأن تعمل بالهوى، فإذا فطمتها عن العادة انفطمت، ألا ترى أن الصبي إنما اعتاد ثدي أمه،كيف سكوته بذلك الثدي، إنما يحنُّ إليه إذا فقده، وكيف يفرح به إذا وجده. فكذلك النفس

الشهوانية، فإذا فطم الصبي انفطم؛ حتى لا يلتفت إلى الثدي بعد ذلك؛ لأنه وجد طعم ألوان الأطعمة، فلا يحن إلى اللبن، كذلك النفس إذا وجدت طيب اليقين، وروح قرب الله ـ تعالى ـ وحلاوة اختيار الله ـ عز وجل ـ وجميل نظره لها، لم تَحِنَّ إلى تلك الشهوات. ص٣٤، ٣٥

١١ـ قيل له: فبماذا يوجد اليقين؟ قال: بطهارة القلب؛ لأن اليقين طاهر؛ فيطهر مكانه ومستقره.

قيل له: وما طهارته؟ قال: ترك ما اضطرب القلب عليه ورابك منه؛ تورُّعاً دق أو جل، ثم تطهره من التعلق بالشهوات والاشتغال بها، فإذا أنت فعلت ذلك صقلت قلبك فصار لك مرآة بالتورع، فكلما تفكرت شيئاً من أمر الآخرة، تمثَّل ذلك في مرآتك، حتى تصير الآخرة لك معاينة. ص٣٥، ٣٦

١٢ـ ألا ترى أن البازي كيف كان نفاره من الآدميين في الجبال الشامخات، فلما رُبَّ وأُمْسِكَ على التربية أنس بصاحبه، وأخذت التربية بقلبه، واعتاد السكون معه؛ فنزع عن النفار، وترك همَّ الطيران، واطمأن إلى صاحبه، حتى إذا أرسله وحثَّه على الطيران طار، فأصاد وأمسك عليه صيده؛ تحرِّياً لموافقته مولاه، ثم إن دعاه من الطيران رجع، وآثر هواه على هوى موافقة نفسه، فأجابه منقضَّاً إلى حبله وسباقه.

أفلا يحق على مؤمن أبصر هذا أن يموت كمداً وعبرة، وأسفاً على فوت هذا من نفسه أن يكون طيره أسمع له وأطوع، وأشدَّ تحرِّياً لموافقته، وألزم لنصيحته من العبد المؤمن لربه؟ ص٣٧، ٣٨

١٣ـ فكذلك يصير العبد إذا راض نفسه بترك الشهوات، وقطع الأسباب، وانقطع عن اللذات، ومجاهدة الهوى، وامتناعه عما يريد حتى تذلَّ، وتنقمع؛ فحينئذ ينقاد القلب والعقل، وتستقيم في سيرها على حدِّ ما أمر به، ولا تهاب أحداً في أموره، ولا تخاف فيه لومة لائم. ص٤١

١٤ـ فإذا غفلت عن النفس بعد رياضتها فلا تأمن أن تعود إلى بعض عاداتها ما دامت الشهوات منها حية، والهوى قائماً، ألا ترى أن القوس إذا تُرك استعمالها وتعاهدها وعتقت[1]، وكيف يأخذ البيت الأسفل من البيت الأعلى؟ فكلما رميت بها سهماً أخطأ الغرض؛ كذلك النفس إذا تركتها حتى تقوى شهواتها، ويشتد حرُّها في الجوف، وتقوى ظلمة الهوى أخذت من البيت الأعلى، وهو نور العقل، ونور المعرفة، ونور الروح، ونور العلم، فتحرق بنيران الشهوات من هذه الأنوار التي في القلب بقدر قوتها.

وإذا قويت بنيران الشهوات ضعفت الأنوار، فيظلم الهوى على اليقين، فيتولد الشك على القلب من هذه الآفات، فتغلب على القلب هذه الآفات. ص٥٨

١٥ـ أفلا ترى كيف تعالج القوس، وتحمى حتى تلين، فإذا لانت سويت، حتى يرجع البيت الأعلى إلى مكانه، وإنما زال عن مكانه؛ لأن البيت الأسفل لما قوي وصلب مُدَّ بالبيت الأعلى بفضل قوَّته، فكذلك النفس لما قويت وصلبت شهواتها، انتشرت وهاج هواها، فأحرقت أنوار القلب، والقلب هو رطب

١ـ عتقت من العتيق، وهو القديم من كل شيء.

بالأنوار؛ لأن النور هو من الله ـ تعالى ـ رحمة، والرحمة باردة، والقلب ليِّن منقاد برطوبة تلك الأنوار.

فإذا احترق النور، صلب القلب، وقسا، ويبس، فخفَّ عن ذكر الله، ولها عنه. ص٥٩، ٦٠

١٦ـ قال له قائل: فما بالنا نسمع هذا العلم فنفهمه، ونعقله، ولا يبقى على القلب منه شيء؟.

قال: لأن نيران الشهوات في الخوف قد التهبت، فهي نيران سود، مظلمة بالهوى، وهي مؤدية إلى نار الله الكبرى، فإذا التهبت ارتفع إلى القلب، وأحرق تلك الأنوار، فخلا القلب من الموعظة والعلم الذي عليه، وهي شبيهة بالنار التي تلهب حمرتها، فتحتاج إلى ماء كثير حتى تطفئه، كما ألقيت عليه قبضة من شيء، أو رششت عليه قليلَ ماءٍ، انطفأ قليلاً ثم التهب؛ فكذلك صاحب الشهوة، إذا سمع الموعظة ذَبُل قلبه، وتخسفت نفسه؛ لما يصل عليه من الخوف؛ لأن الوعيد مما تنكسر به النفس، وتخمد شهواتها.

ألا ترى أن الرجل يكون في لذَّة من لذَّات الدنيا ونشاط، فإذا بلغه وعيد من السلطان انكسر وذهب نشاطه؛ فوعيد الله ـ تعالى ـ لو خلص إلى القلب، لكانت النفس والشهوات أشدَّ انكساراً، ولكن لا يصل ذلك إلى القلب، فهو صلب أبداً، فرح مرح، أشرٌ بطرٌ، فهو ينور بلهب.

فإنما يطفأ بالماء الكثير الغالب وهو العلم المؤدي إلى الخوف والوعيد، وليس يوجد هذا، فما الحيلة في ذلك؟

قال: إنا لا نعلم له حيلة، إلا أن يمنع من إلقاء الحطب عليه؛ فإنه متى زاده وقوداً اتقد، وثار والتهب، وقوي.

ومتى ما حبس عنه وقوده خمد، حتى يصير رماداً ويذهب حر التنور، كذلك ههنا يحبس عنها الشهوات حتى تخمد، فتذهب فورتها والتهابها، فحينئذ تتخلص أنوار القلب ويقوى، ويعمل العقل عمله. ص٧٤، ٧٥

١٧ـ ترى الرجل يصلي بالليل، ويعق والديه، ويصوم النهار، ويسوء خلقه في شأن فطوره، وسحوره، ويغتاب الناس، وينفق في أعمال البر، ويكتسب الشهوات، ويعود المرضى، وينقل الجنائز، ويؤذي المسلمين، ويطلب عوراتهم، ويود الأباعد، ويقطع الأرحام، فهذا رجل جاهل بربه، يعبده بالهوى، كلما هوي أمراً ركبه، وكذب فيما يقول: إني أريد به الله. ص٧٦، ٧٧

١٨ـ وإنما أتى فساد الخلق من إهمال النفس وترك تأديبها، وقلة النظر في أمر الله ـ تعالى ـ، وجهلهم به، فلو عرفوه لاستراحوا من خدع النفس ودواهيها؛ لأن النفس إنما تطمع بمخادعة من يجهل ربه. ص٧٧

١٩ـ فالإنسان مطبوع على سبعة أخلاق: على الغضب، والرغبة، والرهبة، والشهوة، والغفلة، والشك، والشرك. ص٨٢

٢٠ـ وكلما ازداد العبد في إيمانه نوراً وقوة وشعاعاً تنقَّص من الغضب والشهوة، والرغبة والرهبة؛ فكل مؤمن على قدر إيمانه يكون من هذه السبعة باقية فيه. ص٨٦

٢١ـ فإذا تركت المجاهدة على الحقيقة منعك النصرة، فبقيت مخذولاً، مأسوراً

في يدي الشهوة والهوى، فإذا صار القلب مأسوراً، فهو كملك مأسور في يد العدو، فإذن تعذر عليه الأعوان والجند، بل يذلون وينهزمون في الملاهي والأباطيل. ص١٠٧

٢٢_ قال له قائل: فكيف تكون المجاهدة على الحقيقة، إذ قال: (حق جهاده؟).

فقال: اعتبر مجاهد الظاهر، وامتثل رجلين، أحدهما سلاحه تام، وحمل نفقة سنة، وتجهز بما يحتاج إليه، ورافق في الطريق رفقاء، وتبسَّط في مسيره وطرِب مع رفقائه، وتلذَّذ برؤية الكون ولقاء الناس،وفرح بما نسب إليه من الجهاد، والغزو، فقيل: هذا فلان الغازي، وطمعت نفسه في علو المرتبة، وارتفاع المنزلة عن الناس، واتخذ الجاه عندهم بذلك، ونال الكرامة في مسيره مقبلاً ومدبراً، وقلبه ههنا معلَّق بحب الدنيا، وما خلَّف فيها، فهذا حاله في الطريق حتى إذا بلغ المنتهى، فعلى وده أنه لا يلقى عدوًّا أبداً، ولا يسمع بذكره، فهو مقيم هناك مع حنين قلبه إلى شهواته ومناه التي خلَّفها وراء ظهره. ص١٠٧ ، ١٠٨

٢٣_ قال له قائل: وما الهوى؟.

قال: جوهرة النفس؛ لأن آدم _ عليه السلام _ خلق من تراب، فكان الهوى هو عنصره الذي فيه جوهريته الترابية، فكانت تلك الترابية متشعبة في النفس، وهو صفوة غذاء الأم، والهوى تنفس النفس، وهوكدورته، وأصل جوهريته، وهو مظلم،وهو قوة غذاء الأم.

لأن التراب مظلم، وأمك إنما ربتك من اللبن، ومما أَخْرَجَتِ الأرض؛ فلذلك قيل في الحديث: (لكل شيء نفس، ونفس النفس الهوى)، فما دام الروح فيك فأنت كون الروح، فإذا خرج الروح منك صار وجهك وجميع جسدك كأنه ذر عليك التراب. ص١١٤، ١١٥

٢٤_ فمن هاهنا هواك يميل بك إلى نعيم الأرض؛ لأنه من جنسه.

وإليه يحنُّ، وله يألف؛ فهذه النفس مضطربة إذا حملت عليها أمر الله _تعالى_ كذلك الأرض لما حمل عليها الخلق اضطربت؛ فأُسكِنت بالجبال الرواسي حتى سكنت. ص١١٥، ١١٦

٢٥_ كذلك النفس، إذا اضطربت فإنما تسكن بالمعرفة؛ فكلما كانت معرفتك أعظم وأثقل على القلب، كانت النفس أسكن، ومنه قيل: الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي. ص١١٦

ثانياً: نقولات مختارة من كتاب:

الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه لأبي هلال العسكري ت ٣٩٥هـ

«تعريف بالمؤلف»:

هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى، المعروف بأبي هلال العسكري.

وقد أجمعت التراجم المختلفة على ذلك، كما اتفق الذين ترجموا له أنه ينسب إلى مدينة (**عسكر مُكْرَم**) من أعمال الأهواز.

وأبو هلال فارسي الأصل، ومع كثرة مؤلفاته وحسن تصانيفه إلا أن المراجع التي تحدثت عنه لم تذكر السنة التي ولد فيها، ولا التي مات فيها على وجه التحديد والإجماع.

وبعض الذين ترجموا له استنتجوا أنه ولد سنة٣١٠هـ على وجه التقريب، وأما وفاته فمنهم من قال إنه توفي عام٣٩٥هـ، وهم الأكثر، ومال القفطي إلى أنه عاش حتى بعد سنة ٤٠٠هـ.

ويعزى خمول ذكره ـ مع طول باعه واتساع علمه ـ إلى أسباب لعل جلَّها يعود إلى غلبة شهرة أستاذه أبي أحمد العسكري الذي يحمل الاسم ذاته، واسم الأب، والنسبة، مما أثر سلباً على التلميذ.

ولأبي هلال مؤلفات كثيرة في الحديث، والتفسير، والتاريخ، واللغة، والأدب.

ومنها: كتاب التلخيص، وجمهرة الأمثال، والأوائل، وديوان المعاني،

والصناعتين، والفروق اللغوية، والمعجم في بقية الأشياء، ورسالة في العزلة والاستئناس بالوحدة، وغيرها من الكتب.

ومنها كتاب الحث على طلب العلم، والاجتهاد في جمعه.

«**تعريف بالكتاب**»:

هذا الكتاب ليس بالطويل، بل هو من الكتب المتوسطة أو أقل من المتوسطة.

وهذا الكتاب يُبِيْن عن حسٍّ تربوي دقيق، وخبرة تربوية طويلة، يبرز ذلك من خلال ما أورده من حرص على تقدير المكانة السامية للعلم والعلماء والمتعلمين، مؤكداً على ما يُمْكِنُ عدُّه وسائل لطلب العلم، وعوامل لنجاحه توصل إلى تلك المكانة التي يراها، ومذكراً طالب العلم بجملة من أقوال العلماء، وما بذلوه من جهد جبار في سبيل تحصيل العلم.

وبالجملة فهذا الكتاب يمكن أن يعد إسهاماً فيما يسمى بـ «أدب الطلب» أو «الأدب التربوي».

وهذا الكتاب حقق وطبع أكثر من مرة، حيث طبع عام ١٤٠٦هـ بتحقيق د.مروان قباني، وطبع عام ١٤١٨هـ بتحقيق د.عبدالمجيد دياب.

وقد أفدت من هذين التحقيقين.

ـ «**النقولات المنتقاة**» : قال رحمه الله :

١ـ والاجتهاد فيما يُكْسبُ العز، ويزيد في النباهة والقدر ـ راحة العاقل، والتواني عنه عادة الجاهل.

وقلت في نحو ذلك :

وساهر الليل في الحاجات نائمُهُ   وواهب المال عند المَحْل كاسِبُهُ

وقلت في نحو ذلك :

وليغدُ في تعب يَرُحْ في راحة   إن الأمور مُريحُها كالْمُتْعِبِ

وقلت :

ألا لا يَذمَّ الدهر من كان عاجزاً   ولا يعذِلِ الأقدار من كان وانيا

فمن لم تُبَلّغْه المعاليَ نَفْسُهُ   فغير جدير أن ينال المعاليا

ص٤٥ ـ ٤٦

٢ـ ومِثْل العلو في المكارم مِثْل الصعود في الثنايا[١] والقُلَل[٢]، و لا يكون إلا بشق النفس، ومن ظن أنه ينعم في قصد الذرى[٣]، والتوقل[٤] في القذفات[٥] العلا، فقد ظن باطلاً، وتوهم محالاً.ص٤٦

٣ـ وقال الجاحظ : العلم عزيز الجانب، لا يعطيك بعضه، حتى تعطيه كلك،

١ـ الثنايا : جمع ثنية وهي الطريق في الجبل.

٢ـ القلل : جمع قلة وهي قمة الجبل.

٣ـ الذرى : جمع ذروة وذروة كل شيء أعلاه.

٤ـ التوقُّل : الصعود.

٥ـ القذفات : جمع قُذفة وهي أعالي الجبل ونواحيه.

وأنت إذا أعطيته كلك كنت من إعطائه إياك البعض على خطر.

وقد صدق؛ فكم من راغب مجتهد في طلبه لا يحظى منه بطائل على طول تعبه، ومواصلة دأبه ونصبه؛ وذلك إذا نقص ذكاؤه، وكَلَّ ذهنُه، ونَبَتْ قريحتُه.

والفهم إنما يكون مع اعتدال آلته، فإذا عدم الاعتدال لم يكن قبول، كالطينة إذا كانت يابسة، أو مُنْحلَّةً، لم تقبل الختم، وإنما تقبله في حال اعتدالها.

وإذا أكدى الطالب مع الاجتهاد فكيف يكون مع الهوينى والفتور؟! ص٤٧

٤ـ وإن كنت ـ أيها الأخ ـ ترغب في سمو القدر، ونباهة الذكر، وارتفاع المنزلة بين الخلق، وتلتمس عزاً لا تَثْلِمه الليالي والأيام، ولا تَتحيَّفُه الدهور والأعوام، وهيبةً بغير سلطان، وغنىً بلا مال، ومنفعةً بغير سلاح، وعلاءاً من غيرِ عشيرة، وأعواناً من غير أجرٍ، وجنداً بلا ديوان وفرض ـ فعليك بالعلم؛ فاطلبه في مظانه تأتِك المنافع عفواً، وتلق ما تعتمد منها صفواً.

واجتهد في تحصيله ليالي قلائل، ثم تذوَّقْ حلاوة الكرامة مدة عمرك، وتمتع بلذة الشرف فيه بقية أيامك، واستبق لنفسك الذكر به بعد وفاتك.ص٤٨

٥ـ وإذا تدبرت قول أمير المؤمنين علي رضي الله عنه فقال: «قيمة كل امرئ ما يحسنه» كنت حقيقاً بالاجتهاد في طلب العلم أَوَانَ قدرتك عليه، غير معذور في التواني عنه، والتقصير فيه؛ لأن العاقل لا يعتمد تخسيس قيمته، ولا يغفل عما يرفع من قدره.ص٥٠

٦ـ وقال بعض الأوائل: لا يتم العلم إلا بستة أشياء:

(١) ذهن ثاقب. (٢) وزمان طويل. (٣) وكِفاية.

(٤) وعمل كثير. (٥) ومعلِّم حاذق. (٦) وشهوة.

وكلما نقص من هذه الستة شيء نقص بمقداره من العلم.ص٥٢

٧_ قال أبو هلال: فإذا كان العلم مؤنساً في الوحدة، ووطناً في الغربة، وشرفاً للوضيع، وقوةً للضعيف، ويساراً للمُقْتِر، ونباهة للمغمور، حتى يلحقه بالمشهور المذكور _ كان من حقه أن يُؤْثَرَ على أنفس الأعلاق، ويقدم على أكرم العقد، ومن حق من يعرفه حق معرفته أن يجتهد في التماسه؛ ليفوز بفضيلته؛ فإن من كانت هذه خصاله كان التقصير في طلبه قصوراً، والتفريط في تحصيله لا يكون إلا بعدم التوفيق، ومن أقصر عنه أو قَصَّر دونه فليأذن بخسران الصفقة، وليقرَّ بقصور الهمة، وليعترف بنقصان المعرفة، وليعلم أنه غُبِن الحظَّ الأوفر، وخُدع عن النصيب الأجزل، وباع الأرفع بالأدون، ورضي بالأخس عوضاً عن الأنفس، وذلك هو الضلال البعيد.ص٥٤

٨_ ولِفَضْلِ العلم ما ذلت في التماسه الأعزاء، وتواضع الكبراء، وخضع لأهله ذوو الأحلام الراجحة، والنفوس الأبية، والعقول السليمة، واحتملوا فيه الأذى، وصبروا على المكروه، ومن طلب النفيس خاطر بالنفيس، وصبر على الخسيس.ص٥٨

٩_ قال أبو هلال: سميت الرياح: المؤتفكات؛ لأنها لا تتماسك، وأصل هذه الكلمة عدم التماسك، وسمي الكذب إفكاً؛ إذ كان يدل على نفسه بالفساد والبطلان، كأنه لا يتماسك.ص٥٩

١٠ـ وقال سعيد بن جبير: لا يزال الرجل عالماً ما تعلم، فإذا ترك، كان أجهل ما يكون.

قال الشيخ أبو هلال: ونحو هذا ما قلته:

أُحَقِّرُ نفسي وهي نفس جليلة تَكَنَّفها من جانبيها الفضائلُ
أحاول منها أن تزيد فترتقي إلى حيث لا يسمو إليه المحاول
وإن أنت لم تبغِ الزيادة في العلا فأنت على النقصان منهن حاصل

ص٦٢

١١ـ وقيل لبزْرجمهر: بم جمعت هذا العلم الكثير؟!

قال: ببكور كبكور الغراب، وحرص كحرص الخنزير، وصبر كصبر الحمار.

ونحو هذا قول شعبة وقد قيل له: ما بال حديثك نقِيًّا؟!

قال: لِتَرْكِيَ العصائد بالغدوات.ص٦٥

١٢ـ إن الكتب لا تحيي الموتى، ولا تحول الأحمق عاقلاً، ولا البليد ذكياً، ولكن الطبيعة إذا كان فيها أدنى قبول فالكتب تشحذ، وتفتق، وترهف.

ومن أراد أن يعلم كل شيء فينبغي لأهله أن يداووه؛ فإن ذلك إنما تصور له لشيء اعتراه.ص٧٠

١٣ـ وقال الزهري: إن الرجل ليطلب وقَلْبُه شِعْبٌ من الشعاب، ثم لا يلبث أن يصير وادياً، لا يوضع فيه شيء إلا التهمة.

قلنا: يريد أن أول الحفظ شديد يشق على الإنسان، ثم إذا اعتاد سهل.

ومصداق ذلك ما أخبرنا به الشيخ أبو أحمد، عن الصُّولي، عن الحارث ابن

أسامة قال: كان العلماء يقولون: كل وعاء أفرغت فيه شيئاً فإنه يضيق إلا القلب؛ فإنه كلما أفرغ فيه اتسع.

وقال أبو السمح الطائي: كنت أسمع عمومتي في المجلس ينشدون الشعر، فإذا استعدتهم زجروني وسبوني، وقالوا: تسمع شيئاً ولا تحفظه!

قال الشيخ: وكان الحفظ يتعذر عليّ حين ابتدأت أرومه، ثم عودته نفسي، إلى أن حفظت قصيدة رؤبة:

❖ وقاتم الأعماق خاوي المخترق❖ في ليلة وهي قريب من مائتي بيت.

وقد قال الشعبي: ما وضعت سوداء في بيضاء قطُّ، ولا حدثني أحدٌ بحديثٍ فاحتجتُ إلى أن يعيده علي.ص٧١ ـ ٧٢

١٤ـ وينبغي للدارس أن يرفع صوته في درسه حتى يُسمع نفسه؛ فإن ما سمعته الأذن رسخ في القلب؛ ولهذا كان الإنسان أوعى لما يسمعه منه لما يقرأه، وإذا كان المدروس مما يفسح طرق الفصاحة، ورفع به الدارس صوته زادت فصاحته.ص٧٣

١٥ـ وحكي لي عن بعض المشايخ أنه قال: رأيت في بعض قرى النبط فتىً فصيحَ اللهجة، حسنَ البيان، فسألته عن سبب فصاحته مع لُكْنة أهل جلدته! فقال: كنت أعمِد في كل يوم إلى خمسين ورقة من كتب الجاحظ، فأرفع صوتي بها في قراءتها، فما مر لي إلا زمان قصير، حتى صرت إلى ما ترى.ص٧٣

١٦ـ وحكي لي عن أبي حامد أنه كان يقول لأصحابه: إذا درستم فارفعوا أصواتكم، فإنه أثبت للحفظ، وأذهب للنوم.

وكان يقول: القراءة الخفية للفهم، والرفيعة للحفظ والفهم، وكان بعضهم يقرأ الكتاب، ثم يذاكر به حرفاً حرفاً، كأن قارئاً يقرؤه عليه، فيفسره له.ص٧٣

١٧_ واعلم أن الذكاء، وجودة القريحة، وثقوب الذهن جواهر نفيسةٌ، فإذا طلب صاحبها العلم فبلغ مبلغاً فقد حفظ جمالها على نفسه، وأحرز منفعتها لها.

ومن ترك الطلب حتى كَلَّ ذهنه، وعميت فطنته، وتبلدت قريحته، مع إدبار عمره _ كان كمن عَمَد إلى ما عنده من الياقوت والدر فرضَّه، وأبطل الجَمَال والنفعَ به.

وإذا كان ما جمعته من العلم قليلاً، وكان حفظاً كثرت المنفعة به، وإذا كان كثيراً غير محفوظ قلت منفعته.ص٧٤ _ ٧٥

١٨_ وقال المنصور بن المهدي للمأمون: أيحسن بمثلي أن يتعلم؟

فقال: والله لأن تموت طالباً للعلم خيرٌ من أن تموت قانعاً بالجهل.ص٧٦

١٩_ وحكي عن ثعلب أنه كان لا يفارقه كتاب يدرسه، فإذا دعاه رجل إلى دعوةٍ، شرط عليه أن يوسع له مقدار مِسْوَرة؛ يضع فيها كتاباً ويدرس. ص٧٦_٧٧

٢٠_ وكان أبو بكر الخياط النحوي يدرس جميع أوقاته، حتى في الطريق، وكان ربما سقط في جرف، أو خبطته دابةٌ.ص٧٧

٢١_ وحكي عن بعضهم أنه كان يشد في وسطه خيطاً إذا قام من الليل يدرسُ؛ خوفاً من أن يسقط إذا نعس.ص٧٧

٢٢ـ وكان ابن الفرات لا يترك كل يوم إذا أصبح أن يحفظ شيئا وإن قل.

وكان بعضهم يقول: متى تبلغ من العلم مبلغاً يُرْضى، وأنت تؤثر النوم على الدرس، والأكل على القراءة؟ ص٧٧

٢٣ـ وكان الأصمعي يحفظ اثنتي عشرة ألف أرجوزة، فيها ما كان عدد أبياتها المائة والمائتين.ص٧٩

٢٤ـ قال الشيخ أبو هلال: وعند الحكماء أن من تبرم بالعلم والعلماء، ومن يقدر على حفظ العلم والأدب، وهو مقصر فيه ـ فليس بإنسان كاملٍ، والكاملُ مِنَ الناس مَنْ عرف فضل العلم، ثم إن قدر عليه طلبه.ص٨٢

٢٥ـ وقال الحسن: من ترك طلب العلم؛ حياءً ألبسه الجهل سرباله، ومن رق وجهه رق علمه.

وقال الخليل: منزلة الجهل بين الحياء والأنفة.ص٨٤

٢٦ـ قال أبو هلال: وجعل الحكماء منزلة العلماء مثل منزلة الملوك.

فقالوا: من أدب الداخل على العالم أن يسلم على أصحابه عامةً، ويخصه بالتحية، ويجلس قدامه، ولا يشير بيده، ولا يغمز بعينه، ولا يقول بخلاف قوله، ولا يغتاب عنده أحداً، ولا يسارَّ في مجلسه، ولا يُلِحَّ عليه إذا كسل، ولا يعرض عن كلامه، فإنه بمنزلة النخلة، لا يزال يَسْقُطُ عليك منها شيء ينفعك.ص٨٤

٢٧ـ وكان الخليل يقول: أثقل ساعات علي ساعة آكل فيها! ص٨٨

٢٨ـ قال أبو هلال: ولو أن الجاهل تبين نقيصة الجهل من نفسه ـ لفزع إلى مفارقته بالكد في التعلم، ولكنه كآكل الثوم، لا يشم من نفسه نتنه، وإنما يشمه

غيره، ويتأذى به سواه.ص٩٧

٢٩_ والفضيحة بالجهل عظيمةٌ، والغبن به كثيرٌ لو عرفه الجاهل.ص٩٧

٣٠_ ولا يرضى بالجهل إلا من هانت عليه نفسه، فلا يبالي أن يهجى، ويُسْتَخَفَّ به، ويُسخر منه، وأدنى حقه منه ذلك.

ومن أكرمه _ إلا عند ضرورة _ فقد وقع الإكرام في غير موضعه.ص٩٧

ثالثاً: نقولات مختارة من كتاب:

الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي ٣١٠ ـ ٤١٤هـ

«**تعريف بالمؤلف**»: هو أبو حيان علي بن العباس البغدادي ولد سنة ٣١٠هـ من أبوين فقيرين، وقد قضى حياته في بغداد، حيث أتيح له أن يتلقى العلم على بعض علماء عصره كأبي سعيد السيرافي ٢٤٨هـ ـ ٣٦٧هـ، وعلي ابن عيسى الرماني ٢٩٦هـ ـ ٣٨٤هـ وغيرهم.

قال عنه ياقوت الحموي رحمه الله في معجم الأدباء ٢٨٧/٤: «التوحيدي: شيرازي الأصل وقيل نيسابوري، ووجدت بعض الفضلاء يقول له: الواسطي».

وقال عنه ٢٨٨/٤: «وكان متفنناً في جميع العلوم من النحو، واللغة، والشعر، والأدب، والفقه، والكلام على رأي المعتزلة».

إلى أن قال: «ومع ذلك فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاءً، وفطنة، وفصاحة، ومُكنة كثير التحصيل للعلوم في فن حفظه، واسع الدراية والرواية» اهـ.

ولأبي حيان تصانيف كثيرة منها: رسالة الصداقة والصديق، والبصائر والذخائر، والإمتاع والمؤانسة، والمقابسات، وأخلاق الوزيرين إلى غيرها.

وسمي بالتوحيدي نسبة إلى التوحيد، وقيل: نسبة إلى نوع من تمر العراق؛ حيث كان أبوه يبيع التوحيد ببغداد.

وعلى كل حال فإن أبا حيان قد اخْتُلف في سيرته؛ فالناس فيه ما بين قادح ومادح، وإن اتفقوا على علوِّ كعبه، ونباوة قدره في علوم شتى.

وأما موضوع هذا الكتاب الذي بين أيدينا فلا علاقة له فيما يذم به أبو حيان،

بل يكاد يكون أحسن كتبه؛ لأنه يتحدث عن موضوع يشترك فيه الناس على اختلاف طبقاتهم، وإن كان لا يخلو من ملحوظات عامة.

«**تعريف بالكتاب**»: هذا الكتاب يكاد يكون أحسن ما أُلِّف في هذا الباب؛ إذ الحديث عن الصداقة والصديق حديث حلو رائق، رائع شائق، تتجاوب فيه عواطف النفس البشرية، وعلى صفحاته تنعكس نفسيتها وروحها.

ولقد عُني العلماء، والأدباء، والفلاسفة، والشعراء في موضوع الصداقة؛ فأمعنوا في استكناهِ هذه الرابطة العجيبة، وتعريفها، وتحديدها، وتحليل روابطها ودوافعها، ودوامها، وفسادها، وما إلى ذلك.

والصداقة قد تكون لمنفعة، وقد تكون لِلَذَّة، وقد تكون لفضيلة، وهذه الأخيرة هي التي عليها المدار، وهي التي لا تبلى بكرور الأيام.

وأبو حيان التوحيدي عاش عمراً مديداً يصل إلى مائة وأربع سنوات، وكتابه هذا بدأه سنة ٣٧١هـ، ولم يتمه إلا سنة ٤٠٠هـ أي في العقد الأخير من عمره بعد أن «بلغت شمسه رأس الحائط» على حد تعبيره.

وهذا مما يؤكد أهمية هذا الكتاب الذي صدر عن ذلك الأديب ذي النفس المرهفة، والتجربة الطويلة، كيف وقد بيَّن في كتابه هذا أن في حديث الصداقة «شفاءً للصدر، وتخفيفاً من البُرحاء، واطراداً للغيظ، وبرداً للغليل، وتعليلاً للنفس».

ولقد ضَمَّن هذا الكتابَ نقولاً كثيرة، وتجارب فريدة فذة، توصل من خلالها إلى استنتاجات بديعة ممتعة، تفيد الإنسان في معاشه، وتعامله مع الأحداث،

والمتغيرات، وتختصر عليه وقتاً طويلاً خصوصاً إذا كان ذا فطنة مستيقظة تعتبر بالحوادث، ولا تمر عليها مرور الكرام.

وقد طبع الكتاب أول مرة في القسطنطينية في مطبعة الجوائب سنة ١٣٠١هـ.

وطبع مرة ثانية في القاهرة سنة ١٣٢٣هـ.

أما الطبعة التي بين أيدينا فقد عني بتحقيقها والتعليق عليها د.إبراهيم الكيلاني، وتقع في ٤١٦ صفحة، قياس الصفحة ١٧x٢٥سم، وهي الطبعة الثانية من مطبوعات دار الفكر المعاصر في بيروت لبنان، ودار الفكر في دمشق سورية عام ١٤١٦هـ _ ١٩٩٦م.

ـ «**النقولات المنتقاة**»: قال أبو حيان التوحيدي في كتابه: الصداقة والصديق:

١ـ سُمع مني في وقت بمدينة السلام كلامٌ في الصداقة، والعشرة، والمؤاخاة، والألفة، وما يلحق بها من الرعاية، والحفاظ، والوفاء، والمساعدة، والنصيحة، والبذل، والمواساة، والجود، والتكرم، مما قد ارتفع رسمه بين الناس، وعفا أثره عند العام والخاص، وسُئلت إثباته ففعلت، ووصلت ذلك بجملةٍ مما قال أهل الفضل والحكمة، وأصحاب الديانة والمروءة؛ ليكون ذلك كلُّه رسالة تامة يمكن أن يستفاد منها في المعاش والمعاد.ص ٢٩

٢ـ قال أبو سليمان السجستاني: «فأما الملوك فقد جَلُّوا عن الصداقة؛ ولذلك لا تصح لهم أحكامها، ولا توفي بعهودها، وإنما أمورهم جارية على القدرة، والقهر، والهوى، والشائق، والاستحلاء، والاستخفاف.

وأما خدمهم وأولياؤهم فعلى غاية الشبه بهم، ونهاية المشاكلة لهم؛ لانتشابهم بهم، وانتسابهم إليهم، وولوع طورهم بما يصدر عنهم، ويَرِدُ عليهم.

وأما التُّنَّاء وأصحاب الضياع فليسوا من هذا الحديث في عير ولا نفير.

وأما التجار فكسب الدوانيق سدٌّ بينهم وبين كل مروءة، وحاجزٌ لهم عن كل ما يتعلق بالفتوة.

وأما أصحاب الدين والورع ـ فعلى قلتهم ـ فربما خلصت لهم الصداقة؛ لبنائهم إياها على التقوى، وتأسيسها على أحكام الحرج، وطلب سلامة العقبى.

وأما الكتَّاب وأهل العلم فإنهم إذا خلوا من التنافس، والتحاسد، والتماري،

والتماحك _ فربما صحت لهم الصداقة، وظهر منهم الوفاء، وذلك قليل، وهذا القليل من الأصل القليل.

وأما أصحاب المذاب والتطفيف فإنهم رجرجة بين الناس، لا محاسن لهم فتذكر، ولا مخازي فتنشر؛ ولذلك قيل لهم همج، ورعاع، وأوباش، وأوناش، ولفيف، وزعانف، وداصة، وسقاط، وأنذال، وغوغاء؛ لأنهم من دقَّة الهمم، وخساسة النفوس، ولؤم الطبائع على حال لا يجوز معها أن يكونوا في حومة المذكورين، وعصابة المشهورين.ص٣٢_ ٣٣

٣_ كان سبب إنشاء هذه الرسالة في الصداقة والصديق أني ذكرت شيئاً منها لزيد بن رفاعة أبي الخير، فنماه إلى ابن سعدان الوزير أبي عبدالله سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة قبل تحمله أعباء الدولة، وتدبيره أمر الوزارة، حين كانت الأشغال خفيفة، والأحوال على إذلالها جارية، فقال لي ابن سعدان: قال لي زيد عنك كذا وكذا، قلت: قد كان ذاك، قال: فدوِّن هذا الكلام، وصِلْهُ بصلاته مما يصح عندك لمن تقدم؛ فإنَّ حديث الصديق حلو، ووصف الصاحب المساعد مطرب؛ فجمعت ما في هذه الرسالة، وشُغل عن ردِّ القول فيها، وأبطأت أنا عن تحريرها إلى أن كان من أمره ما كان.

فلما كان هذا الوقت _ وهو رجب سنة أربعمائة _ عثرت على المسودة وبيضتها على نحيلها، فإن راقتك فذاك الذي عزمتُ بنيِّتي، وحولي، واستخارتي، وإن تزحلقتُ عن ذلك فللعذر الذي سحبتُ ذيله، وأرسلت سيله.ص ٣٥

٤_ واسترسال الكلام في هذا النمط شفاءٌ للصدر، وتخفيف من البُرَحاء، وانجياب للحرقة، واطراد للغيظ، وبرد للغليل، وتعليل للنفس، ولا بأس بإمرار كل ما لاءمه، ودخل في حوزته، وإن كان آخره لا يدرك، وغايته لا تملك.ص٣٧ _ ٣٨

٥_ قال صالح بن عبدالقدوس:

بُنيَّ عليك بتقوى الإله فإنَّ العواقب للمتَّقي
وإنك ما تأتِ من وجهه تجدْ بابه غير مُستغلقِ
عدوك ذو العقل أبقى عليك من الصاحب الجاهل الأخرقِ
وذو العقل يأتي جميل الأمور ويعمدُ للأرشد الأوفقِ

ص ٣٨

٦_ فأما الذي قال في أصدقائه وجلسائه الخير، وأثنى عليهم الجميل، ووصف جدَّه بهم، ودلَّ على محبته لهم _ فغريب!.

قال بعضهم:

أنتم سروري وأنتم مُشتكى حَزَني وأنتم في سَواد الليل سُمَّاري
أنتم وإن بَعُدت عنَّا منازلكم نوازلٌ بين أسراري وتذكاري
فإن تكلمتُ لم أَلْفِظْ بغيركُمُ وإن سكتُّ فأنتم عَقْدُ إضماري
الله جارُكُم مما أحاذرُه فيكم وحبي لكم من هجركم جاري

ص٣٨

٧_ أخبرنا أبو سعيد السِّيرافي، قال: أخبرنا ابن دُريد، قال: قال أبو حاتم

السجستاني: «إذا مات لي صديق سقط مني عضوٌ».ص٣٩

٨ـ وقيل لأعرابي: مَنْ أكرمُ الناس عشرة؟ قال: مَنْ إن قَرُبَ مَنَح، وإن بَعُدَ مَدَح، وإن ظُلِمَ صفح، وإن ضويق فسح، فمن ظفر به فقد أفلح ونجح.ص٣٩

٩ـ كان أبو داود السجستاني أيام شبابه وطلبه للرواية قاعداً في مجلس، والمستملي في حدَّثه، فجلس إليه فتى، وأراد أن يكتب، فقال له: أيها الرجل استمدُّ من محبرتك؟ قال: لا، فانكسر الرجل، فأقبل عليه أبو داود، وقد أحسَّ بخجله: أما علمت أن من شرع في مال أخيه بالاستئذان، فقد استوجب بالحشمة الحرمان، فكتب الرجل من محبرته، وسمي أبو داود حكيماً.ص٤٢ ـ ٤٣

١٠ـ أخبرنا أبو الحسن علي بن عيسى، أخبرنا ابن دريد، عن عبدالرحمن، عن عمه الأصمعي، قال عبدالله بن جعفر: كمال الرجل بخلال ثلاث:

معاشرة أهل الرأي والفضيلة، ومداراة الناس بالمخالقة الجميلة، واقتصاد من غير بخل في القبيلة، فذو الثلاث سابق، وذو الاثنين زاهق، وذو الواحدة لاحق، فمن لم تكن فيه واحدة من الثلاث لم يسلم له صديق، ولم يتحنَّن عليه شفيق، ولم يتمتع به رفيق.ص٤٤

١١ـ قال العتابي لصاحب له: ما أحوجك إلى أخ كريم الأخوة، كامل المروءة، إذا غبت خلفك، وإذا حضرت كنَفَك، وإذا نكرت عرفك، وإذا جفوت لاطفك، وإذا بررت كافأك، وإذا لقي صديقك استزاده لك، وإن لقي عدوك كفَّ عنك غرب العادية، وإذا رأيته ابتهجت، وإذا بائَثْتَهُ استرحت. ص٤٤ ـ ٤٥

١٢_ وقال الخليل بن أحمد: الرجل بلا صديق كاليمين بلا شمال.ص٤٥

١٣_ مرض قيس بن سعد بن عبادة فأبطأ إخوانه عنه، فسأل عنهم، فقيل: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدَّين، فقال: أخزى الله ما يمنع الإخوان من العيادة، ثم أمر منادياً فنادى: ألا مَنْ كان لقيس عليه حق، فهو منه في حلٍّ وسعة، فكسرت درجته بالعشي؛ لكثرة من عاده.ص٤٥

١٤_ قال عمر بن شبَّة: الْتَقَى أخوان في الله، فقال أحدهما لصاحبه: والله يا أخي إني لأحبك في الله، فقال له الآخر: لو علمت مني ما أعلمه من نفسي لأبغضتني في الله.

فقال: والله يا أخي لو علمتُ منك ما تعلمه من نفسك لمنعني من بغضك ما أعلمه من نفسي.٤٦ _ ٤٧

١٥_ وقال إبراهيم بن أدهم: أنا منذُ عشرين سنة في طلب أخٍ إذا غضب لم يقل إلا الحق فما أجده.ص٤٧

١٦_ قال بعض السلف: عليك بالإخوان، ألم تسمع قوله _ تعالى _: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ الشعراء: ١٠٠ _ ١٠١.ص٤٨

١٧_ قال رجل لأبي مجنب: إني لأودُّك، فقال: إني لأجد رائد ذلك.ص٤٩

١٨_ قال ابن عائشة: جزعُك في مصيبة صديقك أحسن من صبرك، وصبرك في مصيبتك أحسن من جزعك.ص٥١

١٩_ قال أبو جعفر المنصور: مَنْ أعطى إخوانه النَّصَفة، وعاشرهم بجميل العِشْرة قويَ بهم عضده، وزاد بهم جلده، وبذلوا دونه المهج، وخاضوا في

رضاه اللُّجج.ص٥١

٢٠_ قال الشعبي: تعايش الناس بالدين زماناً حتى ذهب الدين، ثم تعايشوا بالمروءة حتى ذهبت المروءة، ثم تعايشوا بالحياء حتى ذهب الحياء، ثم تعايشوا بالرغبة والرهبة، وسيتعايشون بالجهالة زمناً طويلاً.ص٥٣

٢١_ قال الأحنف: من حق الصديق أن يحتمل له ظلم الغضب، وظلم الدالة، وظلم الهفوة.ص٥٤

٢٢_ وقال أبو بكر: قارب إخوانك في خلائقهم تسلم من بوائقهم، وترتع في حدائقهم.ص٥٤

٢٣_ قال عثمان بن عفان: ما ملك رفيقاً من لم يتجرَّع بغيظٍ ريقاً.ص٥٥

٢٤_ قال الأصمعي فيما روى لنا المرزباني، عن ابن دريد، عن عبدالرحمن، عن الأصمعي، قال أعرابي: أعجز الناس من قصَّر في طلب الإخوان، وأعجز منه من ضيّع من ظفر به منهم.ص٥٥

٢٥_ قيل لمسور بن مخرمة الزهري: أيُّ الندماء أحبُّ إليك؟ قال: لم أجد نديماً كالحائط، إن بصقتُ في وجهه لم يغضب عليَّ، وإن أسررتُ إليه شيئاً لم يفشه عني.ص٥٥

٢٦_ قال ابن مناذر: كنت أمشي مع الخليل فانقطع شِسْعُ نعلي فخلع نعله، فقلت له: ما تصنع؟ قال: أواسيك بالحفاء.ص٥٥

٢٧_ قال بعض السلف: ابذل لصديقك دَمَك ومالَك، ولمعرفتك رِفْدك ومحضَرك، ولعدوك عدلَك وإنصافَك.ص٥٧

٢٨_ مرَّ بخالد بن صفوان صديقان ، فعرَّج عليه أحدهما وطواه الآخر ، فقيل له في ذلك ، فقال : عرج علينا هذا لفضله ، وطوانا ذاك لثقته.ص٥٨

٢٩_ قال العوامي : الصديق يرتفع عن الإنصاف ، ويجلُّ _أيضاً_ عن الهجران؛ لأن الإنصاف ينبغي أن يكون عاماً مع الناس كلهم ، وأما الهجران فالعاقل لا يسرع إليه لعدم الإنصاف بل يستأني ، ويقف ، ويكظم ، ويتوقع ، ويرى أن العارض في الأمر لا يُزال به الأمرُ الثابت ، والعرقُ النابت.ص٥٨

٣٠_ وكان بين القاضي أبي حامد المَرُّوذي وبين ابن نصرويه العداوة الفاشية ، والشحناء الظاهرة[١] ، فكان إذا جرى ذكر ابن نصرويه أنشد :

وأبى ظاهرُ العداوة إلا طغَياناً وقولَ ما لا يقالُ

وكان يقول : والله إني بباطنه في عداوته أوثقُ مني بظاهر صداقة غيره ، وذاك لعقله الذي هو أقوى زاجر له عن مساءتي ، إلا فيما يدخل في باب المنافسة؛ ولهذا استمر أمرنا أربعين سنة ، من غير فحاشة ولا شناعة ، ولقد دعيتُ إلى الصلح فأبيتُ ، فقلت : لا نحرك الساكن منا ، فَلِقَدِيمِ العداوة بالعقل ، والحفاظ من الذمام والحرمة ما ليس لحديث الصداقة بالتكلف والملق.

ولقد وقفني مرة على ضربة تأتت له عليٍّ كان فيها البوار ، كفَّ عنها ، وأخذ بالحسنى ، فأريته أختها ، وكانت خافيةً عنده ، فقال : لولا علمي بأنك تسبق إلى مثل هذه ما قابلتك بتلك ، فقلت : هو والله ذاك.

ووالله لقد ضرني ناس كانوا ينتحلون مودتي ، ويتبارون في صداقتي؛ لضعف

١_ هذه قصة عجيبة تؤكد الحكمة القائلة : إن العدو العاقل خير من الصديق الجاهل.

نحائزهم[1]، ولؤم غرائزهم، ولقد ثبت لي هو في عداوته على عقل وتذمم، أفضيا بهما إلى سلامة الدين، والنفس، والحال.

وورد معز الدولة هذا المِصْر، فسأله عني سراً، فأثنى خيراً، وقال: ما قطَنَ مصرنا غريب أعظم بركة منه، وإنه لَجَمالُنا عند المباهاة، ومَفْزَعُنا عند الخلاف!

ولقد سألني معز الدولة عنه سراً، فأثنيت خيراً، وقلت: أيها الأمير، والله ما نشأت فتنةٌ في هذا المصر إلا وهو كان سبب زوالها، وإطفاء ثائرتها، وإعادة الحال إلى غضارتها ونضارتها!

فقال معز الدولة لأبي مخلد سراً: كيف الحال بينهما؟ _ يعنينا _ فقال: بينهما نُبوٌّ لا ينادى وليدُه، وتعادٍ لا يلين أبداً شديدُه.

فقال: لئن كان كما تقول فإنهما ركنا هذا البلد، وعدَّتا هذا السواد، اجعلهما عينيَّ أبصر بهما أحوال الناس في هذا المكان، وأعوِّل عليهما في ما يريان ويشيران، فخلا بي أبو مخلد وبصاحبي، وتقدم إلينا عن صاحبه بما زادنا بصيرةً وتألفاً إلى هذه الغاية.

ثم قال أبو حامد: والله إن عداوة العاقل لألذُّ وأحلى من صداقة الجاهل؛ لأن الصديق الجاهل يتحاماك بعداوته، ويُهدي إليك فضل عقله ورأيه، ومن فضل عداوة الجاهل أنك لا تستطيع مكاشفته حياءاً منه، وإيثاراً للإرعاء عليه، ومن فضل عداوة العاقل أنك تقدر على مغالبته بكل ما يكون منه إليك.

ثم قال: وما أظن أنه كان فيما مضى إلى وقتنا هذا متصادقان على العقل

١_ نحائز: جمع نحيزة، وهي الطبيعة.

والدين، مثل أبي بكر وعمر، ومن يتحرى أخبارهما، ويقفو آثارهما وقف على غورٍ بعيد، هذا مع العُنجهية المصحوبة أيام الجاهلية، والعَجْرفية المعتادة أوان الكفر، فلما أنار الله قلوبهما بالإيمان رجعا إلى عقل نصيح، ودين صحيح، وعرفان بالعرف والنكر، ونهوض بكل ثِقْل وخِف، وإني لأرحم الطاعن فيهما، والنائل منهما؛ لضعف عقله ودينه، وذهابه عما خصا به، وعَمَّا فيه، وميزا عنه، ورقيا إليه، واندفع في هذا وشبهه، وكان والله بليل الريق، يستحضر كيف شاء بالطويل والعريض، والجليل والدقيق.ص٥٩ _ ٦١

٣١_ قال محمد بن الحنفية: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد بُدَّاً من معاشرته حتى يجعل الله له من ذلك مخرجاً.ص٦٢

٣٢_ قال أبو بكر: حقُّ الجليس إذا دنا أن يُرحب به، وإذا جلس أن يوسع له، وإذا حدث أن يُقْبَل عليه، وإذا عثر أن يقال، وإذا أُنقص أن ينال، وإذا جهل أن يُعَّلم.ص٦٢

٣٣_ قال عبدالملك بن صالح: مشاهدة الإخوان أحسن من إقبال الزمان، وألذ من نيل الأمان، وأحلى من رضا السلطان.ص٦٤

٣٤ _ إن الزمان على اختلاف مروره ... ما زال يخلطُ حزنه بسرورهِ
لم يُصْفِ عيشاً منذ كان لمعشرٍ ... إلا وعاد يجدُّ في تكديرهِ
فالعاقل النحرير يُلزم نفسه ... صبراً عليه في جميع أمورهِ
وأحقُّ ما صبر امرؤ من أجله ... ما لا سبيل له إلى تغييرهِ

ص٦٥

٣٥ـ قيل لديوجانس[١]: ما الذي ينبغي للرجل أن يتحفظ منه؟ قال: من حسد أصدقائه، ومكر أعدائه.ص٧١

٣٦ ـ قال انكساغورس: كيف تريد من صديقك خلقاً واحداً وهو ذو طبائع أربع[٢]؟

وفي مثله قول الشاعر:

وأنَّى له خُلُق واحد وفيه طبائعُه الأربعُ

ص٧١

٣٧ـ سمعت برهان الصوفي الدينوري يقول: سمعت الجُنَيْد يقول: لو صحبني فاجر حسن الخُلُق كان أحبَّ إلي من أن يصحبني عابد سيء الخلق.

قال برهان: لأن الفاجر الحسن الخلق يُصلحني بحسن خُلقه، ولا يضرني فجوره، والعابد السيئ الخلق يفسدني بسوء خلقه، ولا ينفعني بعبادته؛ لأن عبادة العابد له، وسوء خلقه عليَّ، وفجور الفاجر عليه، وحسن خلقه لي.ص٧٢

٣٨ـ إذا أنت صاحبت الرجال فكن كأنك مملوك لكلِّ رفيقِ

وكن مثل طعم الماء عذباً وبارداً على كبدٍ حرَّى لكلِّ صديقِ

ص٧٣

٣٩ـ قيل للجنيد: ابن عطاء يدعي صداقتك فهل هو كما يقول؟.

قال: هو فوق ما يقول، وأجدُ ذلك له من قلبي بشواهد لا تَكْذِبُني عنه، ولا

١ـ هو ديوجانس، أو ديوجينيس الكلبي من حكماء اليونان.

٢ـ يعني: الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة.

تَكْذِبُهُ عني.ص٨٧

٤٠_ توفي ابنٌ ليونس بن عبيد فقيل له : إن ابن عون لم يأتك.

فقال : إنا إذا وثقنا بمودة أخٍ لا يضرنا أن لا يأتينا.ص٩٥

٤١_ قال بلال بن سعيد : أخ لك كلما لقيك ذكَّرك برؤيته ربك خيرٌ لك من أخٍ كلما لقيك وضع في كفك ديناراً.ص٩٩

٤٢_ قال يحيى بن معاذ : واشوقاه إلى حبيب إذا غضب عفا ، وإذا رضي كفى.ص١٠٠

٤٣_ أخبرني المُرزباني ، حدثنا الصُّولي ، حدثنا المبرَّد ، حدثنا أبو عمر ، قال الأصمعي : دخلتُ على الخليل وهو جالس على حصير صغير فقال : تعال واجلس ، فقلت : أضيِّقُ عليك.

فقال : مَهْ ، فإن الدنيا بأسرها لا تسعُ متباغضين ، وإن شبراً في شبر يسع متحابين.ص١٠٤ _ ١٠٥

٤٤_ ما ودَّني أحدٌ إلا بذلت له ... صفوَ المودة مني آخر الأبدِ

ولا قَلاني وإن كنت المحبَّ له ... إلا دعوت له الرحمن بالرشدِ

ولا ائْتُمِنْتُ على سرٍّ فبحتُ به ... ولا مددت إلى غير الجميل يدي

ولا أقول نعم يوماً فأتبعها ... منعاً ولو ذَهَبتْ بالمال والولدِ

ولا أخون خليلي في حليلته ... حتى أُغيَّب في الأكفان واللحدِ

ص١٠٨ _ ١٠٩

٤٥_ سمعت أحمد بن محمد الكاتب يحكي : قال العتَّابي : لا أحبُّ رجلاً نَقَل

إلي ما كرهتُ عن صديقي فغيَّرني له، ولا عن عدوٍّ فحملني على طلب الانتصار منه، ومع ذلك فلم يستحي بأن واجهني بما ساءَني سماعه.ص١١٠

٤٦_ بعث النَّضْر بن الحارث إلى صديق له بعبَّادان نعلين مخصوفتين وكتب إليه: إني بعثت بهما إليك، وأنا أعلم أنك عنهما غني، لكني أحببت أن تعلم أنك مني على بال، والسلام.

فأجابه: ما أنا بغني عن برِّك الذي يحثني على شكرك، ويخرطني في سِلْكك، ويزيدني بصيرةً بزيادة الله عندك، ومحبتك _لأَنْ أَعْلَم أني منك على بال؛ لأن يقيني بذلك راسخ، وحمدي عليه غادٍ ورائح، لا عدمتك لي أخاً باراً، ولا عدمتني لك قائلاً ساراً.ص١١٣

٤٧_ قال أبو غسان غناة بن كليب: اجتمعت أنا ومحمد بن النضر الحارثي وعبدالله بن المبارك والفضيل ورجل آخر، فصنعت لهم طعاماً، فلم يخالف محمد بن النضر علينا في شيء، فقال له ابن المبارك: ما أقلَّ خِلافكَ، فأنشد:

وإذا صاحبتَ فاصحبْ ماجداً ذا حياءٍ وعفافٍ وكرمْ
قوله للشيء لا إن قلت لا وإذا قلت نعم قال نعم

ص١١٣ _ ١١٤

٤٨_ كتب أبو بكر لرجلٍ كتاباً في شيء جعله قطيعة له، فحمله الرجل إلى عمر بن الخطاب ليمضيه، فلما نظر عمر فيه بزق عليه ومحاه، فعاد الرجل مستعراً إلى أبي بكر فقال: فعل عمر كذا وكذا، والله ما أدري أأنت الخليفة أو عمر؟ فقال أبو بكر: هو، إلا أنه أنا!.

وكان الزهري يرويه: إلا أنه أبى، وعلى الوجهين المراد صحيح، والمرمى عالٍ، والغاية بعيدة.ص١١٩

٤٩ـ قيل لأعرابي: أبالصديق أنت آنس أم بالعشيق؟ فقال: يا هذا الصديق لكل شيء، للجد والهزل، وللقليل والكثير، ولا عاذل عليه، ولا قادح فيه، وهو روضة العقل، وغدير الروح.

فأما العشيق فإنما هو للعين، وبعض الريبة، والعذل إليه من أجله سريع، وفي الوُلُوع به إفراط مزجور عنه، وحد موقوف دونه، فأين هذا من ذاك؟!.ص١١٩

٥٠ـ إذا كثرتْ ذنوبٌ من خليل   فَقِفْهُ بين وصل واجتنابِ
وأَنْظِرهُ فللأيام حكمٌ   بذلك كلُّ ماضي العزم آبِ
وعاتبه فكم أبدى عتابٌ   جليَّةَ مشكلٍ بعد ارتيابِ
ورجّ النفع في الإعراض عنه   إذا أخفقت من نفع العتابِ
وراجعه بعفوك حين يَثْني   عِناناً للرجوع أو الإيابِ
فإن العفو عن ذي الحزم أولى   إذا قدرت يداك على العتابِ
فإنك واجد للحي ذنباً   وتعدم ذنبَ من تحت الترابِ

ص١٢٢

٥١ـ وقال بعض العلماء: التمس ودَّ الرجل العاقل في كل حين، وودَّ الرجل ذي النُّكر في بعض الأحايين، ولا تلتمس ودَّ الرجل الجاهل في حين.ص١٣٢

٥٢ـ ويلقونني بالبشر ما دمت فيهمُ   فإن غِبْتُ عنهم قطَّعوا الجِلْدَ بالسبِّ
وأغضي على أشياءَ منك تُريبني   ولولا اصطباري فاضَ عن عُظْمها قلبي

وما ذاك من ضَعْفٍ ولا سوء مَحْتَدٍ ولكنْ تناسي الذنب أقطعُ للذنبِ

ص١٣٦ _ ١٣٧

٥٣_ إذا ما امرؤ ساءتك منه خليقةٌ ففي الصَّفْح طيٌ للذنوب جميلُ

وإني لأعطي المالَ من ليس سائلاً حِفاظاً وإخوانُ الحِفاظ قليلُ

ص١٣٨

٥٤_ وسمعت أبا دُلَف الخزرجي يقول: أنا أستجفي الشاعر الذي يقول:

والله لا كنت في حسابي إلا إذا كنت في حسابكْ

فإن تزرني أزرك أو إن تقف ببابي أقف ببابكْ

وكان يقول: ما هذه الغلظة، والفظاظة؟! وما هذه المكايسة والمصادقة؟! أفليس لو قابلك صاحبك بمثل هذا الأمر وقف الأمر بينكما؟ وانتكث حبل المودة عنكما؟ ودبت الشحناء في طي حالكما؟ ص١٤٢

٥٥_ تُبدي لك العينُ ما في نفس صاحبها من الشَّناءَة أو ودٍّ إذا كانا

إنَّ البغيضَ له عَيْنٌ يَصدُّ بها لا يستطيعُ لما في الصدر كِتْمانا

وعينُ ذي الوُدِّ ما تنفكُّ مُقبلةً ترى لها مَحْجراً بَشَّاً وإنسانا

والعينُ تَنطِقُ والأفواهُ صامتةٌ حتى ترى من ضمير القلبِ تِبيانا

ص١٤٨

٥٦_ قال أبو هاشم الحرَّاني: ومن طباع الكريم وسجاياه رعاية اللقاءة الواحدة، وشكر الكلمة الحسنة الطيبة، والمكافأة بجزيل الفائدة، وأن لا يوجد

عند عَرْض الحاجة مستعملاً سَوْمَ عَالَّةٍ[1].ص١٤٨

٥٧ـ وقال أبو إسحاق السبيعي: ثلاث يصفين لك ود أخيك: السلام إذا لقيته، وأن تدعوه بأحب أسمائه، وأن لا تماريه.ص١٥٨

٥٨ـ سمعت العَوَّامي يقول لعلي بن عيسى الوزير: إن الحال بينك وبين ابن مجاهد صفيقة، فما الذي قربه منك، ونَفَّقه عليك، وأولعك به؟

قال: وجدته متواضعاً في علمه، هشاً في نسكه، كتوماً لسره، حافظاً لمروءته، شفيقاً على خليطه، حسن الحديث في حينه، محمود الصمت في وقته، بعيد القرين في عصره، والله لو لم يكن فيه من هذه الأخلاق إلا واحدة لكان محبوباً، ومقبولاً.ص١٥٨

٥٩ـ تَوَقَّ مِنْ الإخوان كلَّ مُمازحٍ ... يزولُ مع الأفناءِ حيثُ تزولُ

فلا تَصْحَبَنْ مُستَطِرفاً ذا مَلالةٍ ... فليسَ على عهدٍ يدومُ مَلولُ

ص١٦٤

١ـ عرض عليَّ سَوْم عالَّة: وهو بمعنى قول العامة عرض سابريّ يضرب هذا مثلاً لمن يعرض عليك ما أنت عنه غني كالرجل يعلم أنك نزلت دار رجل ضيفاً، فيعرض عليك القِرَى.

وفي أساس البلاغة للزمخشري ص٢٢٦: (عرض عليَّ الأمر سوم عالة) أي: عرضاً سابرياً كما تسامُ العالة على الشرب لا يستقصى في ذلك لأنها رويت بالنهل.

السابري: نسبة إلى سابور وهي كورة بفارس، قال الشاعر:

❖ وعيش كمسٍّ السابري

ومنه المثل: (عرض سابري) يقوله من يعرض عليه شيء عرضاً لا يبالغ فيه لأن السابري من أجود الثياب يرغب فيه بأدنى عرض.

العلل: الشرب الثاني، والنهل: الشرب الأول.

٦٠_ تملَّقْتُه جَهْدي فلمَّا رأيتُه إذا لانَ مني جانبٌ عزَّ جانبُهْ
جريتُ له في الصدر مني مودةً وخلَّيتُ عنه مُهْمِلاً لا أُعاتِبُهْ
ص١٦٥

٦١_ قال رجل لمحمد بن واسع: إني لأحبك في الله، قال: فأطع من تحبني فيه.ص١٧٠

٦٢_ قال أبو خازم المدني[1] لسلمة بن دينار: لأنْ يبغضك عدوك المسلم خير من أن يحبك عدوك الفاجر.ص١٧١

٦٣_ قال أعرابي: البِشْر سِحْر، والهديِّة سحر، والمساعدة سحر.ص١٨١

٦٤_ وقال فيلسوف: اجتنب مصاحبة الكذاب، فإن اضطررت إليها فلا تصدقه، ولا تُعْلِمْهُ أنك تكذبه؛ فينتقل عن ودك، ولا ينتقل عن طبعه.ص١٨٣

٦٥_ وقال فيلسوف: لا تقطع أحداً إلا بعد عجز الحيلة عن استصلاحه، ولا تتبعه بعد القطيعة وقيعة؛ فينسد طريقه عن الرجوع إليك، فلعل التجارب ترده إليك، وتصلحه لك.ص١٨٣

٦٦_ قال سقراط: لا تكون كاملاً حتى يأمنك عدوك، فكيف بك إذا كنت لا يأمنك صديقك؟!.ص١٨٤

٦٧_ وقال الأحنف: ما عاتبت أحداً إلا وما انثال عليَّ منه أكثر مما عاتبته عليه.ص١٨٥

٦٨_ قالت امرأة عبدالله بن مطيع لعبدالله: ما رأيت ألأم من أصحابك، إذا

١_ لعلها: قال أبو حازم المدني سلمة بن دينار؛ لأن أبا حازم هو سلمة بن دينار.

أيسرت لزموك، وإذا أعسرت تركوك، فقال: هذا من كرمهم، يغشوننا في حال القوة منا عليهم، ويفارقوننا في حال العجز منا عنهم!.ص١٨٧

٦٩ـ وقلت للعباداني: مَنِ الصديق؟ قال: من شهد طرفه لك عن ضميره بالوفاء والود، فإن العين أنطق من اللسان، وأوقد من النيران.ص١٨٧

٧٠ـ أحبُّ من الإخوان كلَّ مؤاتٍ وكل غضيضِ الطرفِ عن عَثَراتي
يساعدني في كلِّ أمرٍ أحبه ويحفظني حياً وبعد وفاتي
فمن لي بهذا ليت أني وجدته فقاسمتُه مالي من الحسنات

ص١٩٦

٧١ـ ولما جَفت سَعْدٌ سيدها الأضبط بن قُريع تحوَّل عنهم إلى قبيلة أخرى؛ فظلموه وآذوه فقال: «بكل واد بنو سعد».ص٢٠٨

٧٢ـ وقال رجل من قريش: خالطوا الناس مخالطةً إن غِبتم حنُّوا إليكم، وإن مُتم بكوا عليكم.ص٢١٢

٧٣ـ إني لأبذلُ للخليل إذا دنا مالي وأتركُ مالَهُ موفورا
وإذا أردت ثوابَ ما أعطيته فكفى بذلك نائلاً تكديرا

ص٢١٦

٧٤ـ قال الفضل بن الربيع: احلفْ لأخيك أنك تحبه، واجتهدْ في تثبيت ذلك عنده؛ فإنه يستجدُّ لك حباً، ويزداد لك وداً.ص٢٢٣

٧٥ـ ولاقِ ببشرٍ من لقيت تَكُنْ له صديقاً وإن أمسى مُغِباً على حقد

ص٢٤٠

٧٦_ وقال أعرابي: السؤال عن الصديق أحد اللقائين.ص٢٤٣

٧٧_ وقال الحسن: ما تحاب اثنان ففرق بينهما إلا ذنب يحدثه أحدهما. ص٢٤٤

٧٨_ وقال الحسن: لا تشتر مودة ألفٍ بعداوة واحد.ص٢٤٤

٧٩_ وأخبرنا ابن مقسم العطار النحوي قال: أنشدنا ثعلب لأعرابي[1]:

وذي رحمٍ قلَّمتُ أظفار ضِغْنِهِ بحِلْميَ عنه وهو ليس له حلمُ

إذا سِمْتُه وصلَ القرابةِ سامني قطعيتَها تلك السفاهةُ والظلمُ

ويسعى إذا أبني ليهدمَ صالحي وليس الذي يبني كَمَنْ شأنُه الهدمُ

يحاول رَغْمي لا يحاول غيرَه وكالموت عندي أن يسوغَ له الرَّغْمُ

فإن أنتصر منه أكنْ مثل رائشٍ سهامَ عدوٍ يُستهاضُ بها العظمُ

وإن أعفُ عنه أُغْضِ عيناً على قذىً وليس له بالصفح عن ذنبه عِلمُ

فما زلت في لينٍ له وتعطُّفٍ عليه كما تحنو على الولد الأمُ

لأستلَّ ذاك الضِّغنَ حتى استللتُه وقد كان ذا ضغنٍ يضيق له الحزمُ

١_ الأبيات لمعن بن أوس المزني كما في حماسة البحتري ٢٤١هـ، ومعن هذا شاعر من مخضرمي الجاهلية والإسلام، وله أخبار مع عمرﷺ، وكان معاوية ﷺ يفضله ويقول: «أشعر أهل الجاهلية زهير وأشعر أهل الإسلام ابنه كعب، ومعن بن أوس» راجع أخباره في الأغاني ٥٤/١٢ _ ٥٦، والإصابة ٨٤٤٥، والخزانة ٢٥٨/٣.

وجاء في الأغاني ٦٠/١٢: «قال عبدالملك بن مروان يوماً وعنده عدة من أهل بيته وولده: لِيَقُلْ كل واحد منكم أحسن شعر سمع به، فذكروا لامرئ القيس، والأعشى، وطرفة، فأكثروا حتى أتوا على محاسن ما قالوا، فقال عبدالملك: أشعرهم _ والله _ الذي يقول: وذي رحم...».

فداويت منه الحقدَ والمرءُ قادرٌ   على سهمه ما دام في كفه السهمُ

ص٢٤٥

٨٠_ أحبُّ الفتى ينفي الفواحشَ   كأنَّ به عن كل فاحشةٍ وقْرا
سليمُ دواعي الصدرِ لا ناشطاً أذى   ولا مانعاً خيراً ولا قائلاً هُجْرا
إذا ما أتتْ من صاحبٍ لك زلةٌ   فكن أنت محتالاً لزلته عُذْرا
غنى النفس ما يكفيك من سدِ خلةٍ   فإنْ زادَ شيئاً عادَ ذاك الغنى فَقْرا

ص٢٤٩

٨١_ قال ابن المعتز: إذا صحت النية، وتوكدت الثقة سقطت مؤونة التحفظ.ص٢٦١

٨٢ _ إذا أنت شاجرتَ الرفيقَ فَلِنْ له   ومِنْ خيرِ مَنْ رافقت مَنْ لا تشاجرُهْ

ص٢٦٨

٨٣_ قال المدائني: يقال: من رمى أخاه بذنب قد تاب منه ابتلاه الله به.ص٢٧١

٨٤_ وقال آخر: إنما تطيبُ الدنيا بمساعفة الإخوان، ونفع بعضهم بعضاً في كل باب، وإلا فعلى الصداقة الدمار، وما أرجو إذا كانت تنقطع في الدنيا، ولا تتصل بما أحب في الدنيا.ص٢٧٢

٨٥_ وقال آخر: التجني رسول القطيعة، وداعي القِلى، وسبب السلو، وأول التجافي، ومنزل التهاجر.ص٢٧٤

٨٦_ وقال آخر: من عاشر الناس بالمسامحة دام استمتاعه بهم.ص٢٧٤

٨٧_ وحدثني أبو طائع الطَّلْحي قال: كتب الجراحي إليَّ مرة: الله يعلم أنك ما خطرت ببالي في وقت من الأوقات إلا مَثَّل الذكرُ منك لي محاسن تزيدني صبابة إليك، وضنًّا بك، واغتباطاً بإخائك.ص٢٧٦

٨٨_ قال أعرابي لآخر: وُدُّك لا يَنْضى ملبوسه، ولا يَتْوى محروسه، ولا يذوي مغروسه[1].ص٢٨٠

٨٩_ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مما يصفي لك ود أخيك أن تبدأه بالسلام، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب الكنى إليه.ص٢٨٤

٩٠_ قال حاتم الأصم: أربعة تُذهب الحقد بين الإخوان: المعاونة بالبدن، واللطف باللسان، والمواساة بالمال، والدعاء في الغيب.ص٢٨٥

٩١_ قال أرسطو طاليس في رسالة أفدناها[2] أبو سليمان: تعهَّد الإخوان بإحياء الملاطفة؛ فإن التارك متروك، ثم تعهد إخوان الإخوان؛ فإن إخوان الإخوان من الإخوان، وهم منزلة العَلَم المستدل به على الوفاء.

ثم تعهد أهل المكاشرة المتشبهين بالإخوان بالصبر عليهم؛ إما طمعاً في تحويل ذلك منهم صدقاً، وإما اتقاء كلمة فاجر وقعت في سمع مائق ذي دولة.ص٢٨٦_٢٨٧

٩٢_ قال لنا المرزباني: حدثنا القراطيسي قال: أنشدنا أبو العيناء قال: أنشدنا السدري:

١_ لا ينضى: أي لا يخلق، وقوله: لا يتوى: أي لا يضيع ولا يخسر، وقوله: لا يذوي: أي لا يذبل.

٢_ لعلها: أفدناها من أبي...أو أفادناها أبو سليمان...

وإني لأهوى ثم لا أتبع الهوى	وأكرم خلاني وفيَّ صدودُ
وفي الناس عن بعض التضرع غلظةٌ	وفي العين عن بعض البكاء جمودُ

ص٢٩٠

٩٣_ قال يونس النحوي: لا تعادين أحداً وإن ظننتَ أنه لا يضرك، ولا تزهدن في صداقة أحد وإن ظننت أنه لا ينفعك؛ فإنك لا تدري متى تخاف عدوك، وترجو صديقك.

ولا يعتذر أحد إليك إلا قبلت عذره وإن علمت أنه كاذب، ولْيَقِلَّ عتبُ الناس على لسانك.ص٢٩١ _ ٢٩٢

٩٤_ وقال أعرابي: خير الجلساء من إذا عَجَّبْتَهُ عجب، وإذا فكَّهته طرب، وإذا أمسكت تحدث، وإذا فكرت لم يلمك.ص٢٩٢

٩٥_ شاعر:

إني لأُلبسكم على علاتكم	لبسَ الشفيقِ على العتيق المُخلقِ
ولقد أرى ما لو أشاء عتبتُه	وأصدُّ عَنْهُ ببُغيتي وترفقي
ليرى العدوُّ قناتَنا لم تنصدعْ	ويكونَ ذاك كأنه لم يُخلقِ
وإذا تُتُبعتِ الذنوبُ فلم تدعْ	ذنباً قطعت قوى القرين المُشفقِ
وسمعتَ أو نُقلتْ إليك مقالةٌ	عوراءُ نُطْقَتُها صموتُ المنطقِ

ص٢٩٣

٩٦_ وقال ابن عائشة: مجالسة أهل الديانة تجلو عن القلوب صدأ الذنوب، ومجالسة أهل المروءات تدل على مكارم الأخلاق، ومجالسة العلماء تزكي

النفوس.ص٢٩٣

٩٧_ وقال كعب الأحبار لرجل أراد سفراً: إن لكل رفقة كلباً فلا تكن كلب أصحابك.ص٢٩٥

٩٨_ وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: من وجد دون أخيه ستراً فلا يكشفه.ص٣٠٠

٩٩ _ وقال: اصحب الناس بما شئت، يصحبوك بمثله.ص٣٠٠

١٠٠_ كاتب: لا تجمعنَّ دعوى السَّراة، وتكبر الولاة، وتحكم القضاة. ص٣٣٣

١٠١_ كاتب: لو اعتصم شوقي بمثل سُلُوِّك عن صلتي لم أبتذل لك وجه الرغبة فيك، ولا تحسَّيت مرارة تماديك، ولكن استخفَّتني صبابة إليك؛ فاحتملت صعب قسوتك؛ لعظيم قدر مودتك، وأنت أحقُّ من انتصر لصلتي مِنْ جفائه، ولشوقي مِنْ إبطائه.ص٣٣٧

١٠٢_ قال أبو العيناء: مودة الكريم غراس، وشكر الشريف أحسن لباس.ص٣٥١

١٠٣_ قال ابن عباس: إن الذباب ليقع على صديقي فيشق عليَّ.ص٣٥٢

رابعاً: نقولات مختارة من كتاب:

لباب الآداب تأليف الأمير أسامة بن منقذ ٤٨٨_٥٨٤هـ

«تعريف بالمؤلف»:

هو الأمير أبو المظفر مجد الدين أسامة بن مرشد بن علي بن مقلَّد بن نصر ابن منقذ الشيزري الكناني الكلبي.

ولد يوم الأحد **٢٧** من شهر جمادى الآخرة سنة٤٨٨هـ، وتوفي ليلة الثلاثاء **٢٣** رمضان سنة٥٨٤هـ.

وهو من بني منقذ، وهي أسرة مجيدة نشأ فيها رجال كبار كلهم فارس شجاع، وشاعر أديب.

وكانوا ملوكاً في أطراف حلب.

أما أسامة فهو من الأبطال الشجعان، والأدباء الكبار، وقد وصفه الذهبي في تاريخ الإسلام بأنه «أحد أبطال الإسلام، ورئيس الشعراء الأعلام».

وقال عنه العماد الأصبهاني الكاتب: «وأسامة كاسمه، في قوة نثره ونظمه، يلوح من كلامه أمارة الإمارة، ويؤسس بيت قريضه عمارة العمارة، حلو المجالسة، حالي المساجلة، ندي الندى بماء الفكاهة، عالي النجم في سماء النباهة، معتدل التصاريف، مطبوع التصاريف».

ولأسامة بن منقذ مؤلفات عديدة منها: كتاب: الاعتبار، وكتاب: البديع في نقد الشعر، وكتاب: التأسي والتسلي، وكتاب: الشيب والشباب، وكتاب: النوم والأحلام، وكتاب: القضاء، وكتاب: أخبار النساء، وديوان شعره.

ومنها ما نحن بصدده وهو كتاب: لباب الآداب.

«**تعريف بالكتاب**»: هذا الكتاب ألفه أسامة بن منقذ وهو ابن إحدى وتسعين سنة، وقد طبعته دار الكتب العلمية ببيروت ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م، وهي الطبعة التي أُخِذَتْ منها النقول في هذا المنتقى.

ويقع هذا الكتاب في مجلد يحوي ٥٢٠ صفحة.

وقد تضمن أبواباً وفصولاً في الوصايا والسياسة، والكرم، والشجاعة، والآداب، وكتمان السر، وأداء الأمانة، والتواضع، وحسن الجوار، والصمت، وحفظ اللسان، والقناعة، والحياء، والصبر، والنهي عن الرياء، والإصلاح بين الناس، والتعفف، والتحذير من الظلم، والإحسان وفعل الخير، والصبر على الأذى، ومداراة الناس، وحفظ التجارب، وغلبة العادة.

ومما تضمنه الكتاب، باب البلاغة، ومن محاسن الشعر، ومن محاسن المديح، ومن بليغ التشبيه، والشيب، والاعتذار، والعتاب والمراثي، وباب الحكمة، وفصل في كلام الحكماء إلى غير ذلك.

وكان في الغالب يبدأ الباب أو الفصل أو العنوان بعدد من الآيات القرآنية، ثم يثني بالأحاديث الشريفة، ثم بكلام العلماء والحكماء، والشعراء وهكذا.

والكتاب مليء بالحكم والمواعظ، والتجارب، والقصائد الرائعة، والأبيات الشاردة، والأمثال السائرة إلى غير ذلك لما هو جالب للفائدة والمتعة.

كيف إذا كان عن مجرب قد عَرَكَتْهُ السنون، ووسَمَتْه الأيام بميسمها؟

كيف إذا كان قد كتبه وهو في الحادية والتسعين من عمره؟.

ـ «**النقولات المنتقاة**» : قال أسامة بن منقذ في كتاب لباب الآداب :

١- باب الوصايا

ـ الوصيّة وصيّتان: وصيّة الأحياء للأحياءِ، وهي أدب، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتحذير من زَلَل، وتَبْصِرةٌ بصالح عمل، ووصيّةُ الأموات للأحياء عند الموت ـ بحق يجب عليهم أداؤه، ودَيْن يجب عليهم قضاؤه.ص١

ـ وقال محمد بن علي ـرضوان الله عليهماـ لابنه: يا بُنَيّ، لا تَكْسَل؛ فإنك إن كَسِلتَ لم تُؤَدِّ حقّاً ولا تَضْجَرْ؛ فإنك إن ضَجِرْت لم تصبِر على حقٍّ ولا تمتنعْ من حقٍّ؛ فإنه ما من عبد يمتنع من حقّ إلا فتح الله عليه باب باطل؛ فأنفق فيه أمثاله.ص١٢

ـ قال عمر بن الخطاب ـرضوان الله عليهـ: «من عرّض نفسه للتُهْمة فلا يلُومَنَّ من أسَاءَ به الظنَّ؛ ومن كتم سرَّه كانت الخِيَرَةُ بيده، وَضَعْ أمر أخيك على أحسنِهِ حتى يأتيَك ما يغلبك عليه، ولا تَظُنَّنَّ بكلمة خرجت من امرئ مُسلم شرّاً وأنت تَجِدُ لها في الخير مَخْرَجاً؛ وعليك بإخوان الصدق فَكِسْ[1] في اكتسابهم؛ فإنهم زينة في الرخاء، عُدة في البلاء، ولا تَهَاوَنْ في الحَلِفِ بالله فيُهينك، وعليك بالصدق ولو قَتَلك، ولا تَعتَزِ إلى من لا يُغْنيك واعتزل عدوَّك؛ واحْذَرْ صديقك إلا الأمين: والأمين من خشي الله ـتعالىـ ولا تَصْحَب الفاجر فتتعلَّم من فُجُوره، ولا تُطْلِعْه على سرّك فيفضحك، وتَخَشَّع عند القبور وآخ الإخوان على قدر التقوى؛ ولا تَسْتَعِنْ على حاجتك من لا يُحِبُّ نَجَاحَهَا لك؛

١ـ الكَيْس: العقل والتوقد.

وشاورْ في أمرك الذين يخافون الله ـ عز وجل ـ» .ص١٢

ـ عن الشعبي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال لي أبي: إني أرى أمير المؤمنين ـ يعني عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ـ يدنيك دون أصحاب محمد ﷺ فاحفظ عني ثلاثاً: لا يُجرِّبن عليك كذباً، ولا تغتابنَّ عنده أحداً، ولا تُفشيّن له سرّا.

قال: فقلت: يا أبا عبّاس كل واحدة خير من ألف دينار، قال: كل واحدة منهن خير من عشرة آلاف دينار.ص١٥

ـ قال عبدالله بن الحسن بن الحسين ـ رضوان الله عليهم ـ لابنه محمد رضي الله عنه: يا بُنيّ، احذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً، كما تحذر العاقل إذا كان عدواً؛ فيُوشك أن يُورطك الجاهل بمشورته في بعض اغتراره، فيسبق إليك مكروه فكر العاقل.

وإياك ومعاداة الرجال؛ فإنها لن تُعَدِّيك مكرَ حليم أو مفاجأة جاهل.ص١٥

ـ قال معاذ بن جبل رضي الله عنه في وصيته: إنه لا بُدّ لك من نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج؛ فابدأ بنصيبك من الآخرة فخُذْه؛ فإنه سيمُرُّ على نصيبك من الدنيا فينتظمه انتظاماً، ويزول[1] معك حيث ما زُلْت.ص١٦

ـ عن الشعبي قال: قلت لابن هبيرة: عليك بالتُؤَدة فإنك على رَدّ ما لم تفعل أقدر منك على ردّ ما فعلت.ص١٨

ـ وقال الحكيم: من التوفيق حفظُ التجربة.ص١٩

ـ وقال بعض العلماء: صُن عفّتك بالحلم، ومروءتك بالعفاف، ونجدتك بمجانبة الخيلاء، وجهدك بالإجمال في الطلب.ص١٩

١ـ يزول: يتحرك.

ـ وأوصى بعض الحكماء بنيه فقال: أصلحوا ألسنتكم، فإن الرجل تنوبه النائبة فيستعير من أخيه ثوبه، ومن صديقه دابته، ولا يجد من يعيره لسانه.ص٢٠

ـ قال الصُّولي: كاتبت أبا حنيفة رحمه الله[1] فأغفلت التاريخ، فكتب إليّ: وصل كتابُك مبهم الأوان، مظلم البيان، فأدّى خبراً ما القرب فيه بأولى من البعد منه؛ فإذا كتبت ـأعزك اللهـ فلتكن كتُبك موسومة بالتاريخ، لأعرِفَ أدنى آثارك، وأقرب أخبارك.ص٢٠

ـ كان قس بن ساعدة يفد على قيصر ويزوره، فقال له: يا قس، ما أفضل العقل؟ قال: معرفة المرء بنفسه، قال: فما أفضل العلم؟ قال: وقوف المرء عند علمه، قال: فما أفضل المروءة؟ قال: استبقاء الرجل ماء وجهه، قال: فما أفضل المال؟ قال: ما قُضي به الحق.ص٢١

ـ قال حاتم الطائي:

وما من شيمتي شتم ابن عمي ... وما أنا مُخْلِف من يرتجيني

وكِلْمَةِ حاسد من غير جُرم ... سمعتُ فقلت: مرّي فانفذيني

فعابوها عليه ولم تعبني ... ولم يَعْرَقْ لها يوماً جبيني

وذو اللونين يلقاني طليقاً ... وليس إذا تغيب يأتليني

١ـ ليس أبو حنيفة هذا الإمام المشهور، بل أرجح جداً أنه أبو حنيفة الدينوري (واسمه أحمد بن داود) وهو الكاتب البليغ، جمع بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب، والصولي أبو بكر محمد بن يحيى الكاتب المعروف مؤلف كتاب (أدب الكتاب)، وهو أدرك الدينوري قطعاً؛ لأنه أخذ العلم عن أبي داود السجستاني صاحب السنن المتوفى سنة ٢٧٥هـ والدينوري مات سنة ٢٨٢هـ أو سنة ٢٩٠هـ، وأما الصولي فإنه مات سنة ٣٣٥هـ.

بصرت بعيبه فكففت عنه محافظة على حسبي وديني
ص٢٤

ـ وقال آخر:

نظيرك لا تُظهر عليه تطاولاً فتملأ ضِغناً صدره بالتطاول
ولكن له لِنْ، وارعَ ـإن كنت راعياًـ له الحق وارمم حاله بالنوافل[1]
ص٣١ـ٣٢

ـ وقال آخر:

ولا تَهْدِمَنْ بُنيانَ من قد وجدته بنى لك بُنياناً وكن أنت بانيا
ص٣٢

٢- باب السياسة

ـ قال كسرى: إني ضبطت مُلكي بأني لم أهزل في أمر ولا نهي قط؛ وأعطيت للغناء لا للرضى، وعاقبتُ للأدب لا للغضب، وصدقتهم الوعد والوعيد، وعممتُ بالعدل والإنصاف، وكففتُ يدي عن دمائهم وأموالهم إلا بحقها. ص٣٧

ـ وغضب كسرى على رجل من أصحابه فأمر بحسبه وقطع ما كان جارياً عليه، فقال له بزرجمهر: إن الملوك تُؤدِّب بالهجران، ولا تعاقب بالحرمان.ص٣٧

ـ وقّع بعض العمال إلى كسرى قُباذ في أنطاكية: للملك، جماعة قد فسدت

١ـ النوافل: جمع نافلة، وهي العطية.

نياتهم، وخبُثت ضمائرهم، وقد هموا بما لم يفعلوا، وهم غير مأمونين على المملكة؛ وهم: فلان وفلان وفلان، فإن رأى الملك أن يعاجلهم فعل.

فوقَّع في رقعته: إنما أملك الأجساد لا النيات، بالعدل لا بالرضى، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر.ص٣٧_٣٨

_ روي أن الموبذ سمع ضحك الخدم في مجلس أنو شروان، فقال له: أما تمنع هؤلاء الغلمان؟ فقال له أنو شروان: إنما يهابنا أعداؤنا.ص٣٨

_ وقال قتيبة بن مسلم: ملاك السلطان الشدة على المريب، والإغضاء عن المحسن، ولين القول لأهل الفضل.ص٣٨

_ وقيل لملك قد زال عنه ملكه: ما الذي سلبك ما كنت فيه؟ قال: دفع عمل يوم إلى غد، والتماس عذر بتضييع عمل.ص٣٩

_ وقالوا: إن اللئيم الجاهل لا يزال ناصحاً حتى يُرفع إلى المنزلة التي ليس لها بأهل، فإذا بُلِّغها التمس ما فوقها بالغش والخيانة.ص٤٢

_ وقالوا: من أخذ بالحزم وقدم الحذر وجاءت المقادير بخلاف مراده_ كان أحمد رأياً، وأظهر عذراً ممن عمل بالتفريط، وإن اتفقت له الأمور على ما يريد.ص٤٥

_ فليس على العاقل النظر في القدر الذي لا يدري ما يأتيه منه، وما ينصرف عنه؛ ولكن عليه العمل بالحزم في أمره، ومحاسبة نفسه في ذلك.ص٤٦

_ وقال الحكماء: الحاكم من لا يشغله البطر بالنعمة عن العمل للعاقبة، والهمُّ بالحادثة عن الحيلة لدفعها.ص٤٦

ـ وقالت الحكماء: من كانت فيه ثلاث خلال لم يستقم له أمر: التواني في العمل، والتضييع للفرص، والتصديق لكل مخبر.ص٤٦

ـ وقد قيل: أربعة أشياء لا يُستَقَلُّ قليلها: المرض، والنار، والدَّين، والعداوة. ص٤٦

ـ وقالوا إن العاقل ـوإن كان واثقاً بقوته وعقلهـ فليس ينبغي أن يحمله ذلك على أن يجني على نفسه العداوة والبغضاء اتكالاً على ما عنده من الرأي والقوة، كما أن العاقل إذا كان عنده الترياق لا ينبغي له أن يشرب السم اتكالاً على ما عنده.ص٤٦

ـ وقالوا: احذر معاداة الذليل، فربما شَرِقَ العزيز بالذبابة.ص٤٧

ـ وقال بعض الحكماء: لا تُصغِّر أمر عدو تحاربه؛ فإنك إن ظفرت به لم تُحمد، وإن عجزت عنه لم تُعذر.ص٥٣

ـ وقال الحكيم: يجب على السلطان أن يعمل بثلاث خصال: تأخير العقوبة في سلطان الغضب، وتعجيل مكافأة المحسن، والعمل بالأناة فيما يحدث؛ فإن له في تأخير العقوبة إمكانَ العفو، وفي تعجيل المكافأة بالإحسان المسارعة في الطاعة من الرعية، وفي الأناة انفساح الرأي واتضاح الصواب.ص٥٣

ـ وقال الحكيم: ما استُعين على العزم بمثل مجانبة الهوى.ص٥٤

ـ وقال آخر: من جعل مُلْكَه خادماً لدينه انقاد له كل سلطان، ومن جعل دينه خادماً لمُلْكِه طمع فيه كل إنسان.ص٥٤

ـ وقال آخر: مِنْ تمام الكرم أن تذكر الخدمة لك، وتنسى النعمة منك،

وتفطن للرغبة إليك ، وتتغابى عن الجناية عليك.ص٥٤

ـ وقال آخر : كُن بعيد الهِمم إذا طلبت ، كريم الظّفر إذا غلبت ، جميل العفو إذا قدرت ، كثير الشكر إذا ظهرت.ص٥٤

ـ وقال الحكيم : ليكن مَرْجِعُك إلى الحق ، ومَنْزِعُك إلى الصدق ، فالحق أقوى مُعين ، والصدق أفضل قرين.

وقال : استعن على العدل بخلّتين : قلة الطمع ، وشدة الورع.ص٥٥

ـ وقال آخر : لا تُعوِّدنَّ نفسك إلا ما يُكتب لك أجره ، ويحسن عنك نشره.ص٥٥

ـ وقال آخر : ارفق بإخوانك ، واكفهم غَرْبَ لسانك؛ فطعن اللسان أشد من طعن السِّنان ، وجرح الكلام أصعب من جرح الحسام.ص٥٥

ـ قال العتابي : مما يُعين على العدل اصطناع من يُؤثر التقى ، واطِّراح من يقبل الرُّشا ، واستكفاء من يعدل في القضية ، واستخلاف من يُشفق على الرعية.ص٥٥

ـ وقال أفلاطون : بالعدل ثبات الأشياء ، وبالجور زوالها؛ لأن المعتدل هو الذي لا يزول.ص٥٧

ـ وقال الإسكندر : لا ينبغي لمن تمسَّك بالعدل أن يخاف أحداً.ص٥٧

ـ وقال أفلاطون : من بدأ بنفسه أدرك سياسة الناس.ص٥٧

ـ وقال الحكيم : من عدل في سلطانه ، استغنى عن أعوانه.ص٥٨

ـ وقال : لأن تُحسن وتُكْفَر ، خير من أن تسيء وتُشكر؛ فمن أحسن فبنفسه

بدا، ومن أساء فعلى نفسه اعتدى.ص٥٨

ـ وقال: من أبلى جِدَّتَه في خدمتك، وأفنى مدته في طاعتك ـ فارع ذِمامه في حياته، وتكفَّلْ أيتامه بعد وفاته؛ فإن الوفاء لك بقدر الرجاء فيك.ص٥٩

ـ وقال الحكيم: الصبر على ما تكرهه وتجتويه[1]، يُؤديك إلى ما تحبه وتشتهيه.ص٦٠

ـ وقال: من أعجبته آراؤه، غلبته أعداؤه، ومن ساء تدبيره، كذب تقديره، ومن جهل مواطئ قدمه، عثر بدواعي ندمه.ص٦٠

ـ وقال: من أتم النصح الإشارة بالصلح، ومن أضر الغدر الإشارة بالشر.ص٦٠

ـ وقال: من استصلح عدوه زاد في عدده، ومن استفسد صديقه نقص من عدده.ص٦٠

ـ وقال الشاعر:

إذا الأمر أشكل إنقاذه ... ولم تر منه سبيلاً فسيحا

فشاور بأمرك في سترة ... أخاك أخاك اللبيب النصيحا

فَرُبَّتَما فرج الناصحون ... وأبدوا من الرأي رأياً صحيحا

ولا يلبث المستشير الرجال ... إذا هو شاور أن يستريحا

ص٧٥

وقال آخر:

١ـ أي تكرهه.

تُهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت فإن تولت فبالإشرار تنقاد

لا يصلح القوم فوضى لا سَراة لهم ولا سراة إذا جُهَّالهم سادوا

ص٧٥

٣- باب الكرم

ـ قال الله ـعز وجلـ في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمْ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)﴾.ص٧٦

ـ ومنها: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٢٧٢)﴾.ص٧٦

ـ ومن سورة إبراهيم: ﴿قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ (٣١)﴾.ص٧٧

ـ ومن سورة بني إسرائيل: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُوراً (١٠٠)﴾.ص٧٧

ـ قال أبو الحسن المدائني: كان عبيدالله بن قيس الرقيات[١] منقطعاً إلى عبدالله بن جعفر ـرضي الله عنهماـ فكان يصله ويقضي دينه، فجاءت صلة عبدالله ابن جعفر في بعض ما كانت تجيء، وعبيدالله بن قيس الرقيات غائب، وكان

١ـ عبيدالله، بالتصغير، وفي الأصل «عبدالله» بالتكبير، وهو خلاف الصحيح كما نص عليه الفيروزبادي في القاموس. وقيس الرقيات سمي هكذا لأنه تزوج عدة نسوة وافق أسماؤهن كلهن «رقية» فنسب إليهن، هذا قول الأصمعي، وقيل: إنه كان يشبب بعدة نساء بهذ الاسم، وقيل: كانت له عدة جدات أسماؤهن كذلك، ولعبيدالله هذا ترجمة حافلة في الأغاني (١٥٤/٤ـ١٦٦).

وكان معاوية رحمه الله يصل عبدالله بن جعفر في كل سنة بمائة ألف، فأمر عبدالله بديحاً[١] غلامه فخبأ لعبيدالله بن قيس صلته، فلما قدم أخذها، وقال:

إذا زرت عبدالله ـ نفسي فداؤه ـ رجعت بفضل من يداه[٢] ونائل
وإن غبت عنه كان للود حافظاً ولم يك عني بالمغيب بغافل
تداركني عبدالإله وقد بدت لذي الحقد والشنآن مني مقاتلي
حباني لما جئته بعطية وجارية حسناء ذات خلاخل

ص١٠٧

ـ قيل اشترى عبدالله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره التي في السوق بسبعين ألف درهم، فلما كان الليل سمع بكاء آل خالد، فقال لأهله: ما لهؤلاء؟ قال: يبكون من أجل دارهم، قال: يا غلام، إئتهم فأعلمهم أن المال والدار لهم جميعاً.ص١٢٧

ـ قال الشافعي رحمه الله: لا أزال أحب حماد بن أبي سليمان، لشيء بلغني عنه: أنه كان يوماً راكباً حماراً له، فحركه، فانقطع زِرٌّ له، فمر على خياط، فأراد أن ينزل، فسوى زره، فأخرج له صرة فيها عشرة دنانير، فسلمها إلى الخياط، واعتذر إليه من قِلَّتها.ص١٤٥

ـ قال الحميدي: قدم الشافعي رحمه الله من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار،

١ـ بديح ـبالدال والحاء المهملتين بوزن زبيرـ وكان يقال له «بديح المليح» وهو مولى عبدالله ابن جعفر، وله ترجمة في الأغاني (١٤/٩ـ١٠).

٢ـ هكذا في الأصل، وهو جائز على لغة من يلزم المثنى الالف.

فضرب خباءه في موضع خارج عن مكة، ونثر الدنانير على ثوب، ثم أقبل على كل من دخل عليه، يقبض قبضة ويعطيه، حتى صلى الظهر، ونفض الثوب وليس عليه شيء.ص١٤٥

٤- باب الشجاعة:

ـ قال الله ـعز وجلـ في سورة البقرة: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنْ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣)﴾.ص١٤٨

ـ ومنها: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٢١٦)﴾.ص١٤٨

ـ ومن سورة آل عمران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)﴾.ص١٤٩

ـ ومنها: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)﴾.ص١٤٩

ـ عن هشام عن الحسن رحمه الله أن النبي ﷺ قال: «لغدوة أو روحة في سبيل الله ـتعالىـ أفضل من الأرض وما عليها، ولموقف رجل في الصف أفضل من عبادة ستين سنة».ص١٥٥

ـ وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لوددت أني أقاتل في سبيل الله فأقتل، ثم أحيا فأقتل، ثم أحيا فأقتل». ص١٥٧

ـ قال أبو زيد: يقال: رجل «شُجَاعٌ»[١] من قوم «شُجْعة»[٢].

ويقال: «شجاع» و «شَجيعٌ» بمعنى واحد.

و«الشُّجاع»[٢]: ضرب من الحيات.ص١٦٥

ـ قال أبو بكر بن دريد: «رجل شُجاع: أي جريء، والأشجع من الرجال: بيِّن الشجاعة، وهو الذي كأن به جنوناً».ص١٦٥

٥- من اشتهر بالفتك في الجاهلية

ـ عبيد بن نشبة بن مرة بن غيظ بن مرة بن سعد بن ذبيان، والحارث بن ظالم المري، والبراض بن قيس الكناني، وتأبط شراً، وهو: ثابت بن جابر بن سفيان

١ـ الشين في الكلمتين يجوز فيها الحركات الثلاث.

٢ـ بضم الشين أو كسرها.

الفهمي، وحنظلة بن قايد: أحد بني عمرو بن أسد بن خزيمة.ص١٧١

٦- ومن شهُر بالفتك في الإسلام

ـ أبو حردبة، ومالك بن الريب المازني، وعبيدالله بن الحر الجعفي، وعقبة ابن هبيرة الأسدي، وعبدالله بن سبرة الحرشي، وعبدالله بن خازم السلمي، والقتَّال الكلابي، وقران بن بشار الفقعسي، وعبدالله بن حجاج الثعلبي، وعبيدالله بن زياد بن ظبيان أحد بني تيم الله بن ثعلبة بن عكابة.ص١٧١

ـ وقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: ما ليلة أقر لعيني من ليلة يهدى إلي فيها عروس، اللهم إلا ليلة أغدو فيها لقتال العدو.ص١٨٩

ـ عن المدائني قال: كانت قريش تقول: ما استوسق أمر الجاهلية والإسلام لأحد غير خالد بن الوليد فإنه لم يهزم قط رضي الله عنه.ص١٨٩

ـ وعن المدائني قال: كان سعيد بن الأوس بن أبي البختري من أجمل الناس وأشجعهم، وكان يختال في مشيته، فنظر إليه عبدالله بن الزبير رضي الله عنه يوماً وهو يتبختر بين الصفين، فقال: كنت أظن أن مشيته تخلق فإذا هي سجية.ص١٨٩

ـ قال عبدالرحمن بن خالد بن الوليد ـرضي الله عنهماـ يوم صفين لمعاوية:

ما رأيت أعجب منك يا أمير المؤمنين! إن كنت لتتقدم حتى أقول: أحب الموت، ثم تستأخر حتى أقول: أراد الهرب!!

قال: يا عبدالرحمن: إني والله ما أتقدم لأقتل، ولا أتأخر لأهرب، ولكن أتقدم إذا كان التقدم غُنماً، وأتأخر إذا كان التأخر حَزماً، كما قال الكناني:

شجاعٌ إذا ما أمكنتني فرصة ... فإن لم تكن لي فرصة فجبان

قلت: هذا كلام خبير بالحرب، وهو الذريعة إلى الظفر أو السلامة، إلا مع الاضطرار؛ فإن المضطر لا يليق به إلا الإقدام، فإن كان في الأجل فسحة فهو ينجو مشطوراً، وإن انتهت المدة فموت المُقْدِم أكرم من موت المُوَلِّي. ص١٩٣_١٩٤

_ وقال أفلاطون: الشجاعة من أقوى فضائل العالم؛ لأنها تبرز ما حوله من القول أو الفعل.ص١٩٥

_ والشجاعة تكون في الضعيف البدن، الخِلو من العمل بشيء من السلاح؛ فيسمى صاحبها شجاعاً.ص١٩٥

_ نقلت من خط النَّجِيرمي قال: كان الفِنْدُ من الفرسان الشجعان القدماء، وهو شهل بن شيبان بن ربيعة بن زِمَّان، وإنما سمي «الفند» لأنه شبه بالقطعة من الجبل، وكان عظيماً، وأمدت بنو حنيفة يوم قِضَة بكر بن وائل بالفند، وقالوا: قد أمددناكم بألف رجل، وكان شيخاً كبيراً يومئذ، فطعن مالك بن عوف بن الحارث بن زهير بن جشم وخلفه رديف له يقال له الثريار بن مازن بن جشم بن عوف ابن وائل بن الأوس، فانتظمهما برمحه وقال:

أيا طعنةَ ما شيخٍ   كبير يَفَنٍ بال[1]
كجيب الدِّفْنِسِ الْوَرْهَا   ءِ رِيعت بعد إجفال[2]
تَفَتَّيتُ بها إذ كَـ   ـرِهَ الشِّكَّةَ أمثالي[3]

١_ اليَفَن: الشيخ الهرم.

٢_ الدِّنفس: الحمقاء، الورهاء: المتساقطة العقل.

٣_ تَفَتَّيتُ: أي تخلَّقت بأخلاق الفتيان، الشِّكَّةَ: هي ما يُلبس من السلاح.

وشهد الفِندُ الزَّمَّانيُّ حرب بكر وتغلب وقد قارب المائة سنة، فأبلى بلاء حسناً، وكان يوم التحالق الذي يقول فيه طرفة بن العبد:

سائلوا عنا الذي يعرفنا بِقُوَانَا يوم تَحْلاقِ اللِّمَمْ

يوم تبدي البيض عن أسْوُقِهَا وتَلُفُّ الخيل أعراج النَّعَمْ

ص٢٠٥_٢٠٧

ـ وعن أبي حاتم الرازي قال: سمعت عبدة بن سليمان المروزي يقول: كنا في سرية مع عبدالله بن المبارك رحمه الله في بلاد الروم، فصادفنا العدو، فلما التقا الصفان خرج رجل من العدو فدعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فقتله، ثم خرج رجل آخر منهم فقتله، ثم آخر فقتله، ثم خرج إليه آخر فطارده فطعنه فقتله، فازدحم إليه الناس، فإذا هو يلثم وجهه بِكُمِّه، فأخذت بطرف كمه، فممدته فإذا هو عبدالله بن المبارك، فقال: وأنت يا أبا عمرو ممن يشنِّع علينا؟!ص٢٢٣

٧- باب الآداب

ـ قال الله ـعز وجلـ في سورة البقرة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاء إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١)﴾.

فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيد، والشريعة موجبة للأدب، فمن لا أدب له لا شريعة له، ولا إيمان، ولا توحيد.ص٢٢٧

ـ وقال ابن عطاء رحمه الله: الأدب الوقوف مع المستحسنات، فقيل: وما معناه؟ قال: أن تعامل الله ـتعالىـ بالأدب سراً وإعلاناً، فإذا كنت كذلك كنت أديباً وإن كنت أعجمياً.ص٢٢٧

ـ وكان يقال: من حسن الأدب أن لا تنازع من فوقك، ولا تقول ما لا تعلم،

ولا تتعاطى ما لا تنال، ولا يخالف لسانك ما في قلبك، ولا قولك فعلك، ولا تدع الأمر إذا أقبل، وتطلبه إذا أدبر.ص٢٢٨

ـ ويقال: من أُدِّبَ صغيراً قرت عينه كبيراً، ومن أدب ابنه أرغم أنف عدوه.ص٢٢٨

ـ قال سقراط الحكيم: العقول مواهب، والآداب مكاسب.ص٢٣٦

ـ وقال: متواضع العلماء أكثرهم علماً، كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماءاً.ص٢٣٦

ـ وقال: لستَ تُعَرِّض المسيء لمقت الله بمثل الإحسان إليه مع الإساءة منه إليك.ص٢٣٦

ـ وقالوا: الصبر على كتمان السر أيسر من الندامة على إفشائه.ص٢٤٢

ـ وقالوا: لا تفش سرك إلا عند من يضره نشره كما يضرك، وينفعه ستره كما ينفعك.ص٢٤٢

ـ وقالوا: كل سر تكتمه عدوك فلا تطلع عليه صديقك.ص٢٤٢

ـ وقالوا: أصبر الناس من صبر على كتمان سره، فلم يبده لصديقه؛ خوفاً من أن يصير عدواً، فيذيعه.ص٢٤٢

ـ وقال السري بن المغلس رحمه الله: أربع من أعطيهن فقد أعطي خير الدنيا والآخرة: صدق الحديث، وحفظ الأمانة، وعفاف الطعمة، وحسن الخليقة.ص٢٤٩

٨- فصل في حسن الجوار

ـ قال الله ـعز وجلـ في سورة النساء: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً (٣٦) ﴾ .ص٢٥٨

ـ وعن مجاهد: أن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ أمر بشاة فذبحت، فقال لقيِّمه: هل أهديت لجارنا اليهودي شيئاً؟ مرتين فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه» .ص٢٥٨ـ٢٥٩

٩- فصل في الصمت وحفظ اللسان

ـ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ في سورة النساء: ﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١١٤) ﴾ ص٢٦٩

ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، وليكرم ضيفه، وليقل خيراً أو ليسكت» .ص٢٧١

١٠- فصل في التعفف

ـ قال الشاعر:

أُقسم بالله لَرَضْخُ النوى وشربُ ماءِ القُلُبِ المالحهْ

أعز للإنسان من حرصه ومن سؤال الأوجه الكالحهْ

فاستشعر الصبر تَعِشْ ذا غنى مغتبطاً بالصفقة الرابحهْ

ص٣٠٧

ـ وقال آخر:

صن بعز اليأس عنهم أبداً ماء ديباجك عن بذل النوال
ليس شيء من نوال تبتغي قيمة للوجه من ذل السؤال

ص٣٠٨

١١- فصل في الصبر على الأذى ومداراة الناس

ـ قال الله ـتبارك وتعالىـ في سورة آل عمران: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٨٦)﴾ .ص٣١٨

ـ وعن مجاهد في قول الله ـتبارك وتعالىـ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾ الفرقان:٧٢ قال: إذا أُوذوا صفحوا.ص٣١٩

ـ وقال حاتم الطائي:

تَحَلَّم عن الأدْنَيْنَ واستَبْقِ وُدَّهم ولن تستطيع الحِلْمَ حتى تَحَلَّما

ص٣٢١

ـ وقال آخر:

لقد أسمع القول الذي كاد كلما تُذكِّرُنيهِ النفسُ قلبيْ يُصَدَّعُ
فأُبدي ـ لمن أبداه ـ مني بشاشة كأني مسرور بما منه أسمع
وما ذاك من عُجْبٍ به غير أنني أرى أن ترك الشر للشر أقطع

ص٣٢٢

١٢- فصل في حفظ التجارب وغلبة العادة

ـ قالت الحكماء: التجارب عقل ثان، ودليل هاد، وأدب للدهر؛ فافهم عن

الأيام أخبارها، فقد أوضحت لك آثارها، واتعظ بما وعظك منها، وتَأَملْ ما ورد عليك من أحوالها تَأَمُّلَ ذي فكرة منها؛ فإن الفكرة تدرأ عنك عمى الغفلة، وتكشف لك عن مستخفيات الأمور.ص٣٢٥

ـ وقالوا: الدهر أفصح المؤدبين؛ وكفاك من كل يوم خبر يورده عليك، وإنما الأيام مراقي الأدب، ودرجات إلى العلم الأكبر، فمن فهم عنها أورث زيادة، وسطع نور علمه، ولم يفتقر إلى غير نفسه، ولو صحب ذو الغفلة أيام الدنيا بعجائب ما تصرفت به على القرون لم يزل جذعاً في الغرة، ومتدلهاً فيما يحدث؛ لأن الغفلة ظلمة راكدة، والمعرفة مصباح الخلقة.ص٣٢٥

ـ وقد قيل: إذا رأيت ذا العمر الطويل والسن القديم يكثر التعجب مما يرى ويسمع ـ فذلك لقلة حفظه للتجارب، ولسهوه عما مرت به عليه الليالي.

ـ وقالوا: الفهم خزانة العقل؛ ونور يبصر به ما أمامه، وإنما نكص على عقبيه من خانه فهمه، وخذله عقله، وضيع ما استودعته الأيام، فكأنه ابن يومه، أو نتيج ساعته، وحسبك مؤدباً لخصالك، ومثقفاً لعقلك ـ ما رأيته من غيرك: من حسن تغبط به، أو قبيح تذم عليه.ص٣٢٥ـ٣٢٦

ـ وقد قيل: نفسك تقتضيك ما عودتها من خير أو شر.ص٣٢٦

ـ وقيل: لسانك يقتضيك ما عوَّدته.ص٣٢٦

١٣- باب البلاغة

ـ قلت ـ وبالله التوفيق ـ: كلام المخلوقين تتميز فيه البلاغة من العي، والفصاحة من اللَّكن، وأما كلام الخالق ـ تبارك وتعالى ـ فعقول البلغاء تعجز عن تدبر بلاغته، وتحار في اطراد فصاحته، فماذا يورد المورد منه؟! وبماذا يترجم عنه؟!

وقد تحدى الله ـسبحانهـ به خلقه أجمعين، فقال ـوهو أصدق القائلينـ في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨)﴾.ص٣٢٨

ـ وقال ـعز وجلـ في سورة الطور: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)﴾.

وما يعجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثله؛ فماذا ينتزع منه وماذا ينتخب؟.ص٣٢٩

ـ وقد روي عن الأصمعي رحمه الله قال: اجتزت ببعض أحياء العرب، فرأيت صبية معها قِرْبَةٌ فيها ماء وقد انحلَّ وكَاءُ فَمِها؛ فقالت: يا عم، أدرك فاها، غلبني فوها، لا طاقة لي بفيها؛ فأعنتها، وقلت: يا جارية، ما أفصحك! فقالت يا عم، وهل ترك القرآن لأحد فصاحة؟ وفيه آية فيها خبران وأمران ونهيان وبشارتان! قلت: وما هي؟ قالت: قوله ـتبارك وتعالىـ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ القصص:٧

قال: فرجعت بفائدة، وكأن تلك الآية ما مرت بمسامعي!!ص٣٢٩

ـ وقال يحيى بن معاذ رحمه الله: طلب الخير شديد، وترك الشر أشد منه؛ لأن ليس كل الخير يلزمك عمله، والشر كله يلزمك تركه.ص٣٣٩

ـ وحذر رجل من الحكماء صديقاً له صحبه آخر، فقال: يا فلان، احذر فلاناً؛

فإنه كثير المسألة، حسن البحث، لطيف الاستدراج، يحفظ أول كلامك على آخره، ويعتبر ما أخرت بما قدمت؛ فلا تظهرن له المخافة، فيرى أنك قد تحرزت وتحفظت.

واعلم أن من يقظة الفطنة إظهارَ الغفلة مع شدة الحذر، فباتِّه مباتَّة الآمن، وتحفَّظ منه تحفظ الخائف، فإن البحث يظهر الخفي، ويبدي المستتر الكامن. ص٣٤٢

ـ قال سويد بن أبي كاهل:

إني إذا ما الأمر بيَّن شكُّه ... وبدت بصائره لمن يتأمل

أَدَعُ التي هي أرفق الحالات بي ... عند الحفيظة للتي هي أجمل

ص٣٥٥_٣٥٦

وقال أُحَيْحَةُ بن الجُلاح:

استغن عن كل ذي قربى وذي رحم ... إن الغني من استغنى عن الناس

والبس عدوَّك في رفق وفي دعة ... لباس ذي إربة للناس لباس

ص٣٥٦

١٤- باب في الحكمة

ـ قال الله ـتبارك وتعالىـ في سورة البقرة: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٦٩)﴾.ص٤٢٠

ـ وقال البعيث:

فلا تكثرن في إثر شيء ندامة ... إذا نزعته من يديك النوازع

ص٤٢٤

ـ قيل: سمع كعب الأحبار رحمه الله رجلاً ينشد قول الحطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

فقال: والذي نفسي بيده إن هذا مكتوب في التوراة.ص٥٢٤

ـ وقال الحكيم: المخذول من كانت له إلى الناس حاجة.ص٤٢٩

ـ وقال أرسطاطاليس الحكيم لصديق له وقد رآه ظالماً: هبنا نقدر على محاباتك في أن لا نقول: «إنك ظالم»، هل تقدر أنت على أن لا تعلم أنك ظالم؟! وقليل الحق أجدى عليك من كثير الظلم.ص٤٢٩ـ٤٣٠

ـ وقال: ما أكثر ما نعاتب غيرنا على الظنون، ونترك عتاب أنفسنا على اليقين.ص٤٣٠

ـ وقال: ما أحرصنا على ستر أفعالنا الردية عن غيرنا وهي لنا منكشفة، فغيرنا أفضل عندنا من أنفسنا.ص٤٣٠

ـ وقال: القوةُ على الامتناع عن اتباع الشهوات أحدُ أشفيةِ أسقامِ النفس.ص٤٣٢

ـ وقال بعض الحكماء: ما أعجب من يطلب العفو ممن هو فوقه، ويمنعه من هو دونه.ص٤٣٢

ـ وقال سقراط: أَمَّا على الكلام فكثيراً ما ندمت، وأما على السكوت فلا.ص٤٣٣

ـ وقال أوجانس: كفاك موبخاً على الكذب علمك أنك كذاب.ص٤٣٣

ـ وقال: لو سكت من لا يعلم لسقط الاختلاف.ص٤٣٣

خامساً: نقولات مختارة من كتاب:

الوصية المباركة لابن قدامة المقدسي ٥٤١ ـ ٦٢٠ هـ

«تعريف بالمؤلف»:

هو الشيخ الزاهد الفقيه الإمام القدوة العلامة شيخ الإسلام موفق الدين عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر المقدسي الجمَّاعيلي ثم الدمشقي الصالحي الحنبلي صاحب المغني أبو محمد.

ولد في شعبان بجمَّاعيل ـ قرية في جبل نابلس من أرض فلسطين ـ.

كان والده من أهل العلم والفضل والصلاح والزهد.

ونشأ ابن قدامة محباً للعلم مجتهداً في طلبه، حيث أخذ عن علماء الشام، وسافر إلى بغداد، وله مصنفات عديدة منها: الاعتقاد والبرهان في مسألة القرآن، وكتاب التوابين، وذم الوسواس، والروضة في أصول الفقه، والعمدة، والمقنع، والمغني، وغيرها.

جاء في ترجمته: أنه كان رحمه الله إماماً في فنون كثيرة، وكان كثير الحياء، عزوفاً عن الدنيا، هيناً، ليناً، متواضعاً، محباً للمساكين، حسن الأخلاق، جواداً سخياً من رآه كأنما رأى بعض الصحابة، وكأن النور يخرج من وجهه، كثير العبادة، يقرأ كل يوم وليلة سُبْعاً من القرآن، وكان إذا فرغ من صلاة العشاء يمضي إلى منزله، ويمضي معه مِنْ فقراء الحلقة مَنْ قدَّره الله ـ تعالى ـ فيقدم لهم ما تيسر؛ ليأكلوه.

وكان شجاعاً مقداماً مجاهداً في سبيل الله.

وكان مع تبحره في العلوم زاهداً تقياً ربانياً عليه هيبة ووقار، وفيه حلم وتؤدة.

وكان يفحم الخصوم بالحجج والبراهين، ولا يتحرج ولا ينزعج، وخَصْمُه يصيح ويحترق.

وكان ـ أيضاً ـ لا يكاد يناظر أحداً إلا وهو يبتسم، حتى قال بعض الناس: هذا الشيخ يقتل خصمه بتبسمه.

ولقد أثنى عليه العلماء ثناءاً عاطراً، قال عنه ابن الصلاح رحمه الله: «ما رأيت مثل الشيخ الموفق».

وقال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ما دخل الشام بعد الأوزاعي أفقه من الشيخ الموفق».

كانت وفاته رحمه الله يوم السبت يوم عيد الفطر أول شوال بدمشق سنة ٦٢٠هـ.

«تعريف بالكتاب»:

هذا الكتاب وصية كتبها ابن قدامة؛ استجابة لطلب بعض الصالحين؛ ليستفيد منها، فاعتذر الموفق؛ تواضعاً منه، ولكن بدا له أن يجيب؛ رجاء النفع بالوصية.

وقد ضمَّنها الوصاية بفعل الطاعات، واغتنام الأوقات، وبيَّن من خلالها بعض مفسدات الأعمال، ومثَّل على ذلك بالأمثلة، وبقصص وحكايات الصالحين.

والكتاب من القطع الصغير، ويقع في ١٦٠ صفحة، تحقيق د.محمد يوسف الشربجي، ومراجعة الأستاذ سعدي أبو حبيب، وتقديم الشيخ عبدالقادر الأرناؤوط، ط. دار الكلم الطيب ـ دمشق ـ بيروت، ط ١ ـ ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

ـ «**النقولات المنتقاة**» : قال رحمه الله :

١ـ أما بعد : فقد سألني بعض إخواني الصالحين أن أكتب له وصية ، فامتنعت من ذلك؛ لعلمي أني غير مستوصٍ في نفسي ، ولا عاملٍ بما ينبغي ، ثم بدا لي أن أجيبه إلى مسألته؛ رجاء ثواب قضاء حاجة الأخ المسلم ، ودعائه لي ، وأن يجري لي أجراً إذا عمل بوصيتي ، وأن أكون من الدالين على الخير حين عجزت عن عمله؛ لأكون بدلالتي عليه كفاعله ، والأعمال بالنيات ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب ، فأقول وحسبنا الله ونعم الوكيل.ص٧١ ـ ٧٢

٢ـ وألزم قلبك التفكير في نعم الله؛ لتشكرها ، وفي ذنوبك؛ لتستغفرها ، وفي تفريطك؛ لتندم ، وفي مخلوقات الله وحكمه؛ لتعرف عظمته ، وفيما بين يديك؛ لتستعد له ، أو في حكم شيء تحتاج إليه؛ لتعليمه.ص٨٧

٣ـ وألزم لسانك ذكر الله ـ تعالى ـ ودعاءه ، واستغفاره ، أو قراءة قرآن ، أو علماً ، أو تعليماً ، أو أمراً بمعروف ، أو نهياً عن منكر ، أو إصلاحاً بين الناس. ص٨٧

٤ـ وأشغل جوارحك بالطاعات ، وليكن من أهمها الفرائض في أوقاتها على أكمل أحوالها ، ثم ما يتعدى نفعه إلى الخلق ، وأفضل ذلك ما نفعتهم في دينهم كتعليمهم الدين ، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم.ص٨٧ ـ ٨٨

٥ـ واحترز من مفسدات الأعمال؛ لئلا يفسد عملك ، ويخيب سعيك ، فلا تحصل على أجر العاملين ، ولا راحة البطالين ، وتفوتك الدنيا والآخرة ، فمن ذلك الرياء والعمل لمحمدة الناس؛ فإن هذا شرك ، وقد روي عن الله ـ تعالى ـ أنه

قال : «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيْهِ غَيْرِيْ ، فَهُوَ لِلْذي أشرك ، وَأَنَا مِنْهُ بَرِيْء**» .

وقد لا يحصل للمرائي ما قصده؛ فيخيب بالكلية ، فقد روينا : أن رجلاً كان يرائي بعمله ، فإذا مرَّ بالناس قالوا: هذا مراءٍ ، فقال يوماً في نفسه : والله ما حصلت على شيءٍ ، فلو جعلت عملي لله ، فما زاد على أن قلب نيته ، فكان إذا مرَّ بهم بعد قالوا : هذا رجل صالح.ص٨٨ ـ ٨٩

٦ـ ولا تحقرنَّ مسلماً ، ولا تظنن أنك خيرٌ منه ، فإن ذلك ربما أحبط عملك ، وقد روينا أن عيسى ـ عليه السلام ـ خرج في سياحته معه حواريّه ، فمرا بقلعة فيها لص ، فلما رآهما قال لنفسه : هذا عيسى نبي الله ، وهذا حواريّه ، ومَنْ أنت يا شقي؟ لص تقطع الطريق ، وتخيف السبيل ، وتقتل النفس التي حرم الله ، فنزل إليهما تائباً نادماً ، فلما أراد أن يمشي معهما قال لنفسه : ما أنا بأهل أن أمشي معهما ، ولكن أمشي خلفهما كما يمشي المذنب الذليل ، فمشى خلفهما ، فالتفت الحواري فرآه يمشي خلفهما فعرفه ، فقال في نفسه : من هذا الكلب حتى يمشي خلفنا ، فاطلع الله ـ تعالى ـ على ما في أنفسهما ، فأوحى إلى عيسى ـ عليه السلام ـ أن قل للحواري واللص يستأنفان العمل؛ أما اللص فقد غفرت له بتوبته وإزرائه على نفسه ، وأما الحواري فقد أحبطت عمله بازدرائه اللص التائب.ص٩١ ـ ٩٢

٧ـ وقال بعض أنبياء بني إسرائيل لقومه : إيتوني بخيركم ، فأتوه برجل فقال له النبي : إيتني بشرّهم ، فخرج بنفسه فقال : ما وجدت فيهم شراً مني ، فقال : صدقوا أنت خيرهم.ص٩٢

٨ـ واعلم أن الله ـ تعالى ـ ناظر إليك، مطلع عليك، فقل لنفسك: لو كان رجل من صالحي قومي يراني لاستحييت منه، فكيف لا أستحي من ربي ـ تبارك وتعالى ـ ثم لا آمن تعجيل عقوبته، وكشف ستره؟ص٩٤ ـ ٩٥

٩ـ واعلم أنك لا تقدر على معصيته إلا بنعمته؛ فكم له عليك من نعمة في يدك التي مددتها إلى معصيته؟! وكم من نعمة في عينك التي نظرت بها إلى ما حرم عليك؟! وفي لسانك الذي نطقت به بما لا يحل لك؟! وليس من شكر إنعامه أن تستعين به على معاصيه.ص٩٥

١٠ـ وإن ابتليت بمعصية فبادر بالتوبة والاستغفار، والندم، وابك على خطيئتك؛ فإنك لا تدري على ما أنت منها؛ فإن بعضهم يقول: «لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى عِظَم من عصيت».

وشكا بعض عمال أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز إليه فكتب إليه: يا أخي! اذكر سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد، واحذرْ أن يكون المنصرف بك من عند الله إلى النار، فيكون آخر العهد منك ومنقطع الرجاء، فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم عليه، فقال: ما أقدمك؟ قال: خلعتَ قلبي بكتابك، لا عَملْتُ لك، ولا لأحد بعدك.ص٩٨ ـ ١٠٠

١١ـ واعلم ـ رحمك الله ـ أن حسن الخلق أثقل ما وضع في الميزان، وأنه يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم، وأن من وصل رحمه وصله الله، ومن قطعها قطعه الله، وأن أفضل الأعمال الصلاة لمواقيتها، ثم بر الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله، وأن أوثق عرى الإيمان الحب في الله، والبغض في الله، وأن الصبر من

الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وملاك الأمر الدعاء؛ فإن الأمر كله بيد الله يهدي من يشاء، ويستعمله، ويضل من يشاء، ويخذله؛ فينبغي لك أن ترغب إلى مَنِ الأَمرُ بيديه، وتفوض أمرك إلى الله، وليكن دعاؤك بخضوع، وخشوع، وبكاء، وتضرع؛ فإن بعضهم قال: إني لأعلم حين يستجيب لي ربي _عز وجل_ إذا: وَجِلَ قلبي، واقشعرَّ جلدي، وفاضت عيناي، وفتح لي في الدعاء. ص١٠٦ _ ١٠٩

١٢_ فاعتمد على الله اعتماد الغريق الذي لا يعلم لسبب نجاته غير الله _تعالى_.ص١١٤

١٣_ وعليك بالورع، واجتناب الشبهات؛ فإن من واقَعَ الشبهات أوشك أن يقع في الحرام؛ فإن من يرتع حول الحمى أوشك أن يجسر، وعليك بالليل، فاخْلُ فيه بربك، واطلب منه حوائجك، وتضرع إليه، واخضع بين يديه. ص١١٥ _ ١١٦

١٤_ واعلم أن الله _ تعالى _ إذا نظر إليك، وعلم أنك قد جعلته معتمدك، وملجأك، وأفردته بحوائجك دون خلقه _ أعطاك أفضل مما سألته، وأكرمك بأكثر مما أردته، فإن عجل لك الإجابة فقد جمع لك بين قضاء الحاجة وخير الآخرة، وإن لم يجبك عاجلاً فقد عوضك عن ذلك خيراً كثيراً فيه؛ فأنت على خير في الحالتين.ص١١٩ _ ١٢٠

١٥_ ومناجاة العباد لربهم كثيرة، ومن أحسنها: ما روي عن منصور ابن عمار رحمه الله قال: سمعت عابداً بالليل يناجي ربه، وهو يقول:

وعزتك وجلالك! ما أردت بمعصيتي مخالفتك، ولا التعرض لغضبك، ولا أنا بِنَكَالِكَ جاهل، ولا لعذابك متعرض، ولا بنظرك مستخِفٌّ، ولكنْ زينت لي نفسي، وأعانتها شقوتي، وغرَّني سترك المُرْخَى عليَّ، فعصيتك بجهلي، وخالفتك بجُهدي، فالآن من عذابك من ينقذني؟ وبحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عني؟ وا سوأتاه من الوقوف بين يديك غداً إذا قيل للمُخفِّين: جوزوا، وللمثْقَلين: حُطّوا، فمع المخفين أجوز أم مع المثقلين أحط؟ يا سيدي! ويلي كلما طالت أيامي، وكثرت آثامي، وبلي كلما كبرت سني، وعظمت ذنوبي، فمن كم أتوب، وفي كم أعود، وا شباباه! وا شباباه!.ص١٢٢ ـ ١٢٣

سادساً : نقولات مختارة من كتاب :

آداب الحرب في الإسلام تأليف العلامة محمد الخضر حسين ١٢٩٣_١٣٧٧هـ

«**تعريف بالمؤلف وبالكتاب**» : أما المؤلف فهو الشيخ العلامة الأديب محمد الخضر الحسين التونسي ١٢٩٣_١٣٧٧هـ.

وقد مرت ترجمته في الجزء الأول من المنتقى.

أما الكتاب فهو رسالة مختصرة لطيفة طريفة، تتضمن خلاصة وافية لآداب الحرب في الإسلام، وتغني عن المطولات من البحوث التي تناولت هذا الموضوع.

وهذه الرسالة ظهرت للمرة الأولى في الجزأين التاسع والعاشر من المجلد الثاني عشر لمجلة الهداية الإسلامية عام ١٣٥٥ التي كان يصدرها الشيخ رحمه الله.

وقد صدرت في رسالة مستقلة ضمن المنشورات الإسلامية التي كانت جمعية الهداية الإسلامية تقوم بنشرها، ولم تحمل تلك النشرة أي تاريخ لصدورها.

وقد عني بجمع هذه المادة وتحقيقها الأستاذ الفاضل علي الرضا الحسيني ابن أخي الشيخ.

والطبعة التي بين أيدينا هي الثالثة عام ١٤١٣هـ_١٩٩٣م، طبع الدار الحسينية للكتاب، والكتاب من الحجم الصغير ويقع في ٦٤ صفحة.

ـ «**النقولات المنتقاة**» : قال رَحِمَهُ اللَّهُ :

ـ أما بعد : فقد ذكرت ما كان للجيوش الإسلامية من قوة ، وما كان لها من الوقائع المكللة بالظفر ، ولم أرتب في أن لتلك القوة والظفر أسباباً أقواها نور الإيمان الذي كان يتلألأ في صدورهم ، وآداب الدين الذي كانوا يعتزون به في كل موطن ، ونصائحه التي كانوا يرعونها بحق ، فبدا لي أن أذكّر جيوشنا الإسلامية بجانب من تلك الآداب والنصائح ، حتى إذا وجدت فطراً سليمة ونفوساً مشرقة بالإيمان قوي رجاؤنا في أنّا سنخرج من حمأة المهانة إلى صعيد طاهر من الكرامة ، وأن الزمن الذي تخفق فيه رايتنا بالنصر على من يروم السيطرة على أوطاننا غير بعيد. ص٧

١ـ أسباب الحرب

ـ طبعت نفوس على حب الاستئثار بالمنافع ، وذلك ما يدعوها إلى أن تُمدّ أيديها إلى ما يتمتع به غيرها من خير ، وتنتزعه منه بقوة ، كما أن في النفوس غيرةً على ما بيدها من حق ، وإبايةً لأن يؤخذ منها هذا الحق وهي كارهة ، وذلك ما يدعوها إلى أن تذود عن ساحتها ، وتدافع عن حقوقها ولو كان خصمها أكثر جنداً وأتمَّ سلاحاً ، بل تقف هذا الموقف من الرجولة والاحتفاظ بالكرامة ، ولو غلَب على ظنها أنها ستُغلَب على أمرها؛ تفعل هذا إيثاراً لحياة العزة على حياة المهانة ، وتحامياً لخزي ينقل من جيل إلى جيل.

وهاتان الطبيعتان : طبيعة حب الاستئثار بالمنافع ، وطبيعة إباء الضيم هما منشأ أكثر الحروب التي تقوم بين الأمم : الحريص على منافع في يد غيره يهاجم أو

يستعد متحفزاً للهجوم، ومن بيده المنافع ينهض في وجه المهاجم، أو يبادر المتحفز للهجوم عليه قبل أن يستوفي وسائل الهجوم، «تغدّ بالحجّاج قبل أن يتعشى بك».

وربما كان قوم على حق وسيرة من الرشد، فيحمل لهم الطغاة الفجّار ضغناً، ويرومون القبض على زمامهم ليصرفوهم عن سيرتهم الرشيدة، ولا يرضى المستقيمون على طريقة الرشد إلا أن يعيشوا أحراراً، فإذا الحرب ناشبة: أولئك يبغون فتنة، وهؤلاء يبغون سلاماً.

وقد تنشب الحرب بين طائفتين يعتقد كل منهما في نفسه أنه المظلوم وخصمَه الظالم، وهذا النوع من الحروب هو الذي يمكن تحاميه من طريق المفاوضات، وقرْع الحجّة بالحجّة، ويغني فيه القلم عن النار والحديد. ص٨_٩

٢_ الاستعداد للحرب

_ إذا كانت طبيعة حب الاستئثار بالمنافع غالبة على النفوس، وإذا كان أصحاب الأهواء يحرصون على إطفاء نور الحق، وإذا كان في إقناع أحد الخصمين بأن الحق في جانب غيره صعوبة _ فمن الحزم أن تكون الأمة على استعداد كاف لدفاع من يريد الاعتداء على حق من حقوقها، بسوء قصد أو بسوء فهم.

وكذلك نرى الإسلام قد فرض على الأمة أن تنفق أقصى ما تستطيع في الاستعداد للدفاع، قال _تعالى_: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ الأنفال: ٦٠؛ فاستعداد الأمة للحرب يجعلها في مَنعَة من أن يهتضم ذو

قوة حقاً من حقوقها، أو تحدِّثه نفسه بأن يبسط سلطانَه على قيد شبر من أوطانها. ص١٠

ـ أمر الشارع الحكيم بإعداد وسائل الدفاع، وذكرها بلفظ عام وهو قوله: ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ لتتناول كل ما يُحتاج إليه في الدفاع، ويكون له أثر في الفوز على العدو المحارب، فيدخل فيه آلات الطعن والضرب وآلات الرماية، وبناء الحصون، وتهيئة ما تحتاج إليه الجنود من نحو الملابس والمطاعم.

وقول النبيﷺ: «ألا إن القوة هي الرمي» تنبيه على أن الرمي أهم الوسائل التي تكون بها القوة، فالطيارات والبارجات والدبابات والغواصات من أدوات الرمي. ص١٠ـ١١

٣ـ التدريب على الحرب

ـ لما كان في السباق على الخيل تدريب على خوض غمار الحروب، أذن فيه النبيﷺ، وفعله، على الطريقة المعروفة في كتب الفقه؛ وأذن النبيﷺ كذلك في اللعب بالسلاح، لما فيه من التمرين على الطعان بجد إذا التقى الجمعان.

ورد في الصحيح أن الحبشة كانوا يلعبون بالحراب في المسجد على مرأى من رسول اللهﷺ، ولما أنكر عليهم عمر بن الخطاب، وأهوى إلى الحصباء ليرميهم بها، قال له النبيﷺ: «دعهم يا عمر». ص١٢

٤ـ محاكاة العدو في وسائل الدفاع

ـ كان علينا استطلاع ما يهيؤه العدو من وسائل الحروب لنصنع ما يصنع، حتى نماثله في القوة، ونفضُلَه بأننا ندافع عن الحق، ونرجو من الله ما لا يرجو.

وفي وصية أبي بكر الصديق لخالد بن الوليد: «إذا لا قيت القوم فقاتلهم بالسلاح الذي يقاتلونك به: السهم للسهم، والرمح للرمح، والسيف للسيف».

ولو ظهر في أيام أبي بكر نوع آخر من السلاح لَذكَرَه، ونقول على طراز حكمته: الطيارة للطيارة، والحرّاقة للحرّاقة، والغوّاصة للغوّاصة.

وأشار سلمان الفارسي في واقعة الأحزاب على النبيﷺ بحفر الخندق، فأذن بحفره، وعمل فيه بنفسه، وقال أبو سفيان يومئذ: «هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها». ص١٣

٥ـ كتابة أسماء من يدعون إلى الحرب

ـ من النظم الجارية في القديم والحديث، كتابة أسماء من فيهم كفاية للجندية، حتى يعرف أولو الأمر قوة الجند من جهة عددهم، وكان هذا أمراً متبعاً في عهد النبيﷺ.

روى ابن عباس أن رجلاً جاء إلى النبيﷺ ، فقال: يا رسول الله إني كتبت في غزوة كذا، وامرأتي حاجة، فقال: «ارجع فحج مع امرأتك».

وفي الصحيح عن حذيفةرضي الله عنه أن النبيﷺ قال: «اكتبوا إلي من تلفظ بالإسلام من الناس» فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجل.

وكان هذا عند خروجه إلى غزوة أحد، أو عندما كانوا بالحديبية. ص١٤

٦ـ إعلان الحرب

ـ يوجب الإسلام علينا الوفاء لمن بيننا وبينهم عهد أو هدنة، فإن قامت

شواهد على أنهم يريدون خيانتنا، ويتهيؤون للهجوم على أوطاننا لم يجز لنا مهاجمتهم وأخذهم على غرة، ولا بد من أن نشعرهم بأن العهد بيننا وبينهم قد انتقض، قال ـتعالىـ في كتابه المجيد: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ الأنفال: ٥٨.

وكان أبو بكر الصديقرضي الله عنه يقول لقائد الجيش: «وقدم النّذُر بين يديك». ص١٥

٧ـ رفع الرايات في الحرب

ـ ترفع الرايات حيث يكون قائد الجيش، ليعلم بها مكانه، حتى يأوي إليها الناس عند الحاجة، واتخذ النبيﷺ رايته مرة بيضاء، ومرة سوداء، ومرة صفراء، وروى أن بعض ألويته كان مكتوباً عليه «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وقد يعطي كل قبيلة لواء يقاتلون تحته، وعقد لوفد سليم لواءاً أحمر، وعقد لسعد بن مالك راية على قومه سوداء وفيها هلال أبيض. ص١٦

٨ـ الشعار في الحرب

ـ يتخذ الجنود شعاراً يتعارفون به في ظلمة الليل أو عندما يشتبك الفريقان، وكان هذا الضرب من الاحتراس متبعاً في غزواته ﷺ وفي فتوحات الخلفاء الراشدين من بعده، عن البراء بن عازب، أن رسول اللهﷺ قال: «إنكم تلقون عدوكم غداً، فليكن شعاركم: حم لا ينصرون».

وكان شعار المسلمين في غزوة بني المصطلق: يا منصور أمِتْ، وغزا أبو بكر في

زمن رسول الله ﷺ وكان شعار الجيش: أَمِتْ أَمِتْ «أمر من الإماتة». ص١٧

٩_ تعهد الجند بالموعظة

_ قد يأخذ الجنود حظهم من الفنون الحربية كاملاً، ولا يستغنون بعد أن تغذّى نفوسهم بالموعظة الحسنة؛ فمن المثير لحماسة الجند قبل دخولهم في ملاحم الحروب إلقاء خطب تذكرهم فضل الإقدام والثبات، وما يأتي به الثبات في مواقف الدفاع من خير، وتنذرهم ما يجرّه الجبن والحرص على الحياة من خزي وشقاء. ص١٨

١٠_ النشيد الحماسي

_ نريد من النشيد الحماسي الشعر الذي يشتمل على تذكير الجنود بمجد قومهم الماضي أو الحاضر، وبما تقتضيه العزة من نحو إباية الضيم، والاستهانة بالخطوب، وشأن هذا الشعر تقوية القلوب، وإيقاد الغيرة، فيزداد الجند إقداماً وثباتاً في مواقع القتال، وكان الصحابة _رضي الله عنهم_ يقولون يوم حفر الخندق:

نحنُ الذين بايعوا محمدا على الجهادِ ما بَقينا أبدا

ص٢٠

١١_ الزحف في صفوف منظمة

_ كان العرب والبربر يحاربون على طريقة الكر والفر، وكان غيرهم من العجم والإفرنج يزحفون إلى الحرب صفوفاً، وقد جاء الإسلام باختيار طريقة الزحف، قال _تعالى_: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ

مَرْصُوصٌ﴾ الصف: ٤.

ووجه هذا أن التقدم للقتال في صفوف منظمة أرهبُ للعدو، وأدعى إلى الثبات والدوام في المعترك، بخلاف قتال الكر والفر؛ فإنه لا يعطي الجيش مهابة، ويسهل فيه على ضعفاء النفوس المسارعة إلى الهزيمة.

ولو بدا لقائد الجيش في بعض المواطن أن يتخذ طائفة من الجند يحاربون على طريقة الكر والفر، ويكون من ورائهم الصفوف المنظمة يلجأون إليها عند الحاجة فقد فعل هذا ملوك المغرب؛ إذ كانوا يقدمون جنوداً تحارب على طريقة الكر والفر، ويضربون وراءها صفوفاً من المدربين على الثبات في الزحف. ص٢٢

١٢_ الإقدام في الدفاع

_ لكثرة الجند أثر في الظفر، وقد ينتصر الجيش وهو قليل العدد متى كان أشد بسالة، وأثبت قدماً عند اللقاء.

وما السيفُ إلا بَزُّ غادٍ لزينة إذا لم يكن أمضى من السيف حامله

ومن هنا نجد القرآن الكريم يُعنى بتربية الشجاعة في النفوس. ص٢٣

_ ومن وجوه تربيته للشجاعة تذكيره الأمة بأن ما ينالهم في سبيل القتال قد ينال عدوَّهم مثله، قال _تعالى_: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ النساء: ١٠٤

وقال _تعالى_: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ آل عمران: ١٤٠. ص٢٣

ـ ومن هذا القبيل تذكيره الأمة بأن العدو إذا استولى على أوطانهم كانت له العزة، وكانت عليهم الذلة، قال ـتعالى ـ: ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ الممتحنة :٢. ص٢٣

١٣ـ الثبات في مواقع الدفاع

ـ قد يكون الرجل مقداماً لا يهاب الموت، ولكنه يبتلى بقلة الصبر على المكاره، فيسأمُ ما يلاقيه في حومات الحروب من مشاق، فَيَثني عِنانه عن الدفاع، وينقلبُ على عقبه مبتغياً ـفيما يزعمـ راحة الحياة، أو جانحاً إلى صلح يضرب عليه ذلّة وصغاراً؛ فمن متمات الشجاعة الثبات في الدفاع إلى إدراك الغاية، قال ـتعالىـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ الأنفال: ٤٥

وقالﷺ: «لا تمنَّوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا؛ فإن الجنة تحت ظلال السيوف». ص٢٤

١٤ـ الإخلاص في الحرب

ـ نجاح كل عمل على قدر ما يقارنه من طيب السريرة وحسن القصد، وأحق ما يَقْصِد إليه الناهضون إلى الحرب حمايةُ أوطانهم؛ ليسلم لهم دينهم وأعراضهم وأموالهم، وتكون كلمة الحق هي العليا.

وهذا القصد أكبر باعث على الثبات في مواقف الدفاع، فالذي يحارب ليُحرزَ منصباً أو مالاً، أو ليتحدث الناس عن شجاعته ـ قد يقف في إقدامه عند حد، وما هو من الانهزام والفرار من مواقع الدفاع ببعيد.

أما الذي يقاتل دفاعاً عن شيء يرى الحياة بدونه شراً من الموت، وهو العزة

والحرية اللتان يرى بهما الحق في إشراق وصعود ـ فإنه يثبت في مواقع القتال، ولا يلوي عنقه عنه إلا أن يفوز أو يموت. ص٢٥

١٥ـ أثر الاستقامة في الانتصار

ـ جرت سنّة الله بأن يكون تأييده في جانب القوم الذين يملؤون قلوبهم بالثقة به، ويحافظون على واجبات شريعته ما استطاعوا.

ـ فصلاح حال الجيش ولا سيما من بيدهم قيادته، يستدعي تأييد الله ـ تعالى ـ لهم تأييداً مؤزراً، وقد يأتيهم النصر بعد استعدادهم من حيث لا يحتسبون، فإذا تفشت فيهم المعاصي لم يأمنوا أن يكون من عقوبة معاصيهم ابتلاؤهم بالوهن والفشل أمام سطوة عدوهم. ٢٦

١٦ـ الدهاء في الحرب

ـ للشجاعة وكثرة الجند وجودة السلاح أثر في الانتصار، ولكن للدهاء أعني ـ جودة الرأي ـ الفضل الأكبر في الفوز والغلبة. ص٢٨

١٧ـ اطلاع ولي الأمر على سير الحرب يوماً فيوماً

ـ يفوض ولي الأمر إلى قائد الجيش تدبير شؤون الدفاع، واتخاذ وسائل قهر العدو على وفق ما تقتضيه الفنون الحربية.

وشأن ولي الأمر أن يكون على خبرة من أحوال الجند وسير الحرب، كما يكون على خبرة من أحوال العدو: يواصله بها قائد الجيش يوماً فيوماً، أو ساعة فساعة، حتى يصير كأنه يراها رأي العين.

ومن كتاب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص: «اكتب إلي في كل يوم».

وقال له في كتاب آخر: «فصف لي منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن _عاصمة بلاد الفرس_ صفةً كأني أنظر إليها، واجعلني من أمركم على جلية». ص٣٠

_ واطلاع ولي الأمر على حال الجيش وموقف العدو أمامهم في كل ساعة، يدعوه إلى السهر والتفكير في وسائل سلامة الجيش، وإمداده بما يحتاج إليه من قوة. ص٣٠

_ ولا يمنع وليّ الأمر تفويضه لقائد الجيش في أمر الحرب أن يتتبع سيرته وينظر إليها بعين الناقد البصير، حتى إذا رأى فيها مأخذاً نبهه له، أو بدا له رأي أصوب من رأي القائد أبلغه إياه مصحوباً بالحجّة. ص٣٠_٣١

١٨_ الشورى في الحرب

_ استطلاع الآراء نافع في كل أمر، وهو في الحرب أحق بأن لا يستهان به؛ فإنّ رأي الجماعة أبعد عن الخطأ من رأي الفرد، لذا عُني القرآن المجيد بالشورى، فقال _تعالى_ لرسوله الكريم وهو المؤيد بالوحي: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ آل عمران: ١٥٩

والمراد من الأمر في الآية أمر الحرب ونحوها من أمور الدنيا التي يدركها الناس من طريق التجارب والممارسة، أما الأحكام الشرعية فإنما تجيء من طريق الوحي. ص٣٢

١٩_ كيف يكون قائد الجيش

_ عرفنا قبل أن الدهاء مما يراعى في اختيار قائد الجيش، ويجب أن يكون قائد

الجيش مع هذا شجاعاً قوي الجأش؛ فإن لشجاعته أثراً كبيراً في شجاعة الجيش أو جبنه.

قال أبو بكر الصديق في وصيته ليزيد بن أبي سفيان. «ولا تجبُن فيجبُن الناس». ص٣٣

ـ وإذا كانت خصلة الثبات واحتمال المكاره مما يجب أن يغرس في نفوس الجند ـ فنفس القائد أحق بأن تكون مطبوعة على هذه الخصلة المجيدة. ص٣٣

ـ ولا يكفي لقيادة الجيوش عندما تلتهب نار الحرب إلا الرجل الذي كان قد خاض غمار الحرب من قبل، فذاق حرها، وثبتت قدمه لملاقاة خطوبها، قال أبو تمام:

من لم يُسَسْ ويطير في خيشومِهِ رهج الخميس فلن يقود خميسا[1]

ص٣٣

ـ وإنما يختار لقيادة الجيش من عرف بالغيرة على الحق الذي قامت الأمة للدفاع عنه؛ فإن هذه الغيرة تزيد شجاعته قوة، وتفتح أمامه أبواباً من التدبير الناجح لا يبصرها قائد كان حظه من الغيرة ضئيلاً. ص٣٤

٢٠ـ استكشاف حال العدو

ـ إن معرفة قائد الجيش بحال عدوه المحارب، وما ينويه من أعمال حربية تدعوه إلى أن يستعد له على قدر ما يستطيع من قوة أو مكيدة، قال النبيﷺ في واقعة الأحزاب: «من يأتيني بخبر القوم»؟ قال الزبير: أنا، فقال ـ عليه الصلاة

١ـ الخيشوم: أقصى الأنف والجمع خياشيم، والرهج: الغبار أو ما أثير منه، والخميس: الجيش.

والسلامـ: «إن لكل نبي حواريّ وحواريي الزبير». ص٣٥

٢١_ التكتم في الحرب

_ من حزم قائد الجيش أن يكون تصريفه لشؤون الحرب محوطاً بستار، وتكون آراؤه مصونة بكتمان، وربّ نكبة تأتي الجيش في اطِّلاع عدوّه إلى ما بيّته قائد الجيش من أمر. ص٣٦

_ بعث النبيﷺ عبدالله بن جحش على رأس سرية وناوله كتاباً مختوماً، وقال له: لا تفتحه إلا في مكان كذا، ولما وصل إلى ذلك المكان فتحه، فإذا فيه: «امض حتى تنزل نخلة فتأتينا من أخبار قريش». ص٣٦

_ وكانﷺ إذا أراد المسير إلى قوم ورَّى بغيرهم. ص٣٦

٢٢_ الاحتراس في الحرب

_ تقوم الحرب على المكيدة، فمن حزْم قائد الجيش أن يكون على حذر من الوقوع في مكيدة ينصبها له العدو. ص٣٧

_ خرج بغاة بخراسان على قتيبة بن مسلم، فقيل له: وجّه إليهم وكيع بن أبي أسود فإنه يكفيهم، فقال: إن وكيعاً رجل به كبر، يحتقر أعداءه، ومن كان هكذا قَلّت مبالاته بعدوه، فلم يحترس منه، فيجد عدوه فيه غرة. ص٣٧

_ وقال بعض الحكماء: «الضعيف المحترس من العدو القوي، أقرب إلى السلامة من القوي المغتر بالضعيف». ص٣٧

_ ومن أهم ما يتأكد الاحتراس منه: إذاعة الأخبار التي تبعث في النفوس ضعفاً، وفي العزائم وهناً، ولسدِّ مثل هذا الباب من الفساد نزل قوله _تعالى_:

﴿ وإذا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أو الخَوْفِ أذاعُوا به وَلَوْ رَدُّوهُ إلى الرَّسولِ وَإلى أُوْلي الأمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ النساء: ٨٣.

فالآية واردة في قوم كانوا يسمعون أراجيف المنافقين، فيذيعونها ويكون في إذاعتها ضرر على المسلمين، وقد أرشدتهم إلى أن يُرجعوا تلك الأنباء إلى الرسول، وإلى أولي الأمر منهم؛ حتى يعرفوا ما يذاع، وما لا ينبغي أن يذاع. ص٣٧_٣٨

٢٣_ حكم الجاسوس في الإسلام

_ في التجسس على شؤون الحرب، والإفضاء بها إلى العدو شرٌّ كبير؛ فربما كان سببَ نكبة القوم وابتلائهم بالهزيمة جاسوسٌ يدل القوم على عورة من عوراتهم، أو يطلعه على خطة مبيتة من خططهم.

وكان رسول اللهﷺ قد قتل جاسوساً من المشركين، وأفتى طائفة من الأئمة كمالك بن أنسرَحِمَهُ اللهُ، بإباحة دم المسلم إذا نقل شيئاً من أسرار شؤون الحرب إلى العدو. ص٣٩

٢٤_ الرفق بالجند ومعاملتهم بالعدل

_ لو تتبعنا سِيرَ القُوَّاد الذين أبلى الجنود تحت رايتهم بلاءاً حسناً، لوجدناهم القواد الذي يعاملون الجنود بالرفق والإحسان في دائرة الحزم. ص٤٠

_ وفي وصية أبي بكر الصديق ليزيد بن أبي سفيان: «وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم، وابدأهم بالخير، وعِدْهم إياه».

وقال لخالد بن الوليد حين أرسله إلى المرتدين: «يا خالد عليك بتقوى الله،

والرفق بمن معك». ص٤٠

ـ وجاء فيما عهد به عمر بن عبدالعزيز إلى منصور بن غالب، حين بعثه على قتال بعض المحاربين: «وأمرَه أن يرفق بمن معه في سفرهم ولا يجشِّمهم مسيراً يتعبهم، ويقصّر بهم عن منزل يرفِّه بهم حتى يلاقوا عدوهم، والسفرُ لم ينقص قوتهم». ص٤٠

٢٥ـ تَلَقِّيهم أوامرَ القائدِ بحسن الطاعة

ـ ذكرنا في وصف القائد أن يكون ذا رأي وشجاعة وإخلاص وحزم ورفق بالجند، ونقول هنا: إن الجيش الذي يحمي حمى الأمة، ويبني لها مجداً شامخ الذرى هو الجيش الذي يجمع إلى الشجاعة والمحافظة على آداب الشريعة استعدادَه لتلقي أوامر القائد الأمين بحسن الطاعة، وقد أشار النبيﷺ إلى هذا الأدب السامي في خطبة حجة الوداع، فقال: «يا أيها الناس اتقوا الله وإن أُمِّر عليكم عبد حبشيّ مجدّع فاسمعوا له، وأطيعوا ما أقام لكم كتاب الله». ص٤١

ـ ومن أعظم ما يساق شاهداً على حسن الطاعة قصة خالد بن الوليد؛ إذ عزله عمر بن الخطاب عن الإمارة العامة للجيش الفاتح للشام، ووسد الأمر إلى أبي عبيدة بن الجراح، ورأى خالد أنه إنما يجاهد في سبيل الله؛ فسلم الإمارة إلى أبي عبيدة راضياً، واستمر على القتال تحت راية أبي عبيدة بإخلاص. ص٤١

٢٦ـ تحامي الاختلاف المؤدي إلى الشقاق

ـ الشقاق يُبعد ما بين النفوس، ويذهب بروح التناصر، فيفعل بالجند ما لا يفعله به عدو شاكي السلاح، وقد حذر القرآن المجيد منه، فقال ـتعالىـ: ﴿وَلَا

تَنازَعُوا فَتَفْشَلوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ واصْبِروا إنَّ الله مَعَ الصَّابِرينَ﴾ الأنفال: ٤٦.

والآية تحذر من أن يقع تنازع بين أمراء الجيش، أو بين أفراده، أو بين الجيش وأمرائه، فإن ذلك كله مُوقع في فشل، وليس بعد الفشل إلا التقهقر، ثم ملاقاة ما يعقب هذا التقهقر من صغار واستعباد. ص٤٢

ـ ويتحامى الاختلاف الممقوت بالإغضاء عن الهفوات، ومقابلة كثير من المكروه بسعة الصدر، وطرح المسائل التي تكون منشأ الخلاف على بساط المحاورة في هدوء وسكينة، والدخول إلى بحثها من باب الإنصاف والقصد إلى معرفة وجه الصواب. ص٤٢

ـ وأبعدُ المجاهدين عن التنازع مَنْ جعلوا نُصْبَ أعينهم ومناط هممهم رفع لواء الحجة، وسلامة الأوطان؛ فهؤلاء هم الذين يسابقون إلى كل ما يحقق هذا الغرض المجيد، ويتحامون كل ما يمكن أن يكون عثرة في سبيله. ص٤٢

٢٧ـ التخلف عن الدفاع

ـ إنما ينهض الرجل للحرب دفاعاً عن قومه ووطنه ليسلم له دينه وعرضه، وليتمتع بحياة الكرامة؛ فتخلّفه عنها وهو يستطيع أن يشهدها دليل ضعف الإيمان وانحطاط الهمة، ومدعاة إلى تخاذل الأمة وانكسار شوكتها، لهذا كانت جنايته في نظر الشارع كبيرة، قال ـتعالىـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ التوبة: ٣٨.

وقال ـتعالىـ: ﴿وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا

يَفْقَهُونَ ﴾ التوبة: ٨١. ص٤٣

ـ والخروج إلى جهاد العدو تفرضه الشريعة الغراء على الرجل بعينه متى دعاه إلى الخروج ولي الأمر المسلم.

ومتى هجم العدو فجأة؛ ففي هذا الحال يجب على كل مستطيع أن ينضم إلى المدافعين، ولو لم تبلغه دعوة ولي الأمر. ص٤٣

٢٨ـ الفرار من صفوف القتال

ـ الفرار من صفوف القتال كبير المفسدة، وَخِيْم العاقبة، ذلك أن الفار قد يكون كاللبنة تسقط من أسفل الجدار، فيتداعى لسقوطها الجدار كله، لهذا عد الشارع الحكيم الفرار من الزحف من أكبر الجنايات. ص٤٤

ـ نهى الله المقاتلين من المؤمنين أن يولوا العدو ظهورهم، وقال: ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ الأنفال: ١٦. ص٤٤

ـ وفي الفرار من وجه العدو عار يجعل الحياة بغيضة، قال يزيد بن المهلب: والله إني لأبغض الحياة بعد الهزيمة! ص٤٤

٢٩ـ الوفاء بتأمين المحارب

ـ إذا أعطى أحد الجند الأمان لأحد المحاربين، وجب احترام هذا التأمين، ولا يجوز لأحد أن يتعرض لذلك المحارب بأذى.

وإلى هذا يشير قوله ـ صلوات الله عليه ـ: «ويسعى بذمتهم أدناهم».

وقد أمضى النبي ﷺ تأمين أم هانئ بنت أبي طالب لرجل من المشركين، وقال

لها: «قد أجرنا من أمنت يا أم هانئ».

ـ وحدث في عهد عمر بن الخطاب أن عبداً أَمَّن أهل بلد بالعراق، فكتب قائد الجيش وهو أبو عبيدة إلى عمر يأخذ رأيه في هذا التأمين، فكتب إليه عمر «إن الله عظّم الوفاء، فلا تكونون أوفياء حتى تفوا؛ فوفوا لهم وانصرفوا عنهم». ص٤٥

ـ ومن المعقول أن يكون لقائد الجيش رأي في تأمين غيره لأهل بلد تأميناً يقتضي الانصراف عنهم، فإذا رأى أن مثل هذا التأمين قد يأتي بضرر فله أن يبطله، ويجري على ما يتراءى له من المصلحة.

وذهب بعض الفقهاء وهو عبدالملك بن الماجشون إلى أن تأمين أحد الجنود لبعض المحاربين ينظر فيه القائد الأعلى، فإن لم ير في إمضائه ضرراً أمضاه، وإلا رده. ص٤٥

٣٠ـ مجاملة رسل العدو وعدم التعرض لهم بأذى

ـ رسول العدو قد يأتي في شأن الصلح أو غيره مما فيه تخفيف شر الحرب، فمن حسن الرأي أن لا يتعرض للرسل بأذى، وأن يكونوا في أمن حتى يعودوا إلى قومهم؛ فإن التعرض لهم بأذى يقطع صلة الرسالة بين الفريقين، ويسد طريق المفاوضات التي يُتَوسَّل بها إلى عدم الدخول في الحرب، أو إنهائها إذا كانت ناشبة.

ومكارم الأخلاق تأبى أن يُتَعَرَّض لرسول بأذى ولو أرسله قومه لإبلاغ ما عزموا عليه من محاربتنا، أو صدر منه كلام في تعظيم أمر قومه بقصد الفخر أو

الإرهاب. ص٤٦

ـ وقد جرى نظام الإسلام في الحرب على هذا الأدب المقبول.

قدم أبو رافع بكتاب من قريش إلى رسول اللهﷺ فلما رأى رسول الله أُلقِيَ في قلبه الإسلام، فقال: يا رسول الله: إني والله لا أرجع إليهم أبداً، فقال رسول اللهﷺ: «أما أني لا أخيس بالعهد، ولا أحبسُ البُرُدَ، ولكن ارجع فإن كان في قلبك الذي في قلبك الآن، فارجع» قال: فرجعت، ثم أقبلت إلى رسول اللهﷺ، وأسلمت. ص٤٦

٣١ـ تجنب قتل من لا يقاتل

ـ يُحَرِّم الإسلام قتل نساء المحاربين وصبيانهم والطاعنين في السن منهم ورهبانهم إن لم يحاربوا.

روى عبدالله بن عمر أن رسول اللهﷺ نهى عن قتل النساء والصبيان.

وروى ابن عباس أنه ـعليه الصلاة والسلامـ كان إذا بعث جيوشاً، قال: «لا تقتلوا أصحاب الصوامع» يعني الرهبان.

وقال أبو بكر الصديق في وصيته لجيش أسامة: «وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له».

وقال: «ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة» .ص٤٧

ـ ومن وصايا عمر بن الخطاب لأمراء الجيش: «ولا تقتلوا هرِماً، ولا امرأة، ولا وليداً، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان، وعند شن الغارات» .ص٤٧

ـ ويلحق بهؤلاء في تجنب قتلهم المريض والمقعد والأعمى والمجنون.

وكذلك روي عن النبيﷺ النهي عن قتل العسيف، وهو الأجير، وبهذا يظهر أن الإسلام إنما يقصد من الحرب دفاع من يقصدون لأن يقاتلوا، ولا يصح القصد لقتل من ليس شأنه القتال. ص٤٧

٣٢ـ معاملة الأسرى

ـ إذا وقعت طائفة من العدو المحارب في أسرنا لم يجز لأحد من الجنود أو غيرهم أن يمسهم بأذى، وإنما يرجع أمرهم إلى رأي ولي الأمر الواسع الخبرة بوجوه المصالح، فيعاملهم بما تقتضيه خطة الحزم، وما تمليه سماحة الأخلاق.ص٤٨

ـ وذهب من علماء السلف الحسن البصري وعطاء بن أبي رباح إلى أن ولي الأمر يخير في الأسرى بين أن يطلقهم على وجه المن، أو يطلقهم بفداء، وتمسكوا في هذا بقوله: ﴿ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ محمد: ٤. ص٤٨

٣٣ـ الدفاع في البحر

ـ لم يدخل المسلمون في قتال بحريّ إلى عهد عثمان بن عفانرضي الله عنه ، وكان أول من ركب البحر فاتحاً معاوية بن أبي سفيان.

وقد أخبر النبيﷺ في حياته بما يقوم به المسلمون من فتوح على طريق البحر؛ نام رسول اللهﷺ في بيت أم حرام بنت ملحان وهي تحت عبادة بنت الصامت، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «ناس من أمتي عرضوا عليّ غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر، ملوك

على الأَسِرَّة، أو مثل الملوك على الأسِرَّة».

فقلت يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها، ثم وضع رأسه فنام، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله» نحو ما قال في الأول، قالت: فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم! قال: «أنت في الأولين».ص٥٠

_ وقد أجاب الله دعاء النبيﷺ لها، وعلم أن دعاءه قد استجيب، فقال لها: أنت في الأولين، وركبت أم حرام البحر مع زوجها عبادة بن الصامت في زمن معاوية لفتح «قبرص» ولما خرجوا من البحر صُرِعت عن دابتها وتوفيت هناك. وقيل صرعت بعد عودتها إلى الشام.

_ وفي قولهﷺ«ملوك على الأسرة» مبالغة في فضل المحاربين في البحر، وترغيب في صرف الهمة إلى المهارة في ركوبه، وإنشاء أساطيل تكف أيدي الأعداء الممتدة من وراء البحار.ص٥٠ _٥١

_ وأنشأ أمراء الإسلام من بعدُ أساطيل، واتخذوا لها مصانع، كما اتخذ حسان بن النعمان عامل أفريقية بإيعاز من عبدالملك بن مروان دار صناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية، وبلغ أسطول الأندلس أيام عبدالرحمن الناصر نحو مائتي مركب. ص٥١

٣٤_ عقد الصلح

_ قد يقتضي الحال عقد صلح بيننا وبين العدو، وقد استحب الشارع الحكيم عدم رفض الصلح متى رغب فيه المحاربون، فقال _تعالى_: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ

فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ الأنفال: ٦١.ص٥٢

ـ وكان النبيﷺ عقد بينه وبين كفار قريش صلحاً أتى بخير كثير، وهو صلح الحديبية.

ـ وشروط الصلح تختلف باختلاف قوة الأمة وضعفها، ومِلاَكُها أن يكون في عقد الصلح مصلحةٌ عامة، وأن لا يكون من بين الشروط إباحة ما تحرمه الشريعة.ص٥٢

ـ والذي نريد التنبيه له في هذا الفصل أن الصلح الذي يلقي بالأمة في خزي، ويجعل بطن الأرض خيراً لها من ظهرها هو الصلح الذي يبعثها على السعي إليه أو على قبوله حبُّ الحياة، وكراهة الموت؛ فتحتمل مهانته وهي تستطيع دفعه بالرجال والسلاح، قال ـتعالىـ: ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ محمد: ٣٥.

وهذا شاعر عربي يأبى لقبيلته أن تتقبل صلحاً إلا أن يكون لها السلطان في وطنها، وتبقى منابرها التي هي مصادر الأمر والنهي في قبضتها، فقال:

ولا صلحَ ما دامت منابرُ أرضِنا يقومُ عليها من ثقيفَ خطيبُ

ص٥٣

٣٥ـ تخليص الأسرى من أيدي العدو

ـ يقع الفرد أو الطائفة في أسر العدو، ولا يعد هذا وحده دليل الجبن أو التقصير في الدفاع حتى يجر إلى صاحبه عاراً، أو يسيغ لمن بيدهم الأمر أن يصرفوا عنه أنظارهم، ويتركوه في أيدي العدو، يلاقي المهانة أو سوء

العذاب.ص٥٤

ـ فمن واجبات الدولة أو الأمة تخليص من يقع في أسر بالوسائل المستطاعة من مال أو غيره، وقد أرشد النبيﷺ إلى هذا الواجب بقوله ﷺ: «فكّوا العاني ـالأسيرـ وأطعموا الجائع، وعودوا المريض». ص٥٥

٣٦ـ تقدير البطولة

ـ البطل يقف المواقف الخطيرة، ويجود بحياته في دفاع العدو؛ لتعلو كلمة الحق، وتحيا الأمة حياة الكرامة؛ فهو جدير بأن يلاقي من الأمة التبجيل والتكريم.

وشعور البطل بأنه يعمل لخير أمة تقدر رجالها حق قدرهم مما يزيد إقباله وثباته على الدفاع قوة، وإذا شعر غيرُه بهذا التقدير فقد يقوى حرصه على أن يسلك سبيله، ويبذل كل ما يعز عليه.ص٥٦

ـ ولتكريم الأبطال مظاهر: منها الاحتفال بتوديعهم عند الخروج للحرب، كما خرج الخليفة أبو بكر الصديقرضي الله عنه يشيع أسامة بن زيد والجيش المسافر معه إلى الشام، وكان أبو بكر ماشياً على قدميه، وأسامة راكباً راحلته.

وخرج عمر بن الخطابرضي الله عنه يشيع سعد بن أبي وقاص والجيش المسافر إلى فتح فارس، حتى بلغ موضعاً يقال له الأعوص، وهناك خطب فيهم خطبة أوصاهم فيها بالعدل والرحمة، إلى نحو هذا، وعاد إلى المدينة.ص٥٦ـ٥٧

ـ وكان اليوم الذي خرج فيه أسد بن الفرات[1] من القيروان لفتح صقلية يوماً

١ـ توفي أسد في حصار سرقوسه شهيداً وهو أمير الجيش وقاضيه سنة ٢١٣هـ.

مشهوداً.ص٥٧

ـ ويضاهي هذا استقبالهم، والاحتفاء بهم عند إيابهم من حرب أبلوا فيها بلاءاً حسناً.ص٥٧

ـ ومن مظاهر تقدير الأبطال المخلصين عنايةُ ولي الأمر بأن يكون عيشهم في رخاء، وأن يكونوا في أمن على إصلاح شأن أطفالهم إذا استشهدوا.

جمع رسول الله ﷺ لسلمة بن الأكوع في بعض مغازيه بين سهم الراجل والفارس، فأعطاه خمسة أسهم لعظم غنائه[1] في تلك الغزوة، وزاد عمر بن الخطاب في عطاء فتاة من بيت المال، وقال «إن أباها فتح حصناً».ص٥٧

ـ ومن وجوه تقدير الأبطال صوغ عبارات الشكر والثناء عليهم في نظم أو نثر، وفي الأدب العربي قسم عظيم في الثناء على الأبطال والتنويه بذكر مقاماتهم المجيدة، قال أبو تمام:

كم بين قوم إنما نفقاتهم مالٌ وقومٌ ينفقون نفوسا

ص٥٧

ـ وبطولة الرجل تطلق الألسنة بتمجيده، حتى ألسنة خصومه الذين تجرعوا من شدة بأسه مرارة.

خرج يزيد بن المهلب على يزيد بن عبدالملك، فوجه لقتاله أخاه مسلمة بن عبدالملك، وثبت يزيد بن المهلب في قتاله، وأبى أن يفر وقد تسلل عنه أعوانه، حتى قتل، وأراد أحد جلساء يزيد بن عبدالملك أن ينال من المهلب، ويحط من

١ـ لعلها: عنائه.

شأنه، فقال له يزيد بن عبدالملك: «إن يزيد طلب جسيماً، وركب عظيماً، ومات كريماً» .٥٧_٥٨

ـ ومن تقدير البطولة الإغضاء عن أخطاء تصدر من البطل وهو يحارب العدو بعزم صميم، وعدم مناقشته الحساب على مآخذ قد يشفع له فيها إخلاصه، والإخلاص القائم بجانب البطولة شفيع أي شفيع!

بعث النبيﷺ خالد بن الوليد لدعوة بني جذيمة إلى الإسلام، فسبقت يد خالد على قتل رجال منهم باعتقاد أنهم يستحقون القتل، وبلغ ذلك النبيﷺ، فأنكر ما فعل خالد، وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد» وأرسل إلى بني جذيمة مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ديات من قتلوا، وأعطاهم قيم ما أصيب من أموالهم، وزادهم على ما استحقوا من الديات وقيم الأموال، ولم يعزل خالداً عن قيادة الجيش. ص٥٨

سابعاً : نقولات مختارة من كتاب :

عادات عربية تأليف محمد المكي بن الحسين

«تعريف بالمؤلف» :

هو العلامة اللغوي محمد المكي بن الحسين علم من أعلام الأدب واللغة ونادرة من نوادر اللغويين في زمانه ، قل أن يوجد مثيل له في فكره الغواص في بحر العربية ، يفتش في أعماقه عن أجمل ما في التراث العربي ، ويبحث بجلد وصبر عن مكنوناته ، فيصقلها صقل البارع في المهنة ، السباق في ميدانها ، ويضمها عقوداً متناسقة ، في بحوث لها روعتها وجمالها.

ومع بالغ الأسف أن مثل هؤلاء الأعلام من أرباب الفكر الصافي ، والأدب الأصيل يكون نصيبهم النسيان ، والإهمال.

ولقد قيض الله لهذا العلم من يحرص على نشر علمه ، والتعريف به ، ألا وهو ابن أخيه : الأستاذ علي الرضا الحسيني.

وهذه نبذة يسيرة عن صاحبنا بقلم الأستاذ علي الرضا _ حفظه الله _ يقول فيها :

«ولد محمد المكي بن الحسين بن علي بن عمر في مدينة نفطة بالجنوب التونسي في شهر ربيع الأول ١٣٠١هـ ، ونشأ في دوحة أصيلة وعريقة في العلم والفضل والأدب ، ويزينها من فوق ذلك شرف الانتساب إلى آل البيت الأطهار.

خاله العلامة محمد المكي بن عزوز ، وإخوته الإمام محمد الخضر حسين وزين العابدين بن الحسين ، والجنيدي ، وجميعهم كانوا من أفاضل العلماء المنصرفين

إلى خدمة الإسلام وإعلاء رايته ونشر الدعوة المختارة أينما رحلوا وحيثما حلوا.

انتقل إلى مدينة تونس مع عائلته سنة ١٣٠٦هـ وأخذ في حفظ القرآن الكريم وتلقى مبادئ العلوم الشرعية عن والدته البارة السيدة حليمة السعدية بنت الصالح التقي مصطفى بن عزوز.

ثم التحق في الجامع الأعظم ـ جامع الزيتونة ـ وحصل على شهادة التطويع.

ومن شيوخه شقيقه الإمام محمد الخضر حسين، والشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، وعلي الشنوفي، وأحمد جعيط وغيرهم.

رافق أسرته في هجرتها إلى الشرق سنة ١٣٣٠هـ بعد أن ضيق الباغي الفرنسي الخناق على أخيه الإمام محمد الخضر الذي لاحقه حكم بالإعدام؛ لنضاله ودعوته إلى الاستقلال والحرية.

واستقر في مدينة دمشق منصرفاً فيها إلى التدريس في مدارسها الأهلية والرسمية معلماً للغة العربية وآدابها.

والتقى بأعلام دمشق ومنهم خير الدين الزركلي، ومحمد بهجة البيطار، وسليم الجندي، والشيخ عبدالقادر المغربي، ومحمد المبارك الجزائري، ومحمد كرد علي.

بعد ما يقارب ثماني سنوات عاوده الحنين إلى تونس فرجع إليها سنة ١٣٣٨هـ ـ١٩٢٠م متفرغاً للمطالعة والتحقيق، واشتهرت لغوياته في مختلف الصحف والمجلات التونسية إلى جانب أحاديثه اللغوية والمستمرة من إذاعة تونس.

لم يتزوج طيلة حياته، وكانت أوراقه وأقلامه هي رفيق عمره الزاخر بالإنتاج والعطاء حتى وفاته في مدينة تونس يوم **٢٠** شعبان **١٣٨٢**هـ الموافق **٢٦** كانون الثاني ١٩٦٣م.

وقد ترك آثاراً قيمة جمعتها وحققتها في عدة مؤلفات وهي: عادات عربية، نوادر في اللغة، نوادر في الأدب، أسماء لغوية، حكم وأخلاق عربية، أمثال عربية، كلمات للاستعمال.

وضعت عنه كتابي (محمد المكي بن الحسين _ حياته وشعره) ضممت فيه الشعر الذي نظمه في حياته وتوصلت إليه بالبحث، كما تناولت حياته المباركة بالقليل مما اتصلت به من أخباره.

ولعل الأبيات التي قالها الإمام محمد الخضر حسين في أخيه محمد المكي، وأشار فيها إلى فطنته وفراسته، وأدبه الجم ولا سيما خجله _ خيرُ ترجمةٍ لأخلاقه.

يقول الإمام محمد الخضر حسين من ديوانه **(خواطر الحياة)**:

دعتني إلى وده فطنةٌ ... يجيد بها إن سألت الجوابا

وما بين بُرديه إلا أخٌ ... يؤانسني إن فقدت الصحابا

أروم عليه عتاباً وكم ... تفرسَّ ما رمته فأصابا

يهبُّ على وجهه خجلٌ ... فيصفو ضميري وأنسى العتابا

رحمهما الله، وأجزل إليهما الثواب، والحمد لله رب العالمين».

«**تعريف بالكتاب**»: كتاب «عادات عربية» ينبئ عن نفسه؛ فهو يتكلم عن عادات العرب في شتى شؤونهم وأحوالهم سواء في حربهم، أو سلمهم، أو

أفراحهم، أو أتراحهم، أو غير ذلك.

ولا ريب أن البحث في هذا الباب طريف لطيف، وأنه يحتاج إلى تحرٍّ ودقة، واستقصاء، وغوص.

وقد اعتنى بهذا الكتاب الأستاذ علي الرضا الحسيني ابن أخي المؤلف، وطبع في الدار الحسينية ١٤١٥هـ ـ١٩٩٥م وجاء في ١٥٩ صفحة.

أما العادات التي تضمنها هذا الكتاب فهي كما يلي:

- عادات شعراء العرب.
- عادات العرب في الأموات والقتلى.
- ميز شجعان العرب بعلامات في الحرب.
- التصافن.
- عناية العرب بالضيف.
- عادات عربية خاصة بالأعراس.
- تنكيل العرب الجاهلية بالجناة.
- عناية السلف باللغة العربية وكتبها.
- أرخى عمامته.
- أبو الأضياف.
- تخيلات الأمة العربية في أطوار الجاهلية.
- عادات ملوك العرب في الجاهلية والإسلام.
- عادات نساء العرب في الأعصر الجاهلية.

- عادات العرب في الخيل.
- عادات العرب في الإبل.
- عادات العرب في الحروب والغزوات.
- عادات عربية خاصة بالأعراس.
- مجالس العرب في الجاهلية والإسلام.
- المثل والصيصة أو عادات عربية.
- قرع السن كناية عن الندم.
- عادة عربية.
- الأضياف والضيافة.
- عادات العرب بأمر الأضياف.
- عادات عربية.

ـ «**النقولات المنتقاة**» : قال العلامة محمد المكي بن الحسين رحمه الله :

١ـ عادات شعراء العرب

ـ كان شعراء العرب يمتازون عن سائر الناس بعادات، وقد مر بي في أثناء مطالعة كتب الأدب شيء منها فأفردته في هذا المقال :

ـ ومن عاداتهم في الجاهلية أن الواحد منهم إذا أراد الهجاء دهن أحد شقي رأسه، وأرخى إزاره، وانتعل نعلاً واحدة. ص٩

ـ وكانوا لا يتكسبون بالشعر، وإنما يضع أحدهم ما يضعه فكاهة، أو مكافأة عن يدٍ لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر، حتى نشأ النابغة الذبياني، فمدح الملوك وقبل الصلة على الشعر.ص٩

ـ ومن عاداتهم عرض أشعارهم على قريش، والاعتماد على حكمهم فيه بالرد، أو القبول.ص١٠

ـ ومن عاداتهم المساجلة، وهي أن يتساجل الشاعران، فيضع هذا قسيماً، وهذا قسيماً؛ لينظر أيهما ينقطع قبل صاحبه، وأكثر ما تكون بأنصاف الأبيات.ص١٠

ـ وكان كثير منهم يعملون القصيدة، ولا يظهرونها للناس حتى ينظروا فيها، ويهذبوها، ومن هؤلاء زهير الذي كان يعمل القصيدة، ولا يظهرها إلا بعد حول، وتسمى قصائده الحوليات.ص١٠

ـ وكانوا إذا اجتمعوا يستنشد بعضهم بعضاً ما قاله من الشعر، وهذا معروف عنهم، حدَّث دعبل أنه اجتمع هو ومسلم بن الوليد وأبو الشيص، فقال لهم

أبو نواس : إن مجلسنا هذا قد اشتهر باجتماعنا فيه ، ولهذا اليوم ما بعده ، فليأت كل امرئ منكم بأحسن ما قال فلينشد.ص١١

ـ وكان بعضهم يرى أخذ الصلة ممن دون الملوك عاراً، فضلاً عن العامة وأطراف الناس ، قال ذو الرمة يفتخر بأنه لا يكسب المال إلا من صلات الأمير الأعلى :

عطايا أمير المؤمنين ولم تكن مقسمةً من هؤلا وأولئك

ص١١

ـ وكانوا يتعرضون بالشعر لحاجاتهم ، ويستشفعون بتقديم الأبيات بين طلباتهم. ص١١

ـ وكان بعضهم يقول الشعر وهو يجود بنفسه.ص١١

٢ ـ عادات العرب في الأموات والقتلى

ـ ومن عادات العرب في الأموات ما جاء في الصحاح : «عن الأصمعي ، قال : كانت العرب إذا مات منها ميت له قَدْرٌ ركب راكب فرساً ، وجعل يسير في الناس ، ويقول نعاءِ فلاناً ، أي انْعَهْ ، وأظهر خبر وفاته ، وهي مبنية على الكسر مثل دراكِ ونزالِ بمعنى أدرك وأنزل» .ص١٢

ـ وفي (النهاية) لابن الأثير ، قال : «كانوا إذا مات منهم شريف أو قتل بعثوا راكباً إلى القبائل ينعاه إليهم» .ص١٢

ـ وكانوا في الجاهلية يغسلون موتاهم ، ويصلون عليهم ، وطريق صلاتهم أن يحمل الميت على سريره ، ويقوم وليه ، ويذكر محاسنه ويثني عليه ، ويقول:

عليك رحمة الله وبركاته.ص١٢

ـ وكانوا يسودون باب الميت، ففي اللسان : «والتجوُّنُ : تسويد باب الميت» .ص١٣

ـ وكانوا يحملون الموتى من ساداتهم وكبرائهم في تابوت عظيم ويسمى إراناً، قال طرفة يصف ناقة، والبيت من معلقته :

أمونٍ كألواح الإرانِ نَسَأْتُها على لاحب كأنه ظهر بُرْجَدِ

قال الخطيب التبريزي : «الإران : تابوت كانوا يحملون فيه ساداتهم وكبراءهم دون غيرهم» .ص١٣

ـ ومن عاداتهم إذا قَتَل الرجل منهم رجلاً مشهوراً وضع سيفه عليه؛ ليعرف قاتله، قال متمم بن نويرة في أخيه مالك :

لقد كَفَّن المنهال تحت ردائه فتى غير مبطان العشيات أروعا

وكان المنهال قتل مالكاً، والرداء : السيف.ص١٣

ـ وكانوا يغطون الميت قبل دفنه، بثوب أخضر، إلا أن هذه العادة لم أقف بعدُ على ما يثبت وجودها عندهم في الأعصر الجاهلية، والأظهر : أنها حدثت فيهم بعد الإسلام، قال الأصبهاني في المحاضرات : «قال أبو عمرو الشيباني : رأيت بالبصرة جنازة عليها مطرف خز أخضر، فسألت عنها، فقيل جنازة الطرماح فذكرت قوله :

فيا رب إن حانت وفاتي فلا تكن على شَرْجَعٍ يُعلى بخضر المطارف

ص١٣.

ـ وكانوا يضجعون الميت في قبره ، ويوسدونه إحدى يديه ، دل على ذلك كثير من أشعارهم ، قال أبو ذؤيب الهذلي يذكر قبره :

قضوا ما قضوا من رمِّها ثم أقبلوا   إليَّ بطاءَ المشي غُبْرَ السواعد

فكنت ذنوب البئر حين تبسلت   وسُرْبلت أكفاني وَوُسِّدت ساعدي

ص١٣.

ـ وكانوا يعقرون الإبل على قبور الموتى ، أي ينحرونها ، ويقولون : إن صاحب القبر كان يعقر للأضياف أيام حياته؛ فنكافئه بمثل صنيعه بعد وفاته.ص١٤

ـ وكانت المرأة في الجاهلية إذا مات عنها زوجها اعتدت عليه سنة لا تخرج من بيتها ، فإذا تم الحول ، فمر كلب رمته ببعرة ، ثم خرجت من بيتها ، ذكر هذا المفضل ابن سلمة في كتاب (الفاخر) وقال : وقد ذكرت الشعراء هذه الإقامة ، فمن ذلك قول لبيد :

وَهُمُ ربيعٌ للمجاور فيهم   والمُرْملات إذا تطاول عامها

ص١٧

ـ وكان ذوات المصائب من نسائهم ، إذا قمن في المناحات يضربن وجوههن وصدورهن بالنعال ، قال :

وقام بناتي بالنعال حواسراً   وألصقن وقع السَّبْتِ تحت الفلائد

ص١٨

ـ وكانت المرأة منهم إذا ناحت قائمة على زوجها عُلِم أنها لا تريد أن تتزوج بعده.ص٢٠

ـ وكانوا يزعمون أن المقتول إذا ثأروا به أضاء قبره ، فإن أهدر دمه ، أو قبلت

ديته يبقى قبره مظلماً، ذكر هذا الخطيب التبريزي في تفسير قول كبشة أخت عمرو بن معد كرب ـ **(من شعراء الحماسة)**:

وأرسل عبد الله إذ حان يومه إلى قومه لا تعقلوا لهم دمي

ولا تأخذوا منهم أبلاً وأبكراً وأُتْرَكَ في بيت بصعدة مظلم

ص٢٠

ـ ومن مزاعمهم في المقتول: أن الإنسان إذا قتل من غير أن يطلب بثأره خرج من رأسه طائر كالبومة وهي الهامة، والذكر الصدى، فيأخذ يصيح على قبره، ويقول: اسقوني، اسقوني، قال إبراهيم بن هرمة:

فكيف وقد صاروا عظاماً وأقبراً يصيح صداها بالعشيِّ وهامُها

تفانوا ولم يبقوا وكل قبيلة سريع إلى ورد الفناء كرامها

وقال بعضهم:

ولا تزْقَونْ ليْ هامة فوق مرقب فإن زقاء الهام للمرء عاتب[1]

تنادي ألا اسقوني وكل صدىً به وتلك التي تبيضُّ منها الذوائب

وقال ذو الأصبع العدواني:

يا عمرو إن لا تَدَعْ شتمي ومنقصتي أضربْك حيث تقول الهامة اسقوني

ص٢١

٣ ـ ميز شجعان العرب بعلامات في الحرب

ـ كان شجعان العرب يُعْلِمون أنفسهم بعلامات يعرفون بها في الحرب، وإلى

١ـ الزقاء: الصياح.

ذلك يشير عمرو بن كلثوم في قوله :

على آثارنا بيضٌ كرامٌ نحاذرُ أنْ تفارقَ أو تهونا
أخذنَ على بعولتهنَّ عهداً إذا لاقوا فوارسَ مُعْلِمينا
لَيَسْتَلِبُنَّ أبداناً وبيضاً وأسرى في الحديد مقرنينا

وقال عنترة ـ والبيت من معلقته ـ :

ومِشَكِّ سابغةٍ هتكت فروجها بالسيف عن حامي الحقيقة مُعْلِم

قال الزوزني في شرحه للمعلقات :

المعلم بكسر اللام : الذي أعلم نفسه ، أي شهرها بعلامة يعرف بها في الحرب حتى ينتدب الأبطال لبرازه ، والمُعْلَم بفتح اللام : الذي يشار إليه ، ويُدَلُّ عليه بأنه فارس الكتيبة ، وواحد السرية.اهـ.ص٢٢

٤ ـ عناية العرب بالضيف

ـ جاء في البيان والتبيين للجاحظ ما يأتي :

إن العرب تجعل الحديث والبسط والتأنيس والتلقي بالبشر من حقوق القِرى ، ومن تمام الإكرام ، وقالوا : تمام الضيافة : الطلاقة عند أول وهلة ، وإطالة الحديث عند المؤاكلة ، قال :

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ويخصب عندي والمحل جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب

ولذلك قال عمرو بن الأهتم :

فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً فهذا مبيت صالح وصديق

وجاء في كتاب غرر الخصائص الواضحة للعلامة برهان الدين الوطواط، ما نصه:

ومن المفاخر التي لا نزاع فيها ولا خلاف، بسط الوجه، وبذل القِرى للأضياف.اهـ.ص٣٥

٥ ـ تنكيل العرب في الجاهلية بالجناة

ـ كانت العرب إذا غدر منهم غادر يوقدون له بالموسم ناراً، و ينادون عليه، يقولون: ألا إن فلاناً غدر؛ ولذلك قال الغادرة الغطفاني:

أَسُمَيُّ ويحكِ هل سمعتِ بغدرة رُفِع اللواءُ لنا بها في المجمع

ص٤١

ـ وكان الرجل في الجاهلية إذا غدر وأخفر الذمة جُعِل له تمثال من طين، ونصب، وقيل: ألا إن فلاناً غدر فالعنوه، كما قال عبد الله بن جعدة:

فلنقتلن بخالد سرواتكم ولنجعلن لظالم تمثالاً

يعني خالدَ بنَ جعفرٍ، وقَتْلَ الحارث بن ظالم له.اهـ.ص٤١

ـ وكانوا يتركون الرمح في المطعون ليكون أعنت له، قال عنترة:

وغادرنَ نضلةَ في مَعْرَكٍ يجر الأسنة كالمحتطب

ص٤٢

ـ وكانوا يقيدون الأسير بسير من جلد، قال أبو دهبل الجمحي يمدح الأزرق المخزومي:

ما زلت في العفو للذنوب وإط ـلاق لعانٍ بجرمه غلقِ

حتى تمنى البراةُ أنهم عندك أسرى في القدِّ والحلق

ص٤٣

ـ وكانوا يحلقون رؤوس الأسرى، قال نافع بن خليفة الغنوي يخاطب بني نمير:

وإن تحلقوا منا الرؤوس فإننا حَلَقْنا رؤوساً باللحى والغلاصم

الغلاصم: جمع الغلصمة وهي رأس الحلقوم، وهو الموضع الناتئ في الحلق، وحَلَقْنا: يريد أزلنا بالسيوف.ص٤٣

ـ وكانت العرب تجز نواصي الأسرى من الفرسان إذا رامت أن تخلي سبيلها، وتمن عليها، ولو كف العربي عن جز ناصيته لوسمه الأسير من الشعر والقوافي الخالدات البواقي التي هي أبقى من الميسم بما هو أضر عليه من جز ناصيته، ولعله لا يبلغ أهله حتى يستوي مع سائر شعر رأسه، ولكن ذل الجز لا يزال يلوح في وجهه، ولا يزال له أثر في قلبه.ص٤٣

ـ وكانوا إذا أسروا الشاعر أخذوا عليه المواثيق، وربما شدوا لسانه بِنِسْعة كما صنعوا بعبد يغوث بن وقاص المحاربي، حين أسرته بني تميم يوم الكلاب، وهو الذي يقول:

أقول وقد شدوا لساني بِنِسعة أمعشر تيم أطلقوا من لسانيا

وتضحك مني شيخةٌ عبشمية كأن لم تر قبلي أسيراً يمانيا

ص٤٤

ـ وجاء في أمالي أبي علي القالي ما نصه:

قوله: «وقد شدوا لساني بنسعة» قال: هذا مثل، لأن اللسان لا يشد بنسعة،

وإنما أراد: افعلوا بي خيراً ينطلق لساني بشكركم، فإن لم تفعلوا فلساني مشدود لا يقدر على مدحكم.ص٤٥

٦ ـ عناية السلف باللغة العربية وكتبها

ـ كان أبو عمرو بن العلاء إماماً في القراءات والنحو واللغة، أخذ عن جماعة من التابعين، وكانت دفاتره ملء بيته إلى السقف، مات سنة أربع وقيل تسع وخمسين ومائة.ص٤٦

ـ وكان للأصمعي يد غراء في اللغة لا يُعْرف فيها مثله.

وكان كثير التطوف بالبوادي لاقتباس علومها، وتلقي أخبارها، قد استولى على الغايات في حفظ اللغات، وضبط العلوم الأدبيات.

وقد أعانه على تبحره في العلم خزانة كتبه الواسعة التي تحدث عنها بقوله: لما خرجنا مع الرشيد إلى الرقة قال لي: هل حملت معك شيئاً من كتبك؟ فقلت نعم حملت منها ما خف حمله، فقال: كم؟ فقلت ثمانية عشر صندوقاً، فقال: هذا لما خففت، فلو ثقلت كم كنت تحمل؟فقلت أضعافها، فجعل يعجب. ص٤٦

ـ وهذا أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب أو إمام الكوفيين في النحو واللغة في زمانه كان يقول: مات الكرخي معروف سنة مائتين، وفيها ولدت وطلبت العربية سنة ست عشرة ومائتين، وابتدأت بالنظر في حدود الفرّاء ولي ثمان عشرة سنة، وبلغت خمساً وعشرين سنة وما بقي للفرّاء عليّ مسألة إلا وأنا أحفظها، وأضبط موضعها من الكتاب، ولم يبق من كتب الفرّاء في هذا الوقت شيء إلا وأنا قد حفظته، ومات سنة إحدى وتسعين ومائتين ودفن بمقبرة باب

الشام ببغداد.ص٤٧ _ ٤٨

_ وكان أبو الطيب أحمد بن الحسين المعروف بالمتنبي من المكثرين من نقل اللغة، والمطلعين على غريبها وحواشيها، ولا يسأل عن شي إلا واستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر.

وكان إذا سافر لم يخلف في منزله درهماً ولا شيئاً يساويه، وكان أكثر إشفاقه على دفاتره؛ لأنه كان قد انتخبها، وأحكمها قراءة وتصحيحاً.ص٤٨

_ وهذا العلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي صاحب القاموس المحيط في اللغة كان يقول: ما كنت أنام حتى أحفظ مائتي سطر، ولا يسافر إلا وصحبته عدة أحمال من الكتب، ويخرج أكثرها في كل منزلة، ينظر فيها، ويعيدها إذا رحل.

مات سنة ست عشرة وثمانمائة.ص٥٢

٧ _ أرخى عمامته

_ قولهم في الآمن المطمئن: أرخى عمامته أي أمن واطمأن؛ لأنه لا ترخى العمائم في الشدة.

وقال جرير يخاطب عتبة بن مسعود ﵁ وكان ذا منزلة من عمر بن عبد العزيز:

يا أيها القارئ المرخي عمامته هذا زمانك إني قد مضى زمني

أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه أني لدى الباب كالمشدود في قرن

لا تنس حاجتنا لا قيت مغفرة قد طال مكثيَ عن أهلي وعن وطني

ص٥٣

٨ _ أبو الأضياف

_ من الكنى بالأب قولهم: أبو الأضياف للمطعام، والعرب تقول لكل من قام بشيء وتكفل به: هو أبو كذا، وكذا، وربما قالوا: أم كذا، وربما قالوا: ابن كذا.

قال العجير السلولي، من شعراء الحماسة، يرثي ابن عمه جالب بن يزيد:

تركنا أبا الأضياف في ليلة الصَّبا بمَرو ومرْدي كلِّ خصمٍ يجادله

ص٥٥

_ وجاء في كتاب الآداب الشرعية للإمام ابن مفلح ج٣ : **٢١٢** ما نصه: ويستحب لصاحب الطعام أن يباسط الإخوان بالحديث الطيب والحكايات التي تليق بالحال إذا كانوا منقبضين.ص٥٦

٩ _ تخيلات الأمة العربية في أطوار الجاهلية

_ كثيراً ما تتوق النفوس إلى الاطلاع على ما كان للأمة العربية من التخيلات والرموز والمعتقدات في أطوار الجاهلية. ولقد جمعت منه ما انتقيته مما أوقفني عليه البحث:

_ **حذف السن نحو الشمس:** فمن تخيلات الأمة العربية أن الغلام إذا سقطت سِنُّه، فحذفها نحو عين الشمس، وقال: أبدلني بها أحسن منها عادت، قال طرفة:

أبدلته الشمس من منبتها برداً أبيضَ مصقولَ الأشر

أشر الأسنان: التحريز الذي فيها، يكون خلقة ومستعملاً، والجمع أشور.ص٥٧

_ **الاهتداء إلى الطريق:** ومنها أن المسافر إذا ضل في مفازة، قلب ثيابه، وصاح كأنه يومئ إلى إنسان؛ ليرشده، وصفق بيديه اهتدى إلى الطريق.ص٥٧

_ **الخوف على الصبي من النظرة:** ومنها إذا خيف على الصبي النظرة يعلق

عليه سن ثعلب أو سن هرة يسلم، وقيل: أرادت جنية صبياً فلم تقدر عليه، فلما رجعت قيل لها في ذلك فقالت:

كانت عليه نُفَرة ثعالب وهررة
والحيض حيض السَّمُرة

وحيض السمرة: شيء يسيل من السمرة، وهي شجرة يزعمون أن الجن يهربون منه.

والنفرة بالضم كتؤدة: شيء يعلق على الصبي لخوف النظرة.ص٥٧ _ ٥٨

_ **تعليق التمائم:** ومنها أن تعليق التمائم مما يحفظ من الآفات، قال أبو ذؤيب الهذلي يرثي أولاده:

وإذا المنية أنشبت أظفارها لرأيت كل تميمة لا تنفع

ص٦٠

_ **الضب والعقرب:** ومنها أنه ليس من ضب إلا وفي حجره عقرب، فهو لا يأكل ولد العقرب وهي لا تضر به، فهي مسالمة له وهو مسالم لها، وأُنْشِد:

وأخدع من ضب إذا خاف حارشاً أعدَّ له عند الذنابة عقربا

حرش الضب يحرشه، من باب ضرب: صاده، وذلك بأن يحرك يديه على باب حجره؛ ليظنه حية؛ فيخرج ذنبه؛ ليضربها؛ فيأخذه.ص٦١ _ ٦٢

١٠ _ عادات ملوك العرب في الجاهلية والإسلام

_ من عادات ملوك العرب في الجاهلية، أن الواحد منهم كان إذا قام عن مجلس الحكم يُخَلِّف فيه من ينظر بين الناس بعده ويسمى رِدْفاً، وهو بمنزلة

الوزير في الإسلام.ص٦٤

ـ ومنها إذا مرض أحدهم حملته الرجال على أكتافها يتعاقبونه ، ويقفون به؛ لأنه عندهم أوطأ من الأرض.ص٦٤

ـ ومن عادات ملوك اليمن قبل الإسلام: أنهم كانوا يركبون الأفراس والمركبات ، وكانوا يضربون النقود ، وينقشون عليها صورهم وأسماءهم وأسماء المدن التي ضربت فيها.

أما بقية العرب في الجاهلية فقد كانوا يتعاملون بالنقود الرومية والفارسية ، حتى جاء الإسلام وافتتحوا البلاد ، فكان مما عمدوا إلى إنشائه ضرب الدراهم والدنانير ، وقد كان سيف الدولة ضرب دنانير عليها اسمه وصورته.ص٦٧

ـ ومنها: في الجاهلية كانوا يختمون على الرسائل والصكوك بخاتم ، وكان ذلك من الوظائف الملوكية المعروفة عندهم ، وبعد ظهور الإسلام أصبح ذلك من شارات الملك في الدول العربية ، وكانوا يستجيدون صوغه من الذهب ، ويرصعونه بفصوص من الياقوت وغيره من الحجارة الكريمة.ص٦٧

ـ ومنها: جلوسهم على السرير وهو أعواد منصوبة ، أو أرائك منضدة لجلوس السلطان عليها ، وكان ذلك من سنن الملوك قبل الإسلام ، وأول من اتخذه في الإسلام معاوية رضي الله عنه واستأذن الناس فيه ، وقال لهم إني قد بدنت ، فأذنوا له ، فاتخذه ، واتبعه ملوك الإسلام فيه قال البحتري يمدح المتوكل على الله :

فلك السيفُ والعمامةُ والخا تم والبرد والعصا والسرير

ص٦٨

١١ ـ عادات نساء العرب في الأعصر الجاهلية

ـ **طلاق الرجال:** وكن أو بعضهن يطلقن الرجال، وعلامة طلاقهن أنهن يحولن أبواب بيوتهن، فإن كان الباب إلى المشرق جعلته إلى المغرب، وإن كان الباب قبل اليمن جعلته قبل الشام، فإذا رأى الرجل ذلك عرف أن امرأته طلقته.

وكذلك طلقت ماوية بنت عفزر زوجها حاتماً، حين أمعن به حب الكرم؛ فلم يبق لأبنائه ما يتبلغون به، وفي سبيل ذلك أرسل إليها قصيدته التي يقول في مطلعها:

هل الدهر إلا اليوم أو أمس أو غد كذاك الزمان بيننا يتردد

ص٧٠

ـ **ذيل الثياب:** وكن يرسلن ذيول ثيابهن، ولا سيما حللهن النفيسة التي يلبسنها في المواسم والأعياد.ص٧٠

ـ **التزين بالحناء:** كن يتزيّن بالحناء، فهي شائعة الاستعمال بينهن، فيصبغن بها الأكف والأصابع والأظافر، وأخامص القدمين، وأصابع الأرجل.ص٧١

ـ **الإثمد على الشفاه:** وكن يذررن الإثمد على شفاههن ولثاتهن، ليكون ذلك أشد للمعان أسنانهن ونقائها.ص٧١

ـ **المساويك:** وكن يستكن بقضبان المساويك على اختلاف أنواعها، وذلك كقضبان الأراك والإسحل والبشام وغيرها، وهي أشجار عطرة الريح، وعيدانها صالحة للاستياك.ص٧٤

١٢ ـ عادات العرب في الخيل

ـ من عادات العرب في الخيل: أن الواحد منهم كان إذا أراد الركوب لثأر جزَّ

ناصية فرسه وذنبها، وأول من فعل ذلك الحرث بن عِبَاد يوم تحلاق اللمم من أيام حرب البسوس، وذلك أنه لما سمع بقتل ولده «بجير» دعا بفرسه النعامة، فجيء بها، فجز ناصيتها وذنبها، ونادى في قومه، وأنشد قصيدته التي مطلعها:

كل شيء مصيره للزوال غير ربي وصالح الأعمال

ومنها:

قربا مربط النعامة مني لقحت حرب وائل عن حيالي

لم أكن من جناتها علم الله وإني بِحَرِّها اليوم صالي

فاتخذ العرب ذلك سنة إذا أرادوا إدراك الثأر فعلوا ذلك بخيلهم، فلما بلغ المهلهل فعل الحرث، دعا بفرسه المشهّر وفعل به ما فعل الحرث بالنعامة، وقال قصيدته التي مطلعها:

هل عرفت الغداة من أطلال رهنَ ريحٍ وديمةٍ مهطال

ومنها:

قربا مربط المُشَهَّر مني لكليب الذي أشاب قذالي

ص٧٦

ـ وكانوا يطعمون الجياد من الخيل اللبن، قال فارس جروة شداد بن معاوية العبسي:

ومن يك سائلاً عني فإني وجروة لا تباع ولا تعار

مقربة الشتاء ولا تراها أمام الحي يتبعها المهار

لها بالصيف جرجارٌ وجُلٌّ وستٌ من كرائمها غزار

قوله وست من كرائمها إلخ ـ أي لها من كرائم الإبل ست نوق تشرب من ألبانها.ص٧٦ ـ ٧٧

ـ وكانوا يحبون الخيل ويبالغون في إكرامها، وكان الرجل منهم يبيت جائعاً ويشبع فرسه، ويؤثره على نفسه وعياله وولده، قال مالك بن نويرة:

أعلل أهلي عن قليل متاعهم   وأسقيه محض الشول والحي ضائق

ص٧٨

ـ وكانوا يقلدونها أوتار القسي لئلا تصيبها العين، فنهاهم الإسلام عن ذلك، وأعلمهم أن الأوتار لا ترد شيئاً من قضاء الله ـ تعالى ـ ورخص بتقليدها الخرز لأجل الزينة.ص٧٨

ـ وكانوا يَسِمُونَها بنار الميسم ـ وهي الحديدة التي يكوى بها ـ قال الجاحظ في كتابه: ووسمت العرب الخيل وجميع أصناف النعم في الإسلام على مثل صنيعها في الجاهلية.اهـ ص٧٨

ـ وكانوا ينعلون الخيل بالحديد، وقد دل عليه قول مالك بن بلالة بن أرحب:

أمرت بإتيان اللجام فأبدعت   وأنعلت خيلي في المسير حديدا

وأرحبُ جدي كان أحدث قبلنا   ولو نطقت كانت بذاك شهودا

ص٧٨

ـ وكانوا يجعلون في عنق السكيت من الخيل حبلاً ـ والسكيت اسم للعاشر من مراتب خيل السباق ـ ويجعلون عليه قِرْدَاً، ويعطون للقرد سوطاً، فيركضه تنكيلاً بصاحبه وتعييراً له، قال الوليد بن حصين الكلبي:

إذا أنت لم تسبق وكنت مخلفاً سُبقت إذا لم تدع بالقرد والحبلِ

وإن كنت حقاً بالسكيت مخلفاً فتورث مولاك المذلة بالنبلِ

وسمي السكيت لأن صاحبه يسكت حزناً وحياء، وقوله فتورث مولاك إلخ: يشير إلى ما يفعله بعضهم من رمي السكيت بالنبل.ص٧٨ ـ ٧٩

ـ وكانوا إذا ساروا لمحاربة عدو يقودون خيولهم ليريحوها ويركبون إبلهم، فإذا قربوا من عدوهم نزلوا عن إبلهم إلى خيلهم، ثم أغاروا.ص٧٩

ـ وكانت الخيل أعظم عددهم في الحروب، وعليها مدار أمرهم، وبها يجولون في كرهم وفرهم، قال طرفة بن العبد:

ونُكرُّ الخيلَ في أدبارها يوم لا يعطف إلا ذو كرم

ص٧٩

ـ وكانوا يستحبون إناث الخيل في الغارات والبيات ولما خفي من أمور الحرب، وكانوا يستحبون فحول الخيل في الصفوف، والحضور، والسير، والعسكر، ولما ظهر من أمور الحرب، وكانوا يستحبون خصيان الخيل في الكمين والطلائع؛ لأنها أصبر وأبقى في الجهد.ص٧٩

ـ وكان أشراف العرب يخدمون الخيل بأنفسهم لا يتكلون على أحد سواهم.

ومن الحكم: ثلاثة لا ينبغي لأحد أن يأنف منهن وإن كان شريفاً أو أميراً: قيامه عن مجلسه لأبيه، وخدمته لضيفه، وقيامه على فرسه.

وكتب سليمان بن هشام بن عبد الملك إلى والده أن فرسي قد ضعف، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر لي بغيره؟ فكتب إليه والده: إن أمير المؤمنين قد فهم ما ذكرت من ضعف فرسك، وظن ذلك من قلة تعهدك له، فقم عليه بنفسك.ص٨٠

١٣ ـ عادات العرب في الإبل

فمن عادات العرب في الإبل :

ـ **تسييب الإبل :** إن البعير إذا أدرك نتاج نتاجه يُسَيَّب ، أي يترك لا يركب ، وكذلك الناقة كانت تسيب في الجاهلية لنذر ونحوه ، أو كانت إذا ولدت عشرة أبطن كلهن إناث سيبت ، والسائبة في القرآن : كان الرجل في الجاهلية إذا قدم من سفر بعيد أو نجته دابته من مشقة أو حرب ، قال : هي سائبة ، وقيل : بل كان ينزع من ظهرها فقارة فتعرف بذلك ، وكانت لا تحلأ عن ماء ولا كلأ ، ولا تركب. ص٨١

ـ **الصرار والذئار :** وكانوا إذا أرسلوا الحلوبات إلى المرعى ، وخشوا أن ترضع شدوا ضروعها برباط يسمونه صراراً ، فإذا راحت عشياً حُلَّت تلك الأصرة ، وحلبت.ص٨٢

ـ **الناقة الجرباء :** وكانوا يبعدون الناقة الجرباء ، ويفردونها عن الإبل؛ حتى لا تُجْرِبَها ، ولا تعديها.ص٨٢

ـ وليس شيء أبغض إلى العرب من الجرب؛ لأنه يعدي ،ومن أمثالهم : (أبغض من الطلياء) والطلياء هي الناقة الجرباء المطلية بالقطران ،ويقال : (أبغض من الجرباء ذات الهناء).ص٨٣

ـ **ذبح ولد الناقة :** وكانوا إذا أرادوا ذبح ولد الناقة جعل عليه ثوب يغطى به رأسه وظهره كله ما خلا سنامه ، فيرضعها يوماً أو يومين ، ثم يوثق وتنحى عنه أمه حيث تراه ، ثم يؤخذ الثوب فيجعل على حوار آخر فترى أنه ابنها ، وينطلق

بالآخر فيذبح ، ويقال في ذلك ناشغت لفلانة يعني الناقة.ص٨٣

ـ **الصداق من الإبل :** وكانوا يدفعون في الصداق إبلاً ، ومن ذلك قولهم : ساق إلى المرأة صداقها ، وتلك الإبل يقال لها النافجة قال شاعرهم :

وليس تلادي من وراثة والدي ولا شاد مالي مستفاد النوافج

وكانوا يقولون : تهنيك النافجة ، فإذا كانوا يدفعون الصداق عيناً وورقاً فلا يقال ساق إليها الصداق.ص٨٣

ـ **فظ الإبل :** وكانوا يفتظون الإبل فيأخذون ما بقي في كروشها من الماء.ص٨٣

ـ **غرز الريش والخرق بأسنمة الإبل :** وكانوا إذا ظهرت دبرة بظهر بعير غرزوا في سنامه إما قوادم نسر أسود ، وإما خرقة سوداء؛ لتفزع الغربان فلا تسقط عليه ، لأن الغراب مولع بنقر القروح ، وعقرها حتى يبلغ الدأبات[1].ص٨٥

ـ **الناقة العصوب :** ومن عاداتهم أن الناقة إذا لم تدر شدُّوا فخذها بعصاب ، فعند ذلك تدر.ص٨٥

ـ **توسد ذراع الناقة :** وكان المسافر منهم إذا أراد النوم أناخ راحلته ، وتوسد أحد ذراعيها ، قال ذو الرمة :

رمى الإدلاج أيسر مرفقيها بأشعث مثل أشلاء اللجام

ص٨٦

ـ **الضرب على ضرع الناقة :** وكانوا يضربون على ضرع الناقة ، لكي تبقى بقية

١ـ الدأبات : عظام الكاهل.

من لبنها في خلفها، يريدون بذلك تغزيرها، قال الحارث بن حلزة في مكارم الأخلاق :

لا تكسع الشول بأغبارها إنك لا تدري من الناتج
واصبب لأضيافك ألبانها فإن شر اللبن الوالج

ص٨٦

ـ **نحر الفصال:** وكانوا في سنة الجدب ينحرون الفصال؛ لئلا ترضع فتضر بالأمهات.ص٨٧

ـ **ترويض البكرة:** وكانوا إذا أرادوا أن يروضوا البكر الصعب حك الرائض أعلى خطمه ـ أنفه ـ بحبل، حتى يؤثر فيه كالوسم، ثم يجعل عليه حبلاً يقوده به فينقاد، قال ذو الرمة يصف بعيراً:

كأن جلد الوجه من حرير أملس إلا خطرة الجرير

الجرير : الحبل.ص٨٧ ـ ٨٨

ـ **الناقة المذكره:** وكانوا يتفاخرون بالنوق ،ويرغبون في ركوبها أكثر من الجمال، ومن أجل ذلك كانوا يبغضون الناقة التي تلد الذكور، وهو أفظع ما يكون من نتاج العرب، وأبغضه إليهم.ص٨٨

ـ **نحر الناقة:** وكانوا إذا أرادوا نحر الناقة، ضربوا ساقها بالسيف فخرت، ثم نحروها،قال أبو طالب بن عبدالمطلب يمدح رجلاً بالكرم:

ضروبٌ بنصل السيف سوقَ سِمانها إذا عدموا زاداً فإنك عاقرُ

ص٨٨

ـ **الذرع:** وكانوا يرسلون مع الوحش جملاً يرعى معها؛ حتى تأنس به، ولا

تنفر منه ، فإذا أراد مريد أن يصطاد الوحش ، استتر بذلك الجمل حتى إذا دنى الوحش رمى.ص٨٩

ـ **حادي الإبل:** وكانوا إذا ساقوا الإبل ، جعلوا من يغني لها ، وهو المسمى بالحادي ، أنشد ابن بري للراجز:

يا زيد زيد اليعملات الذُّبَّل تطاول الليل عليك فانزل

الذبل: الضوامر ، واليعملات: النوق القوية على العمل.

وإنما أضيف زيد إليها لاشتهاره بالحداء أي الغناء لها عند سيرها ، وقال الجوهري: الحدو: سوق الإبل ، والغناء لها.ص٨٩

ـ **تنعيل الإبل:** ومن عادات العرب في الإبل: أنهم كانوا يشدون تحت خفافها قطعاً من الجلود؛ لتقيها الحجارة ، وهو التنعيل المشار إليه في قول كعب ابن زهير رضي الله عنه :

سمر العجيات يتركن الحصا زِيَماً ولا يقيها رؤوسَ الأكْمِ تنعيل

العجيات :عصب الأرساغ ، والزيم بكسر الزاي وفتح الياء: المتفرق : أي أنها لا تحفى في سيرها ، فتفتقر إلى النعل.ص٩٠

ـ **الفرسان والركبان:** وكانوا يقاتلون على النجب والهجن من الإبل.ص٩٠

ـ **وسم الإبل:** وكانوا يسمون إبلهم بنار الميسم ـ والميسم حديدة يكوى بها ـ قال الراجز:

قد سقيت آبالهم بالنار والنار قد تشفي من الأوار

يعني بالنار: السمة ، يريد أن إبلهم وردت الماء ، فلما رأى أصحابه سمتها

علموا أنها لقوم أعزة؛ فسقوها لذلك.ص٩٠

١٤ ـ عادات العرب في الحروب والغزوات

ـ اشتهرت العرب بين بقية الأمم بمعالجة الحروب وأنواع المقاتلة، وقد انتهت إليهم القوة والشجاعة، كما يشهد بذلك تاريخهم المجيد، وآثارهم الأدبية الخالدة.

فالعرب ليوث الحرب، وأباة الضيم، ولم يزالوا في أيام جاهليتهم في كر وفر، وغارات، ومحاربات، كل ذلك في طلب العزة، وإشادة صروح المجد.

قال شاعرهم:

أدْنى الفوارسِ من يغير لمغنم	فاجعل مغارَك للمكارم تُكرمِ

ومن أراد أن يطلع على أخبار حروب العرب وغزواتهم فهو لا غنى له عن معرفة ما كان لهم فيها من العادات والشعائر، وإن عثور الباحث على شيء منها لا يخلو من فائدة يزدان بها جيد تاريخ الأمة العربية.ص٩٢

ـ **نار الحرب:** فمن عادات العرب في الحروب: أنهم كانوا إذا أرادوا حرباً أوقدوا ناراً على جبل؛ ليبلغ الخبر أصحابهم فيأتوهم ، فإن جد الأمر أوقدوا نارين.ص٩٢

ـ **نحر الجزور:** وكانوا ينحرون الجزور إذا أرادوا الغزو، ثم يطبخون لحمها، ثم يحشون جلد الجزور ويحملونه معهم ، يستعينون على السفر، فمتى أرادوا لحماً أكلوا منه.ص٩٣

ـ **الاستكثار من النيران والذبح:** وكانوا إذا نزلوا منزلاً وهم جيش يريدون

محاربة قوم استكثروا من النيران، وأكثروا من الذبح مخافة أن يحزرهم حازره ـالحزر: التقدير والحرص[1]ـ بقلة ذبحهم ونيرانهم، فيستدل على العورة منهم. ص٩٣

ـ **لبس الدروع والأقنعة:** وكانوا إذا أرادوا القتال لبسوا الدروع، وتكمموا بالأسلحة، وتقنعوا حتى لا يعرفوا.ص٩٤

ـ **التخفيف بالحرب:** وكانوا يتخففون للحرب، ويكرهون أن يقتل الرجل، وتصيبه طعنة في بطنه، أو ضربة؛ فيخرج منه الطعام؛ فَيُعَيَّر.ص٩٥

ـ **الطليعة:** وكانوا قبل مناجزة العدو يرسلون من يكشف لهم عنه ويسمى: طليعة.ص٩٥

ـ **حمل الألوية والرايات:** وكانوا يقتحمون غمار الحرب حاملين الألوية والرايات.ص٩٦

ـ **الرايات في أطراف الرماح:** وكانوا يحملون الرايات في أطراف الرماح، ويتركونها حتى تصفقها الرياح.ص٩٧

ـ **أمير الجيش: الوازع:** وكانوا يجعلون لكل جيش منهم أميراً يأمرهم وينهاهم، ويقدم فيهم، ويؤخر، ويسمى وازعاً.ص٩٩

ـ **علامات الفرسان:** وكان الفارس منهم يعلم نفسه بعلامة يعرف بها في الحرب.ص٩٩

ـ **النساء خلف المحاربين:** وكانوا إذا حاربوا جعلوا النساء خلفهم، قال عمرو

---

١ ـ هكذا في الأصل ولعل الصواب: الخرص.

ابن كلثوم في معلقته:

على آثارنا بيض كرامٌ نحاذر أن تُقَسَّمَ أو تهونا

ص١٠١

ـ **الغارة في الصباح:** وكانوا لا يغيرون إلا في الصباح، ولذلك يقولون: فتيان الصباح؛ولهذا قالوا: يا صباحاه.ص١٠١

ـ **الغارة من كل الجهات:** وكانوا إذا أغاروا فرقوا أنفسهم؛ ليأتوا الأعداء من كل الجهات.ص١٠٢

ـ **مهاجمة يمين الأعداء:** وكانوا يحبون أن يأتوا أعداءهم من شق اليمين، وذلك لعلمهم بأن طباع الإنسان داعية إلى الهرب من شق الشمال؛ ولذا قال شتيم بن خويد ـ بالتصغير فيهما ـ:

فجئناهم من أيمن الشق غدوة

ويأتي الشقيَّ الحَيْنُ[1] من حيث لا يدري

وليس في الأرض هارب من حرب أو غيرها، فاستمل الحضر إلا أخذ عن يساره إذا ترك عزمه، وسوم طبيعته.ص١٠٣

ـ **ترك الرمح في المطعون:** وكانوا يتركون الرمح في المطعون؛ ليكون أعنت له.ص١٠٣

١٥ ـ عادات عربية خاصة بالأعراس

ـ يقال: العروس للرجل والمرأة ـ ما داما في أعراسهما.

---

١ ـ الحين: الموت.

فَجَمع المذكر عروس، وجمع الأنثى عرائس، وكل منهما عرس للآخر، ولا يسميان عروسين إلا أيام البناء.ص١٠٥

_ ومن أمثال العرب (كاد العروس يكون ملكاً) ويراد ههنا الرجل، أي: كاد يكون ملكاً لعزته في نفسه وأهله.ص١٠٥

_ **الصداق:** من عادات العرب أنهم كانوا يدفعون الصداق إبلاً، فمن ذلك قولهم: ساق إلى المرأة صداقها.ص١٠٥

_ **العجاهن:** العُجاهن بالضم: الماشطة إذا لم تفارق العروس حتى يُبْنَى بها، وتسمى _ أيضاً _: (المزينة) و (المقينة) من التقين وهو التزين؛ لأنها تزين النساء، وهي التي يسميها أهل تونس (الحنانة).

ويسميها أهل مصر (البلانة) وأما أهل الشام فما يزالون يسمونها (الماشطة) ويذكرونها في أغانيهم التي يتغنون بها في أعراسهم.ص١٠٦

_ **الزفاف:** من العادات التي كانت جارية عند الأمة العربية في الأطوار الجاهلية أنهم كانوا إذا زوجوا فتاة وأرادوا زفافها، تقدم إليها وليها بوصايا تنفعها في حياتها إذا عملت بها، فمن ذلك حكي أن قيس بن مسعود زوج ابنته من لقيط بن زرارة، ومما أوصاها به، قوله:

«واغلبي أحماءك بالخير، ولا تغلبيهم بالشر، وكوني لزوجك أمة يكن لك عبداً، وتتبعي من الطيب مواقع أنفه، واعلمي أن أطيب طيب النساء: الماء».

وقد أقر الإسلام هذه العادة الجاهلية ولم يغيرها؛ وذلك لأنه دين النصيحة ومكارم الأخلاق.

وقد ذكر في كتب الأدب أن أبا الأسود الدؤلي، وهو من التابعين، لما زوج ابنته وأراد تحويلها، قال لها:

«عليك بالزينة، وأزين الزينة الكحل، وعليك بالطيب، وأطيب الطيب إسباغ الوضوء».

فقوله إسباغ الوضوء: أي إكماله، وإتمامه، والمبالغة فيه.ص١٠٦ ـ ١٠٧

ـ **العمرة:** العمرة: أن يبني الرجل على امرأته في أهلها، فإن نقلها إلى أهله فذلك العرس. قاله ابن الأعرابي.ص١٠٧

ـ **الدعاء للمتزوج:** ويدعى للمتزوج، فيقال له: بالرفاء والبنين أي بالالتئام، والإنفاق، وجمع الشمل، وحسن الاجتماع: وهو من رفات الثوب إذا ضممت بعضه إلى بعض، أو من رفوت الرجل: إذا سكنته.

قال أبو زيد رحمه الله: هو من المرافاة ـ غير مهموز ـ: وهي الموافقة.

وتزوج عقيل بن أبي طالب، فقيل له: بالرفاء والبنين.

فقال: قال رسول الله ﷺ: إذا رفأ أحدكم أخاه، فليقل: على الخير والبركة، بارك الله لك، وبارك عليك.ص١٠٧

١٦ ـ مجالس العرب في الجاهلية والإسلام

ـ لقد أعرب كثير من الشعراء عما كان في مجالس العرب من سكون، ووقار، وحسن أدب، ومحادثات تعود على الإنسان بما فيه سعادته وصلاح أمره، فمن ذلك ما أشار إليه زهير بن أبي سلمى في قوله يمدح آل سنان ويذكر مجالسهم:

إذا جئتَهمْ ألفيتَ حول بيوتهم	مجالسَ قد يشفى بأحلامها الجهل

يقول: هم أهل حلوم وآراء، فمن شهد مجالسهم تحلَّم وإن كان جاهلاً.

وقال طرفة بن العبد يمدح قوماً:

يَزَعُونَ الجهلَ في مجلسهم   وهمُ أنصارُ ذي الحلم الصمدْ

يزعون: أي يكفون، والجهل: السفه، يعني أن مجالسهم لا يتكلم فيها بالكلام المنافي للآداب وقوله: وهم أنصار ذي الحلم الصمد، الصمد: الذي يصمد إليه في الحوائج، أي يقصد، يعينون ذا المروءة على مروءته.ص١٠٨

ـ وقال الآخر يصف مجالس بعض الرؤساء:

إذا انتدى واحتبى بالسيف دان له   شوسُ الرجال خضوعَ الجُرْبِ للطالي

كأنما الطير منهم فوق هامتهم   لا خوفَ ظُلمٍ ولكن خوفَ إجلالِ

أراد أن مجالسهم مهيبة، وأن حاضريها يتوقرون ويسكنون، فكأن على رؤوسهم الطير، وقوله: لا خوف ظلم: أي يخافونه لا خوف ظلم وانتقام، ولكن خوف جلالة واحتشام.ص١٠٨

ـ وقال شاعر قديم يمدح رجلاً بالكرم والاحتفاظ بكرامة جلسائه وتوقير مجلسهم:

فتى مثل ضوء الماء ليس بباخلٍ   بخيرٍ ولا مهدٍ ملاماً لباخلِ

ولا قائلٍ عوراءَ تؤذي جليسَه   ولا رافعٍ رأساً بعوراءِ قائلِ

العوراء: الكلمة القبيحة، يعني أنه لا يؤذي من يجلس إليه، ولا يسمعه ما يكره:

ولا مظهرٍ أحدوثةِ السوء معجباً   بإعلانها في المجلس المتقابل

الأحدوثة: بالضم ما يتحدث به، يعني أن ممدوحه إذا جلس مع قوم راعى مجالسهم؛ فلا يحدثهم بحديث سيئ كغيبة أو نميمة، أو غير ذلك من الكلام المنافي للآداب والحشمة.ص١٠٩

ـ وقال الفرزدق يصف مجالس قومه:

وما حُلَّ من جهلٍ حِبا حلمائنا ولا قائل المعروفِ فينا يعنَّف

وما قام منا قائمٌ في ندِيِّنا فينطقُ إلا بالتي هي أعرف

أي إذا نطق منا ناطق في مجلس جماعة عُرف صواب قوله، فلم تردَّ مقالته.ص١١٠

ـ وقال أبو فراس الحمداني يصف مجلس قومه:

إذا مررتَ بوادٍ جاشَ غاربُه فاعْقِلْ قلوصَك وانزِلْ ذاك وادينا

وإن وقفتَ بنادٍ لا يطيفُ به أهلُ السفاهة فاجلسْ فهو نادينا

يعني أن مجالسهم لا يُلِمُّ بها أهل السفه والطيش، ولا يقربونها.ص١١١

ـ هذا ولنكتف بما أوردناه في هذا المقال من الأشعار المشتملة على أوصاف مجالس العرب في الجاهلية والإسلام، والآن نجعل مسك ختامنا الكلام على مجلس النبي ﷺ ومجالس أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ.

أما مجلس النبي ﷺ فقد وصفه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: «مجلس حلم، وحياء، وصبر، وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن فيه الحرم: أي لا تقذف ولا تعاب، وتنشى فلتاته: أي لا تثبت هفواته.

إذا تكلم ﷺ أطرق جلساؤه كأن على رؤوسهم الطير».

فقوله: «كأن على رؤوسهم الطير» هذه عبارة عن سكونهم وإنصاتهم؛ لأن الطير إنما تقع على ساكن، قال الهذلي:

إذا حلَّتْ بنو ليثٍ عكاظاً رأيت على رؤوسهم الغُرابا

وقال بعض الصحابة: «إنا كنا مع النبي ﷺ وكأن الطير فوق رؤوسنا».

أي كأن الطير وقعت فوق رؤوسنا، فنحن نسكن، ولا نتحرك؛ خشية من نفار ذلك الطير.

وفي صفة الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ: «كأن على رؤوسهم الطير» أي ساكنون هيبة، ووصفهم بالسكون والوقار، وأنهم لم يكن فيهم خفة وطيش.

ويقال للقوم إذا كانوا هادئين ساكنين: كأنما على رؤوسهم الطير.ص١١١ ـ ١١٢

ـ ومن أمثال العرب في مكارم الأخلاق قولهم في الحليم: إنه لواقع الطير وساكن الريح. ص١١٢

ـ وقولهم في الحلماء: كأن على رؤوسهم الطير. ص١١٢

وأما أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم كانوا إذا اجتمعوا، جعلوا يتحدثون بذكر ما سلف لهم من الحروب والوقائع، ويتناشدون الأشعار، ويتمازحون.

وفي حديث بكر بن عبدالله: كان أصحاب محمد يتمازحون، فإذا جاءت الحقائق كانوا هم الرجال.ص١١٢

ـ وفي حديث الحسن البصري، قيل له: أكان أصحاب رسول الله ﷺ يمزحون؟ قال: نعم، ويتقارضون، أي يقولون القريض وينشدونه، والقريض هو الشعر.ص١١٢

ـ هذا ومن الأنسب أن نذكر هنا ما جرى في أحد مجالس أمير المؤمنين عمر ابن

الخطاب ﵁ وذلك ما رواه ابنه عبدالله، قال: كنت عند أبي يوماً وعنده نفر من الناس، فجرى ذكر الشعر، فقال: من أشعر العرب؟ فقالوا: فلان وفلان، فطلع عبدالله بن عباس، فسلم وجلس، فقال عمر: قد جاءكم الخبير من أشعر الناس يا عبدالله؟ قال زهير بن أبي سلمى، قال فأنشدني مما تستجيد له.

فقال: يا أمير المؤمنين إنه مدح قوماً من غطفان، يقال لهم بنو سنان، فقال:

قومٌ سنانٌ أبوهم حين تنسبهم   طابوا وطابَ من الأنجال ما ولدوا

لو كان يَقْعُدُ فوق الشمس مِنْ كرمٍ   قومٌ بأولهم أو مجدهم قعدوا

إنسٌ إذا أمنوا جِنٌّ إذا فَزِعوا   مرزؤون بها ليلٌ إذا جهدوا

محسَّدونَ على ما كان من نعمٍ   لا ينزع الله عنهم ما به حُسدوا

فقال عمر: والله لقد أحسن، وما أرى هذا المديح يصح إلا لهذا البيت من هاشم لقرابتهم من رسول الله ﷺ فقال ابن عباس: وفقك الله يا أمير المؤمنين؛ فلم تزل موفقاً.ص١١٢ ـ ١١٣

ـ وأما عبدالله بن عباس﵁ فقد كان يجلس يوماً للتأويل، ويوماً للفقه، ويوماً للشعر، ويوماً لأيام العرب.

ومعنى الشعر: أن يذكرها استشهاداً للغة العربية.ص١١٣

ـ وقال عطاء بن أبي رباح ﵀: ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس، أكثر فقهاً، وأعظم خشية، وإن أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده، يصدرهم كلهم من واد واسع.ص١١٣

١٧ ـ قرع السن كناية عن الندم

ـ يقال: قرع عليه سنه: ندم.

وقال تأبط شراً، واسمه ثابت بن جابر، من شعراء المفضليات:

لتقرعنَّ عليَّ السنَّ من ندمٍ إذا تذكرت يوماً بعض أخلاقي

ومن أمثال المولدين: (رب كلمة لبست عليها أذني؛ مخافة أن أقرع لها سني).ص١١٨

١٨ ـ الأضياف والضيافة

ـ هذا تحرير يشتمل على كلمات خاصة بالأضياف، والضيافة، وما له صلة بذلك:

ـ **السور:** السّور بالضم: الضيافة وهي كلمة فارسية، وقد شرفها النبي ﷺ عن القاموس وشرحه ـ قال الشارح: قلت: وهي إشارة إلى الحديث المروي عن جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال لأصحابه: «قوموا فقد صنع جابر سوراً».

قال أبو العباس: وإنما يراد من هذا أن النبي ﷺ تكلم بالفارسية، صنع سوراً أي طعاماً دعا الناس إليه.ص١٢٢

ـ **النُّدُل:** الندل بضمتين: خدم الدعوة ـ عن ابن الأعرابي.

قال الأزهري: سموا نُدُلاً لأنهم ينقلون الطعام إلى من حضر الدعوة.ص١٢٢

ـ **الصبير:** الصبير كأمير: صبير الخِوَان وهو الرقاقة العريضة تبسط تحت ما يؤكل من الطعام.

ويقال: أكلوا صبير الخوان: وهو الرقاقة التي تبسط تحت الطعام الأساس.ص١٢٢

_ **المُرْجِفان:** المرجفان: الطست والإبريق، لأن لهما صوتاً بنقر أحدهما في الآخر، فكأن ذلك الصوت يرجف أي يخبر بتمام الطعام والحث على القيام.

قال أبو بكر الصفار: حضر مجنون بالكوفة قوماً فجلس يأكل، فجعل الغلام يحرك الطست والإبريق، فقال من ذا الذي يرجف بنا قبل انقضاء عملنا، وفي مقامات الحريري: « وإياك واستدناء المرجفين قبل استقلال حمول البين ».

قوله استقلال حمول البين: أي إبل الفراق، ويريد بها الموائد؛ لأنها إذا ارتفعت تفرق أهل المجلس فيقول: إياك أن تُقَرِّبها _ أي الطست والإبريق _ قبل أن ترتفع الموائد؛ فيتهيأ الناس للغسل والانصراف، فإن غسلت الأيدي _ والموائد باقية _ تُوهِّم أن ثمَّ طعاماً يستأنف أكله.ص١٢٢ _ ١٢٣

_ **الحشماء:** الحُشماء: الجيران والأضياف، كأنه جمع حشيم ككريم وكرماء.

والذي في المحكم: هؤلاء أحشامي أي جيراني وأضيافي.

إذا دعي قوم إلى طعام، فجاؤوا أربعة أربعة، قيل: جاؤوا وخزاً وخزاً، فإن جاؤوا عصبة، قيل: جاؤوا أفاجيج.

صاحب العين: مرَّ بنا فائج وليمة فلان، أي قوم مما كان في طعامه.ص١٢٣

_ **الوضيمة:** الوضيمة: القوم ينزلون على القوم وهم قليل، فيحسنون إليهم ويكرمونهم.ص١٢٣

_ **الهفيته، الدافة:** قال: وردت هفيتة من الناس للذين أقحمتهم السَّنَةُ. ١٢٤

_ **الصرِّم :** الصرِّم بالكسر : الجماعة من الناس ليسوا بالكثير.ص١٢٤

_ **التكرمة :** التكرمة : الوسادة وما يجلس عليه الضيف.ص١٢٤

_ **النزالة :** النِّزالة بالكسر : الضياف _ اللسان.

ويقال : كنا في نزالة فلان _ بالكسر _ أي ضيافته _ مستدرك التاج.ص١٢٤

_ **النزل :** النُزُل بضمتين : ما هيئ للضيف.ص١٢٤

_ **الأحبش :** الأحبش : الذي يأكل طعام الرَّجُل ، ويجلس على مائدته ، ويزينه. ص١٢٤

_ **المرهَّق :** المُرَهَّق كمعظَّم : من يغشاه الناس كثيراً، وتنزل به الأضياف ، قال زهير: يمدح هرم بن سنان :

ومُرهَّقُ النيران يطعم في الـ لأواءِ غيرَ مُلَعَّنِ القدر

وقال ابن هرمة :

خيرُ الرجالِ المرهقون كما خيرُ تلاعِ البلادِ أوطؤها

ص١٢٥

_ **المقراء :** المقراء : هو الرجل الكثير القرى للأضياف.

والمهداء : الرجل الكثير الإهداء.ص١٢٥

١٩ _ عادات العرب بأمر الأضياف

_ وقال المقنع الكندي من شعراء الحماسة :

يعاتبني في الدَّيْنِ قومي وإنما ديوني في أشياءَ تكسبهم حَمْدا

أسُدُّ به ما قد أخلّوا وضيّعوا ثغورَ حقوقٍ ما أطاقوا لها سدا

وفي جفنة ما يغلق الباب دونها مكلَّلَةٍ لحماً مدفَّقةٍ ثُرْدا

مكللة: أي عليها من اللحم مثل الأكاليل، والدفق: الصب، ويقال: ثريدة وثرائد وثُرُدٌ ثم يخفف فيقال: ثُرْد _ قاله الخطيب (ج٣: ١٠٠).ص١٢٦ _ ١٢٧

_ وقالت الخنساء ترثي صخراً:

يذكرني طلوع الشمس صخراً وأذكره لكل غروب شمس

وإنما اختصت هذين الوقتين؛ لأن طلوع الشمس يذكرها بغاراته على أعدائه، وغروبها يذكرها بإقرائه ضيفانه، فاختصت هذين الوقتين من بين سائر الأوقات لهذين المعنيين _ المشوق لابن قيم الجوزية ص١٥٤_ ص١٢٧

_ وكانوا ينحرون الإبل للأضياف، قال ذو الرمة:

وإنْ تعتذر بالمَحْلِ من ذي ضروعِها إلى الضيف يجرح في عراقيبها نصلي

ص١٢٧

٢٠ _ عادات عربية

_ **نار القرى:** ومنها: أنهم كانوا يوقدون ناراً ترفع للسَّفْر، ولمن يلتمس القِرى، وربما أوقدوها بالعود ونحوه مما يتبخر به؛ ليهتدي إليها العميان.

وهذه النار من أعظم مفاخر العرب وأشرف مآثرهم.

والأشعار فيها كثيرة، منها قول الأعشى:

لعمري لقد لاحت عيونٌ كثيرةٌ إلى ضوءِ نارٍ في يَفاعٍ يُحَرِّقُ

تَشُبُّ لمقرورينِ يصطليانها وباتَ على النار الهدى والمحلِّقُ

قال العسكري: كان هذا البيت يستحسن في صفة نار القرى حتى قال الحطيئة:

متى تأتِه تعشو إلى ضوء ناره تجدْ خيرَ نارٍ عندها خَيْرُ مُوقِدِ

فعفى عن الأول، هكذا قالوا، قال: وعندي أن الأول أحسن وأعرب. ا.هـ.ص١٢٩

ـ وقد جمع ابن الرومي نار القرى ونار الحرب في قوله لعبيدالله بن عبدالله ابن طاهر، حيث قال:

له ناران نارُ قِرىً وحربٍ تُرى كلتاهما ذاتُ التهابِ

ص١٢٧

ـ **لعب البنات بالتماثيل:** ومن عاداتهم تمكين بناتهم من اللعب بالتماثيل الصغار، وإلى ذلك يشير امرؤ القيس بقوله:

وهي إذ ذاك عليها مئزر ولها بيت جوار من لعب

ومن حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كنت ألعب مع الجواري بالبنات.

والبنات: التماثيل الصغار يلعب بها الجواري.

ونظراً لما ينتج عن هذه اللعبة من فائدة تعويد البنات وتمرينهن على مباشرة أعمال البيت وإدارة شؤونه ـ فقد أقرها الإسلام وأباحها لنا.ص١٣٠

ـ **عادة البيع والشراء:** ومن عاداتهم في البيع والشراء: أن المشتري يبسط يده، ويصفق براحته على راحة بائعه إذ اشترى منه شيئاً نفيساً.

قال ذو الرمة:

ودوٍّ ككف المشتري غير أنه بساطاً لأخماس المراسيل أوسع

الدو: المستوي من الأرض، والبساط: الأرض الواسعة، لأخماس: أي لسير الأخماس وهو جمع خِمس بالكسر، والخمس: ورد الماء في الخامس.ص١٣٠

ـ **السانح والبارح من الطير:** ومنها: أنهم كانوا يتيمنون بالسانح من الطير، وهو ما مر من مياسرك إلى ميامنك.

ويتشاءمون بالبارح وهو بعكس السانح.

ومن أمثالهم: (من لي بالسانح بعد البارح) أي: بالمبارك بعد المشؤوم.

قال الكميت:

ولا أنا ممن يزجر الطير همه　　　أصاح غراب أم تعرض ثعلب

ولا السانحات البارحات عشية　　　أمرَّ سليم القرن أم مر أعضبُ

سليم القرن: الذي يُتَيَمَّن به، والأعضب: المكسور أحد القرنين، وهو مما يتشاءم به.ص١٣١

ـ **البناء بالطين والتبن:** ومن عاداتهم أنهم يخلطون الطين بالتبن، ويطينون به الجدران.ص١٣٣

ـ **الجبيرة:** ومن عاداتهم مداواة الساق الكسيرة بالجبيرة، وهي العيدان التي تجبر بها العظام.

وقد دل عليه قول أحد شعراء الحماسة:

ضممناكم من غيرِ فَقْرٍ إليكم　　　كما ضَمَّتِ الساقَ الكسيرَ الجبائرُ

ص١٣٥

ـ **مد الحاجبين:** مد الحاجبين: فعل الإنسان إذا تعجب من شيء.

ومن عاداتهم ذلك يدل عليه قول عبيد بن الأبرص:

ومطَّتْ حاجبيها أن رأتني　　　كَبِرْتُ وأنْ قَدِ ابيضَّت قروني

ص١٣٥

ـ **التوقي من المطر:** ومن عاداتهم توقيهم المطر بثوب من صوف يسمونه «مِمْطراً».

ص١٣٥

التشاؤم بالعطاس: ومنها: تشاؤمهم بالعطاس، قال المسيب بن علس:

أَرَحَلْتَ من سلمى بغير مَتاعِ قبلَ العِطاسِ ودَعْتَها بوداع

وقوله: قبل العطاس؛ لأنهم كانوا يتشاءمون منه.ص١٣٥

ـ **الحمد لله وحده:** ومما كان جارياً عند الموحدين هو أن السلطان كان يكتب بيده بخط غليظ في رأس المنشور «الحمد لله وحده».ص١٣٦

ـ **عافي القِدْر:** ومن عاداتهم في الجدب أن أحدهم إذا استعار قِدْراً رد فيها شيئاً من طبيخ، قال مضرس بن ربعي الأسدي:

فلا تسأليني واسألي عن خَلِيقَتي إذا ردَّ عافي القِدْرِ من يَسْتَعِيرُها

وعافي القدر: ما يبقي المستعير فيها لمعيرها.ص١٣٨

ـ **الإشارة باليد للسلام:** ومما كان جارياً بينهم الإشارة باليد للسلام، كما هو مستعمل بين الناس في عصرنا هذا.ص١٣٨

ـ **بيع الحصاة:** ومن عاداتهم في الجاهلية أن أحد المتبايعين كان يقول لصاحبه: بعتك من السلع ما تقع عليه حصاتك إذا رميت بها، أو بعتك من الأرض إلى حيث تنتهي حصاتك، وقد نهى الإسلام عن ذلك لما فيه من الغرر والجهالة.ص١٣٩

ـ **بيع الفرس نقداً:** وكانوا لكرامة الفرس عندهم ونفاستهم بها، لا يبيعونها إلا بثمن معجل.

ومن أمثالهم في ذلك قولهم: (النقد عند الحافر) أي عند بيع ذات الحافر.ص١٣٩

ـ **أهل الله:** وكانوا يترافدون فيشترون الجزر والكعك والسويق، ويطعمون الحاج ويقولون: نحن أهل الله وجيران بيته، والحاج وفد الله وضيفانه، فنحن أولى بِقِراهم.ص١٣٩

ـ **دية القتيل:** ومن عاداتهم في الجاهلية إذا يقتل الرجل من القبيلة، فيطالب القاتل بدمه، فتجتمع جماعة من الرؤساء إلى أولياء المقتول بدية مكملة ويسألونهم العفو وقبول الدية، فإن كان أولياؤه ذوي قوة أبوا ذلك، وإلا قالوا لهم: إن بيننا وبين خالقنا علامة للأمر والنهي، فيقول الآخرون: ما علامتكم؟ فيقولون: نأخذ سهماً فنرمي به نحو السماء، فإن رجع إلينا مضرجاً دماً فقد نهينا عن أخذ الدية وإن رجع كما صعد فقد أمرنا بأخذها.

قال أبو المكارم وغيره: فما رجع هذا السهم قط إلا نقياً، ولكنهم لهم في هذا المقال عذراً عند الجهال.

وقال الصاغاني في العباب: إن أولياء المقتول يمسحون لحاهم، إذا رجع السهم نقياً، ويصالحون على الدية، وكان مسح اللحى علامة على الصلح.

وقال الشاعر:

يا ليتني في القوم إذ مسحوا اللحى

ص١٣٩_١٤٠

ـ **سمر الليل:** وكانوا يسمرون بالليل، أي يتحدثون، فإذا صاحت الديكة تفرقوا ولذلك قالوا في أمثالهم: (أثقل من الزواقي).

ذو الزواقي: الديكة، لأنها إذا صاحت بسحر تصرف السمار والأحباب. ص١٤٠

ـ **الشهر الأصم:** ومن عاداتهم أنهم كانوا يكفون عن الحرب في شهر رجب؛ تعظيماً له ويسمونه الشهر الأصم؛ لأنه لا ينادى فيه بالثارات، ولا يسمع فيه صهيل الخيل، وصليل السيوف.

وكانوا إذا دخل رجب، نزعوا أسنة الرماح ونصال السهام؛ إبطالاً للقتال فيه، وقطعاً لأسباب الفتن لحرمته.ص١٤٠ ـ ١٤١

ـ **الحض على الصلح والخير:** ومن عاداتهم أن الرجل منهم كان يقوم في المجلس فيحض على الخير ويصلح بين الناس.ص١٤١

ـ **ثالثة الأثافي:** وكانوا إذا نزلوا بإزاء جبل جعلوا للقدر حجرين، وجعلوا أصل الجبل الحجر الثالث.ص١٤١

ـ **وضع العمامة:** وكان العرب يتلثمون من العمامة؛ لأجل حر الشمس، وإذا أرادوا أن يتكلموا كشفوا للثام، قال شاعرهم:

أنا ابنُ جلا وطلاَّعُ الثنايا ... متى أضَعِ العمامة تعرفوني

أي متى يزيل فضلها عن وجهه.ص١٤١

ـ **الطلاق في الجاهلية**: من عاداتهم أن الطلاق كان عندهم في الجاهلية ثلاثاً، دل عليه قول الأعشى الأكبر، وقد تزوج امرأة فلم يرضها، ولم يستحسن خلقها، فطلقها، وقال:

أيا جارتي بيني فإنك طالقة ... كذاك أمورُ الناس غادٍ وطارقةْ

وبيني فإن البين خيرٌ من العصا ... وألا تري لي فوق رأسك بارقةْ

وما ذاك من جُرْمٍ عظيمٍ جَنَيْتِهِ ... ولا أن تكوني جِئْتِ فينا ببائقةْ

وبيني حصانُ الجسم غيرُ ذميمةٍ وموموقة فينا كذاك ووامقةْ

البائقة: الجريمة. موموقة: معزوزة ومحبوبة.

فبهذه الأبيات استدل بعضهم على أن الطلاق في الجاهلية كان ثلاثاً؛ وذلك لأن الشاعر كرر لفظ «بيني» في ثلاثة أبيات.ص١٤٣

_ **الاحتباء:** ومن عاداتهم الاحتباء: وهو أن يضم الإنسان رجليه على بطنه بثوب ويجمعهما به مع ظهره، ويشده عليهما، وقد يكون الاحتباء باليدين عوض الثوب.ص١٤٣

ثامناً: نقولات مختارة من كتاب:

الحديقة تأليف العلامة محب الدين الخطيب ١٣٠٣_١٣٨٩هـ

«**تعريف بالمؤلف**»: هو الأديب الكبير والكاتب الإسلامي الشهير الشيخ العلامة محب الدين الخطيب بن أبي الفتح محمد عبد القادر صالح الخطيب.

ولد بدمشق عام ١٣٠٣هـ، وتعلم بالإستانة، وحضر إلى القاهرة، وعمل في جريدة المؤيد، ثم قصد العراق، فاعتقله الإنجليز سبعة أشهر، ثم ذهب إلى مكة المكرمة عند إعلان الثورة العربية ١٩١٦م، فحكم عليه الأتراك بالإعدام غيابياً، ثم استقر في مصرسنة١٩٢٠م، وعمل محرراً للأهرام، وأنشأ مجلتي الزهراء، والفتح، وأنشأ المطبعة السلفية ومكتبتها.

وقد عرف بغيرته الإسلامية، وكتاباته البارعة، ومعالجته لكثير من القضايا الأخلاقية، والعقدية، واللغوية وغيرها.

كان من أكابر الكتاب الإسلاميين في القرن الرابع عشر، حيث مارس الكتابة في سن مبكرة، وحرص على نشر الفضيلة، ومقاومة دعاة التغريب والرذيلة.

له مؤلفات عديدة، منها كتاب «الخطوط العريضة»، وكتاب «مع الرعيل الأول».

ومن كتبه، ما نحن بصدده وهو كتاب الحديقة.

وكان رحمه الله ذا علاقات كثيرة، وصداقات متينة مع أكثر علماء وأدباء عصره.

توفي رحمه الله عام ١٣٨٩هـ عن ست وثمانين سنة.

«**تعريف بالكتاب**»: كتاب الحديقة يعرف من مسماه، وهو كما قال مؤلفه: «مجموعة أدب بارع، وحكمة بليغة، وتهذيب قوي»

وقد قامت فكرة هذا الكتاب لدى المؤلف عام ١٣٤٠هـ حيث كان يجمع ما يروقه من مقالات، أو حكم، أو قصائد، أو مواقف سواء مما يقرؤه في الصحف، أو في كتب التراث أو في غيرها.

كما أن الكتاب يحتوي على مقالات للمؤلف.

وكان يُخرج ما يجتمع لديه من ذلك ما بين الفينة والأخرى حتى بلغت أجزاء الكتاب أربعة عشر جزءاً أولها عام ١٣٤٠هـ، وآخرها طبع بعد وفاته بعدة أشهر.

وهذه الأجزاء حديقة وارفة الظلال، دانية القطوف، تجد فيها الحكمة، والموعظة الحسنة، والطرفة النادرة والساخرة، والقصيدة الرائعة، والمقالة الرائقة، وفيها حديث عن عزة الإسلام، وأقوال المنصفين فيه من غير أهله، وفيه تطرق لقضايا المرأة وما يحاك حولها، وفيه تمجيد لهذه الأمة وسلفها، ولغتها.

وبالجملة فهو كاسمه حديقة مليئة بما لذ وطاب.

ـ «النقولات المنتقاة»:

١ـ هدية

إلى الرجل المجهول

إلى الرجل الهادئ الثابت البصير، الذي لا يؤلمه الفشل، ولا يبطره الفوز.

إلى الرجل النزيه العزيز المتواضع، الذي لا يغره المجد العاجل، ولا يفتنه التنافس في سبيل الظهور.

إلى الرجل الذي يستطيع أن يذيب شهوته في مصلحة جامِعَته[1]، وأن يحتفظ بقواه لساعات الشدائد.

إلى الرجل الذي يحسن الوقوف في مواقف الشجاعة والإقدام، كما يحسن الوقوف في مواقف الحذر والحيطة.

إلى الرجل كبير النفس الذي ـ إذا وجه وجهه نحو المطمح ـ يمر بالصغائر فلا تعوقه عن مواصلة السير حتى يبلغ الغاية.

إلى هذا الرجل المجهول أهدي هذا الجزء من الحديقة. ١/٧.

٢ـ مرض حب الشهرة

إن الذي يَكِل إلى الناس تقدير قيمته يجعلونه سلعة يتراوح سعرها بتراوحهم بين الحاجة إليها والاستغناء عنها.

والطريقة المُثْلَى أن يقوِّم لنفسه قيمتها، فإن المرء ـ كما يقول بعضهم ـ يساوي القيمة التي يضعها لنفسه، ذلك خيرٌ من أن يطرحها في المزاد على ألسنة الناس.

عباس العقاد. ١٠/٧.

---

١ ـ يعني: أمته.

٣ـ الزوجة

قال أميلو: إن القلب يدفع طالب الزواج إلى الحسناء، والمصلحة تدفعه إلى الدميمة، والعقل وحده يسوقه إلى المرأة الفاضلة. ٧١/٧.

٤ـ السفور بعد الحجاب

قل لمن بعد حجابٍ سَفَرَتْ ... أبهذا يأمر الغيدَ الشرفْ؟

أسفوراً والحيا يحظره ... وتُقى الله وآدابُ السلفْ!

ليست المرأة إلا درَّةً ... أيكون الدرُّ إلاَّ في الصدف؟

أمين ناصر الدين. ٧٤/٧.

٥ـ الرجولة في نظر المتنبي

وما العشقُ إلاَّ غِرَّةٌ وطماعةٌ ... يُعرِّض قلبٌ نفسَه فيُصابُ

وللخُوْد منِّي ساعةٌ ثم بيننا ... فلاةٌ إلى غير اللقاء تُجاب

وللسِّر مني موضعٌ لا يناله ... صديقٌ ولا يُفضي إليه شراب

وغيرُ فؤادي للغواني رَمِيَّةٌ ... وغيرُ بَناني للرخاخ ركابُ

أعزُّ مكان في الدُّنى سرجُ سابحٍ ... وخيرُ جليس في الزمان كتاب

.١٩٧/٧

٦ـ الاعتدال والبساطة

قال شارل وانير: من شاء أن يربي أبناءه على مبادئ الحرية فلينفث فيهم من روح الاعتدال والبساطة، ولا يخش تأثير ذلك في السعادة؛ فإن الاعتدال من أسباب الحصول عليها لا من الوسائل المؤدية إلى الشقاء والنكد. ٢٤/٨.

٧ـ الصابر العظيم

الأشقياء في الدنيا كثير، وأعظمهم شقاءاً ذلك الحزين الصابر الذي قضت عليه ضرورة من ضرورات الحياة أن يهبط بآلامه وأحزانه إلى قرارة نفسه، فيودعها هناك، ثم يغلق دونها باباً من الصمت والكتمان، ثم يصعد إلى الناس باشَّ الوجه، باسم الثغر، متطلِّقاً متهلِّلاً، كأنه لا يحمل بين جنبيه همَّاً ولا كمداً[١].

مصطفى لطفي المنفلوطي. ٨/٣٧.

٨ـ من اعترافاتهم

ـ يقول القس إسحاق تيلر رئيس الكنيسة الإنجليزية: «الإسلام ينشر المدينة التي تعلم الإنسان ما لم يعلم، والتي تقول بالاحتشام في الملبس، وتأمر بالنظافة، والاستقامة، وعزة النفس؛ فمنافع الإسلام لا ريب فيها، وفوائده من أعظم أركان المدنية ومبانيها».

ـ قال واشنطون أرفنج: «القرآن قوانين زكية سنية».

ـ قال جيبون: «القرآن مسلَّم به من حدود الافيانوس الاطلانطيكي إلى نهر الكانج بأنه الدستور الأساسي ليس لأصول الدين فقط، بل للأحكام الجنائية والمدنية، وللشرائع التي عليها مدار حياة نظام النوع الإنساني وترتيب شؤونه».

١ـ ينطبق على هذا قول الحكيم الذي قيل: إنه أحكم بيت قالته العرب:

ولربما ابتسم الكريم من الأذى ... وفؤاده من حرِّه يتأوه

ـ قال غوستاف لوبون: «إن العرب هم سبب انتشار المدنية ببلاد أوربا».
.٨٠/٨

٩ـ ملك القلوب

قدم هارون الرشيد الرقة؛ فانجفل الناس خلف عبدالله بن المبارك، فقالت أُمُ ولدٍ لهارون كانت مشرفة على ذلك: من هذا؟ فقالوا لها: عالم أهل خراسان قدم الرقة يقال له عبدالله بن المبارك، فقالت: هذا والله الملك! لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بِشُرَطٍ وأعوان. ١٢٩/٨.

١٠ـ السعادة قريبة التناول

قال السر تشارلس ويفلد، الذي كان محافظ لندن:

ـ انشُد راحة البال، وتذكرْ أنَّ أثمن الأشياء في العالم لا ثمن له.

ـ ادرسْ صحتك واعْنَ بها: بالرياضة، والهواء الطلق، والنور، والطعام البسيط، وكلٌّ هذه أشياء في متناول يدك.

ـ لا تتأخر في الزواج.

ـ الإفراط في الحذر يزيل من الحياة بهجتها.

ـ احتفظ بصداقة أحبائك وأعزَّائك، وتذكر قيمتها على الدوام.

ـ لا تستصغرْ دخلك، وتذكر أنَّ آلافاً من الناس يعدُّون دخلك ثروة.

ـ ادفع ثمنَ كل ما تشتريه، ولا تستدنْ فإنَّ الدَّين شقاء.

ـ تذكر في عملك أن للدرس والاجتهاد قيمة.

ـ أتقنْ عملك واعرفْ تفاصيله.

ـ إذا كانت لك هموم خاصة بعملك فاقْصُرْها على ساعات العمل، واجعل عقلك طليقاً من قيودها وقت الفراغ.

ـ لا تسأل نفسك «هل أنت سعيد» بل اعمل، وروِّح عن نفسك، وأحبَّ أصدقاءَك، واعمل عملك جهد طاقتك في نزاهة. ٩/١٧١ـ١٧٢.

١١ـ سبيل النجاح في نظر فورد

ـ النظافة.

ـ التثبُّت، والتدقيق.

ـ استخدام المرء كل ما لديه من القوى.

ـ ثقة المرء بمقدرته على إنجاز ما تصدَّى له.

ـ أن لا ينفق المال إلا في الوجوه المجدية والصالحة. ٩/١٧٢.

١٢ـ العمل رياضة العقل

من تفكير آرثر برزباين:

إن أعظم خطر ترتكبه هو إهمالك العمل المفروض عليك لمجرد تصوّرك (أنك تعمل لمصلحة سواك فلا يجب أن تعمل كثيراً).

ولكن اذكر أنَّ كلَّ أمانة تبديها في عملك هي خدمة لذاتك، أنت تعمل لنفسك، إنَّك إذا كنت أميناً في عملك المأجور فإنما تخدم نفسك قبل أن تخدم رئيسك، يوجد شيءٌ واحد فقط يفيدك، ويحسن حالك ويعليك ويرفع مقامك، وذلك الشيء الوحيد هو سعيك واجتهادك.

أنت تبدأ حياتك ولك قوى عقلية معلومة، وقوى جسدية معيَّنة، تلك

القوى العقلية والجسدية لابد لها من المصير إلى إحدى الحالتين:

إما أن ترتقي وتزداد، وإما أن تنحط وتضعف، ومصير قواك هذه متوقف عليك، فإما إلى الارتقاء، وإما إلى الانحطاط.

كل عمل تعمله يفيد مهما كان تافهاً، ولا يفيدك أن تهمل أي عمل توليته؛ فإنك إما أن لا تتولاه، وإما أن تتولاه فتحسن عمله.

قد تعمد إلى التكاسل ظنَّاً منك أنك تتمتع براحة الكسل على حساب الرجل الذي يستخدمك، وهذا الظن يدل على قلة أمانتك، وهو في الوقت نفسه دليل الحماقة. ٩/٢١٢_٢١٣.

ـ مرِّن عقلك بواسطة العمل مهما كان نوع ذلك العمل، راجع تواريخ الرجال الذين نجحوا من قبل تجد أنهم أحسنوا كل عمل وُسِّد إليهم. ٩/٢١٥.

ـ اعمل بقدر ما تستطيع الآن، ولا تحمِّل نفسك ما لا تطيق. ٩/٢١٦.

ـ العمل وحده لا يكفي، بل لابد معه من الاجتهاد والأمانة. ٩/٢١٦.

ـ قد لا تدرك منزلة سامية، ولكن ما دمت أميناً في عملك فأنت ضامنٌ لنفسك النجاة من الفشل، والبعد عن السقوط في الخمول. ٩/٢١٦_٢١٧.

ـ إذا شئت أن تصلح العالم فابدأ بإصلاح نفسك؛ لأن العالم مؤلف من أفراد أنت واحد منهم. ٩/٢١٧.

١٣_ من أقوال شوقي

ـ جئني بالنَّمِر العاقل أجئْك بالمستبد العادل. ١١/١٢٨.

ـ ثقة العاطفة شهر، وثقة العقل دهر. ١١/١٢٨.

ـ من أخلَّ بنفسه في السر أخلَّت به في العلانية. ١١/١٢٨.

- الإنسان لولا العقل عجماء، ولولا القلب صخرة صمَّاء. ١١/١٢٨.
- اثنان في النار دنيا وأخرى: الحاقد والحاسد. ١١/١٢٨.
- بين الحلم والخَوَر جسر أدقُّ من الصراط. ١١/١٢٨.
- يستريح النائم من قيود الحياة، كما يتروح السجين ساعة في فِناء السجن. ١١/١٢٨.
- هلكت أمة تحيا بفرد، وتموت بفرد. ١١/١٢٨.
- الصالحون يبنون أنفسهم، والمصلحون يبنون الجماعات. ١١/١٢٩.
- يهدم الصدرُ الضيق ما يبني العقلُ الواسع. ١١/١٢٩.
- القويُ من قوي على نفسه. ١١/١٢٩.
- جلائل الرغائب مخبوءة في كبار الهمم. ١١/١٢٩.

١٤_ كلمات للإمام أحمد بن حنبل

- ما شبَّهتُ سنَّ الشباب إلا بشيء كان في كمِّي فسقط. ١١/١٣٠.
- ما قلَّ من الدنيا كان أقلَّ للحساب. ١١/١٣٠.
- التوكل قطع الاستشراف باليأس من الناس. ١١/١٣٠.
- الفُتُوَّة ترك ما تهوى لما تخشى. ١١/١٣٠.
- كلُّ شيءٍ من الخير تهتمُّ به فبادر به قبل أن يُحال بينك وبينه. ١١/١٣٠.
- لا تزال بخير ما نويتَ الخير. ١١/١٣٠.
- يؤكل الطعام بثلاث: مع الإخوان بالسرور، ومع الفقراء بالإيثار، ومع أبناء الدنيا بالمروءة. ١١/١٣٠.
- لو أنَّ الدنيا اجتمعت حتى تكون في مقدار لقمة، ثم أخذها امرؤ مسلم

فوضعها في فم أخيه المسلم لما كان مسرفاً. ١٣٠/١١.

١٥_ ذكاء الأعراب

قال أحد عمال الدولة لأعرابي: ما أحسبك تدري كم تصلي في كل يوم وليلة، فقال له الأعرابي: إن أنبأتك بذلك تجعل لي عليك مسألة؟ قال: نعم، فقال الأعرابي:

إن الصلاة أربعٌ وأربعُ ثم ثلاثٌ بعدهنَّ أربعُ
ثم صلاة الفجرِ لا تضيَّعُ

قال: صدقت، فسل، قال: كم فَقَار ظهرك؟ قال: لا أدري: قال: أفتحكم بين الناس وأنت تجهل هذا من نفسك؟. ٢٠٩/١١.

١٦_ شمم العرب

دخل عمارة بن حمزة على أمير المؤمنين المنصور وقعد في مجلسه _ وكان ذا عزَّةٍ وثروة ونفس أبيَّة _ فقام رجل، وقال: مظلوم يا أمير المؤمنين، فقال: من ظلمك؟ قال: عمارة بن حمزة غصبني ضيعتي، فقال المنصور: يا عمارة قم فاقعد مع خصمك، فقال: يا أمير المؤمنين ما هو لي بخصم، إن كانت الضيعة له فلست أنازعه فيها، وإن كانت لي فقد وهبتها له، ولا أنزل عن مقام شرَّفني به أمير المؤمنين لأجل ضيعة. ١٩/١٢.

١٧_ من كلام الأحنف بن قيس

- الإنصاف يثبت المودة. ١٠٤/١٢.
- الرفق والأناة محبوبة إلا في ثلاث: تبادر في العمل الصالح، وتعجل إخراج

ميتك، وتنكح الكفء أيِّمَك. ١٠٤/١٢.

- أنصف من نفسك قبل أن يُنتصف منك. ١٠٤/١٢.
- لا تكوننَّ على الإساءة أقوى منك على الإحسان. ١٠٥/١٢.
- قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل. ١٠٥/١٢.
- العتاب خير من الحقد. ١٠٥/١٢.
- لأفعى تحكك في جوانب بيتي أحبُّ إليَّ من أيّم قد رددتُ عنها كفواً. ١٠٦/١٢.
- لو جلس إليَّ مائة، لأحببتُ أن ألتمس رضا كل واحد بما يسرُّه. ١٠٧/١٢.
- جنِّبوا مجالسَنا ذكر النساء والطعام؛ فإني أبغض الرجل أن يكون وصافاً لفرجه وبطنه. ١٠٧/١٢.
- إياك والغضب، فإنه ممحقة لفؤاد الحكيم. ١٠٧/١٢.

١٨ـ الرجل

- الرجل بصراحته في القول، وإخلاصه في العمل. سعد زغلول ١٣٠/١٤.
- الرجل بأعماله فكلما عظمت كبر مقامه في أعين غيره، وزادته قيمة. مصطفى كامل. ١٣٠/١٤.
- الرجل إذا تكلَّم كثيراً لا يعمل إلا قليلاً. فيكتور هيكور. ١٣٠/١٤.
- الرجل الشجاع هو الذي يعرف أن يصفح. سترين. ١٣٠/١٤.
- الرجل الذي يعمل لمصلحته فقط لا يستحق الاحترام. ميرابو. ١٣٠/١٤.

ـ الرجل الذي لا يرضى بالقليل لا يرضيه شيء. ابيقورس. ١٤/١٣٠.

١٩ـ المرأة

ـ الحياء والصمت أجمل زينات المرأة. ١٤/١٣١.

ـ إن امرأتي هي التي جعلتني من أنا. بسمارك. ١٤/١٣١.

ـ امش وراء الأسد ولا تمش وراء المرأة. سليمان الحكيم. ١٤/١٣١.

٢٠ـ من كلام سعيد بن المسيب سيد التابعين

ـ ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيبه. ١٤/١٥٣.

ـ من كان فضله أكثر من نقصه وُهب نقصه لفضله. ١٤/١٥٣.

ـ من استغنى بالله افتقر الناس إليه. ١٤/١٥٣.

ـ ما يئس الشيطان من شيء إلا أتاه من قبل النساء. ١٤/١٥٣.

٢١ـ من كلام طاووس

ـ كان طاووس بن كيسان من سادة التابعين في اليمن، مات بمكة حاجاً فحمل نعشه عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وبعث هشام ابن عبدالملك ولي عهده حرساً في موكب جنازته، ولم يعلم بموته أحد من الحجاج إلا سار في موكبه، حتى لقد سقطت قلنسوة عبدالله بن الحسن، وتقطَّع رداؤه وهو يحمل النعش؛ لشدة الزحام.

ومن أقوال طاووس:

ـ لكل شيءٍ غاية، وغاية المرء حسن عقله. ١٤/١٨٠.

ـ لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج. ١٤/١٨٠.

ـ حج طاووس فخرج على القافلة التي هو فيها أسد أزعجها طول الليل فلم ينم من أهلها أحد، فلمَّا زال عنهم الخطر ساعة الفجر ناموا كلهم وقام طاووس يصلي ويتهجد، فقيل له لقد بت الليلة متعباً فهلاَّ تنام؟ فقال: هذه ساعة ما كنت أحسب أن أحداً ينام عنها ولو أوتي بها مثل جبل أبي قبيس ذهباً. ١٤/١٨٣.

٢٢ـ خصومة العظماء

قام رجل في أيام صفين إلى معاوية رضي الله عنه وقال له: اصطنعني فقد قصدتك من عند أجبن الناس وأبخلهم وألكنهم.

فقال معاوية: من الذي تعنيه؟

فقال الرجل: علي بن أبي طالب.

فقال معاوية: كذبت يا فاجر، أمَّا الجبن فلم يك قط فيه، وأمَّا البخل فلو كان له بيتان بيت من تبر وبيت من تبن لأنفق تبره قبل تبنه، وأمَّا اللكن فما رأيت أحداً يخطب أحسن من عليّ إذا خطب، قم قبَّحك الله.

ومحا معاوية اسم الرجل من ديوانه. ١٤/٢١٠.

تاسعاً: نقولات مختارة من كتاب:

مقام إبراهيم تأليف محمد طاهر الكردي المكي

نقولات من كتاب: مقام إبراهيم ـعليه السلامـ ونبذة عن ترجمة إبراهيم الخليل وتاريخ الكعبة المشرفة والمسجد الحرام وفضل مكة.

«**تعريف بالمؤلف**»: هو محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي المكي الخطاط بالمعارف العامة بمكة المكرمة، وكاتب مصحف مكة المكرمة رحمه الله.

هذا وإن له عدداً من المؤلفات منها ما ذكره في خاتمة الكتاب المذكور حيث ذكر في آخر صفحة من الكتاب عشرين كتاباً من مؤلفاته، ومنها:

١ـ تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه.

٢ـ مقام إبراهيم ـعليه السلامـ.

٣ـ تاريخ الخط العربي وآدابه.

٤ـ تحفة العباد في حقوق الزوجين والوالدين والأولاد.

٥ـ حسن الدعابة فيما ورد في الخط وأدوات الكتابة.

٦ـ كراسة الحرمين في تعليم خط الرقعة (سبعة أجزاء).

٧ـ مجموعة الحرمين في تعليم خط النسخ (جزءان).

٨ـ رسالة في الدفاع عن الكتابة العربية في الحروف والحركات.

٩ـ منظومة في صفة بناء الكعبة المعظمة.

١٠ـ إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة (شافعي).

١١ـ مختصر المصباح والمختار (في اللغة العربية).

١٢ـ الهندسة المدرسية.

١٣ـ بدائع الشعر ولطائف الفن.

١٤ـ المحفوظات الأدبية الممتازة.

١٥ـ الموعظة الحسنة في عدم اليأس وفي الصبر والتفويض.

١٦ـ تحفة الحرمين في بدائع الخطوط العربية.

١٧ـ نفحة الحرمين في تعليم خطي النسخ والثلث.

١٨ـ عجائب ما رواه التاريخ.

١٩ـ تراجم من لهم قوة الحافظة.

«**تعريف بالكتاب**»: هذا الكتاب من الكتب النادرة، وعدد صفحاته ١٦٤ صفحة، وقد طبع طبعته الأولى وهي التي بين أيدينا عام ١٣٦٨هـ ـ١٩٤٨م.

وقد طبعته شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر.

وهذا الكتاب واضح من عنوانه، ومع ذلك فقد زاد على ما في العنوان لطائف وملح؛ ولهذا قال في خاتمة الكتاب ص١٥٣: «لقد فرغت من تأليف هذا الكتاب الوحيد القيم النفيس الفريد في اليوم الثامن من ربيع الأول سنة ألف وثلاثمائة وسبع وستين هجرية.

وذلك بمكة المكرمة بحارة الشامية ـ زادها الله أمناً وأماناً، ورزقاً ورخصاً وعمراناً ـ فكان اشتغالي به مدة أربعة أشهر وبضعة أيام، وقد سميته (مقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ) مع أن شطره الأول يتعلق بالكعبة والمسجد الحرام، والشطر الثاني يتعلق بالمقام، لكن لا تعاب الزيادة على العنوان، وإنما يعاب فيه النقصان.

ومن حسن المصادفات أن يتلو طبعَ هذا الكتاب طبعُ مصحف مكة المكرمة الذي هو أول مصحف يطبع بها، والذي هو أول مصحف كتبته بيدي ـ بتوفيق الله

وفضله_» . ا.هـ

ومع صغر حجم الكتاب وأن صفحاته ليست بتلك الكثرة إلا أنه احتوى على مباحث كثيرة نفيسة، يتضح ذلك من خلال استعراض فهرس الكتاب، فضلاً عما احتواه، وهذا سرد لما جاء في فهرس الكتاب:

- مقدمة الكتاب.
- صورة المسجد الحرام.
- ما ورد في القرآن في فضل البيت الحرام ومقام إبراهيم _عليه السلام_.
- أسماء السور وأرقام الآيات التي ورد فيها ذكر سيدنا إبراهيم _عليه السلام_.
- صورة كتابة بخط المؤلف.
- نبذة من ترجمة إبراهيم _عليه الصلاة والسلام_.
- وفاته ومكان قبره.
- الأنبياء الذين ليسوا من ذريته _عليه السلام_.
- صورة للكعبة المشرفة وحجر إسماعيل _عليه السلام_.
- تتمة في ترجمة إبراهيم _عليه السلام أيضاً_.
- قصة من نزل إلى قبره الشريف وشاهده مع بعض الأنبياء _عليهم الصلاة والسلام_.
- بناء السور حول قبره الشريف وصفته.
- هجرة إبراهيم إلى مكة بابنه إسماعيل وأمه هاجر.
- بناء إبراهيم الكعبة المعظمة.
- سبب ارتفاع الشوارع عن أرض المسجد الحرام، وذكر ما دفن من درجاته.
- فضل الطواف.

- عدد مرّات بناء الكعبة المشرفة.
- شعر في مدح البيت الحرام «لأمير الشعراء شوقي بك».
- صفة بناء الكعبة المعظمة.
- كيفية بناء إبراهيم ـعليه السلامـ.
- كيفية بناء قريش وسببه.
- كيفية بناء عبدالله بن الزبيرـرضي الله عنهماـ وسببه.
- كيفية بناء الحجاج بن يوسف الثقفي.
- مقدار حجر إسماعيل ـعليه السلامـ.
- سبب بناء الحجاج الكعبة.
- كيفية عمارة السلطان مراد الرابع.
- بيان ما مرّ من السنين بين كل بناء وبناء.
- رسم الكعبة المعظمة على صفة كل بناء «للمؤلف».
- منظومة في صفة بناء الكعبة المعظمة «للمؤلف».
- مقاييس الكعبة وحدود المطاف بالأمتار.
- تراجم بُناة الكعبة في أدوارها الأربعة.
- ترجمة قريش.
- ترجمة عبدالله بن الزبيرـرضي الله عنهماـ.
- ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفي.
- ترجمة السلطان مراد الرابع.
- اختلاف بنايات الكعبة وتعميرها.
- منع مالك بن أنس هارونَ الرشيدَ من هدم الكعبة وبنائها ثانياً، ومنع العلماء

السلطان أحمد من ذلك _أيضاً_.

- وجوب تعمير الكعبة إن حدث فيها خراب.
- بقاء الكعبة إلى قيام الساعة.
- خزانة الكعبة.
- وصف أمير الشعراء للكعبة والمسجد الحرام.
- صورة للحجاج وهم في انتظار الصلاة بالمسجد الحرام.
- الحوادث الواقعة في الكعبة والمطاف.
- قصة حكيم بن حزام الذي ولد في الكعبة.
- الثعبان الذي سكن في الكعبة خمسمائة سنة.
- الحية التي طافت بالكعبة.
- الطائر الذي أتى للطواف.
- الجان الذي طاف بالكعبة.
- الجمل الذي طاف بالكعبة.
- الجمل الذي هرب من صاحبه وجعل يطوف بالكعبة.
- الرجل الذي التصق عضده بعضد امرأة في الطواف.
- من مات في جوف الكعبة من الزحام.
- قصة الصنمين: إساف ونائلة.
- قتل الرجل الذي ضرب الحجر الأسود.
- قتل الشريف أحمد بن محمد في المطاف.
- عدد من قتلهم القرامطة في المسجد الحرام.
- الحادثة التي وقعت في المطاف لحضرة صاحب الجلالة ملك المملكة العربية

السعودية.

- بعض ما كان معلقاً في جوف الكعبة.
- حدود الحرم وأنصابه.
- مكة في الجاهلية.
- موضع دار الندوة.
- سور مكة.
- صورة جزء من المسجد الحرام وبعض بيوت مكة وجبالها.
- الطواف في الجاهلية.
- الجلوس في الحِجْر وفي المطاف.
- ترجمة حرب بن أمية.
- حرمة مكة المشرفة.
- فضائل الحرم المكي.
- فضائل الصلاة في المسجد الحرام.
- المراد بالمسجد الحرام.
- صورة للمسجد الحرام والناس فيه ساجدون في الصلاة.
- حدود المسجد الحرام وذرعه بالأمتار.
- رسم المسجد الحرام.
- الزيادات التي حصلت في المسجد الحرام.
- ما أنفقه المهدي العباسي في عمارته للمسجد الحرام.
- عمارة باب الزيادة وباب القطبي.
- عمارة باب إبراهيم.

- رسم يبين تلك الزيادات التي وقعت في المسجد «للمؤلف».
- نادرة ظريفة في المحاورة التي وقعت بين أهل مكة وأهل المدينة.
- حمام الحرم المكي.
- صورة لوقوع الحمام بالمسجد الحرام.
- وقوع الحمام على الكعبة المعظمة والكلام في ذلك.
- تنظيف المسجد الحرام من الحمام.
- صورة أخرى للحمام بالمسجد الحرام.
- اقتراح المؤلف في ترحيل الحمام من المسجد.
- مقام إبراهيم ـعليه الصلاة والسلامـ.
- سنية الصلاة خلف المقام.
- الحجر الأسود وحجر المقام من أقدم الآثار الإسلامية.
- صفة المقام.
- عبارة الأزرقي في ذلك.
- عبارة ابن جبير الأندلسي في رحلته عن المقام.
- عبارة الفاسي في شفاء الغرام.
- عبارة الشيخ عبدالله باسلامة.
- فتح مقصورة مقام إبراهيم ـعليه السلامـ لمؤلف هذا الكتاب بأمر الحكومة.
- صورة مقصورة مقام سيدنا إبراهيم.
- وصف المؤلف للمقام بالتفصيل والتوضيح.
- حجم المقام وقياسه بالسنتيمتر.
- مقدار غوص قدمي سيدنا إبراهيم ـعليه السلامـ في حجر المقام.

- قياس قدمي سيدنا إبراهيم بالسنتيمتر.
- ما كتب على الفضة المحيطة بالمقام.
- صورة مقام سيدنا إبراهيم ورسم قدميه الشريفين «للمؤلف».
- مقدار طول سيدنا إبراهيم ـعليه السلامـ.
- ترجمة أبي جهم القرشي الذي حضر بناء الكعبة مرتين.
- موضع المقام.
- أرجح الأقوال في موضع المقام.
- فضل الحجر الأسود.
- وضع المقام في مكانه الحالي.
- سيل أم نهشل أيام عمر؛ وسيل عام ١٣٦٠هـ.
- فضل عمر بن الخطاب وحسن رأيه في تأخير المقام.
- زيادة عمر رضي الله عنه في المسجد الحرام.
- أول من وضع الحصى وعمل المماشي في المسجد الحرام.
- ردم عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأعلى مكة جهة المدَّعى.
- تطويق الحجر الأسود بالذهب والفضة.
- صورة الحجر الأسود وهو مطوق بالفضة وهو عدة قطع.
- صورة المؤلف واضعاً يده على الطوق الفضي للحجر الأسود.
- تطويق المقام بالذهب والفضة.
- وضع المقام في مقصورة.
- عمارة وتجديد مقصورة المقام وسقفها.
- هدم سعود بن عبدالعزيز قبة المقام سنة ١٢٢٥هجرية.

- كسوة المقام.
- اقتراح المؤلف رفع ستارة المقام ليراه جميع الناس.
- منبر المسجد الحرام.
- ظهور رجلين مدفونين تحت المنبر.
- صورة منبر المسجد الحرام.
- أول من خطب فوق منبر بمكة.
- وجوب صون المقام والمحافظة عليه.
- فوائد وضع المقام في مقصورة.
- سنية استلام الركنين بشرط عدم الأذية.
- حِجر إسماعيل وقبره ـعليه السلامـ.
- رأي المؤلف في دفن إسماعيل بالحِجر.
- الرخامة الخضراء التي بداخل الحِجر.
- علة وضع الرخامة الخضراء بداخل الحجر وتحت الميزاب.
- الرخامات الصُّفر التي فوق الحفرة التي عند باب الكعبة.
- تقدير تلك الرخامات وأنها من أبرك الآثار القديمة وأندرها.
- أثمن هدايا الكعبة المعظمة.
- فرش الحِجر بالبلاط.
- وضع كسوة على جدار الحجر.
- الحفرة التي عند باب الكعبة.
- أول من غسل الكعبة.
- الرد على من يقول إن القرامطة استبدلوا الحجر الأسود.

- الرد على من يقول إن الحجر الأسود من النيازك.
- فضل إبراهيم وموسى على الأمة المحمدية.
- كلمة ختامية للمؤلف.
- من أقوال مؤلف الكتاب في الحكم والأمثال.

بعض قصائد من منظوماته.

والكتاب ـ في الجملة ـ نفيس في بابه، لطيف في وفرة مادته، وإن كان لا يخلو من إيراد الأحاديث الضعيفة، والروايات الواهية وما إلى ذلك من الملحوظات خصوصاً في شأن الخليل ـعليه السلامـ.

ـ «**النقولات المنتقاة**» : قال رحمه الله :

١ـ ولقد أحصى الشيخ عبدالوهاب النجار رحمه الله سور القرآن التي ورد فيها ذكر سيدنا إبراهيم ـعليه السلامـ والآيات الكريمة، وفيما يلي هذا الإحصاء، نقلناه من كتاب أبي الأنبياء إبراهيم ـعليه الصلاة والسلامـ.

رقم مسلسل	السورة	رقم السورة	رقم الآيات
١	البقرة	٢	١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٠، ٢٥٨، ٢٦٠
٢	آل عمران	٣	٣٣، ٣٥، ٦٧، ٦٨، ٧٤، ٩٥، ٩٧
٣	النساء	٤	٥٤، ١٢٥، ١٦٣
٤	الأنعام	٦	٧٤، ٧٥، ٨٣، ١٥١
٥	التوبة	٩	٧٠، ١١٤
٦	هود	١١	٦٩، ٧٤، ٧٥، ٧٦
٧	يوسف	١٢	٦، ٣٨
٨	إبراهيم	١٤	٣٦
٩	الحجر	١٥	٥١
١٠	النحل	١٦	١٢٠، ١٢٣
١١	مريم	١٩	٤١، ٤٦، ٥٨

١٢	الأنبياء	٢١	٥١، ٦٠، ٦٢، ٦٩
١٣	الحج	٢٢	٢٦، ٤٣، ٧٨
١٤	الشعراء	٢٦	٦٩
١٥	العنكبوت	٢٩	١٦، ٣١
١٦	الأحزاب	٣٣	٧
١٧	الصافات	٣٧	٨٣، ١٠٤، ١٠٩
١٨	ص	٣٨	٤٥
١٩	الشورى	٤٢	١٣
٢٠	الزخرف	٤٣	٢٦
٢١	الذاريات	٥١	٢٤
٢٢	النجم	٥٣	٢٧
٢٣	الحديد	٥٧	٢٦
٢٤	الممتحنة	٦٠	٤
٢٥	الأعلى	٨٧	١٩

ص٨_٩

٢_ ويكنى إبراهيم _عليه السلام_ أبا الضيفان، قيل إنه ولد بغوطة دمشق في قرية يقال لها برزة في جبل يقال له قاسيون، والصحيح أنه ولد ببابل من أرض الكلدانيين، وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه إذ جاء مُعيناً لابن أخيه لوط _عليه السلام_. ص١٢

٣_ ثم إن إبراهيم _عليه السلام_ رجع إلى الأرض المقدسة التي كان فيها ومعه

أنعام وعبيد ومال كثير، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية، وكانت زوجته سارة عاقراً لا يولد لها فقالت لإبراهيم: إن الله قد أحرمني الولد؛ فادخل على أَمَتي هذه لعل الله يرزقك منها ولداً، فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم ـعليه السلامـ فحملت منه ثم وضعت إسماعيل ـعليه السلامـ ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة، وذلك قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة، ولما ولد إسماعيل أوحى الله إلى إبراهيم يبشره بإسحاق من سارة فخرّ لله ساجداً. ص١٣

٤ـ ولقد ابتلى إبراهيم ـصلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلينـ بثلاث مصائب كل واحدة أكبر من أختها:

الأولى: أراد ذلك الجبار الكافر اغتصاب زوجته سارة، فعصمها الله ـتعالىـ منه فرجعت إليه طاهرة نقية منصورة إكراماً له ـعليه السلامـ فإنه كان يحبها حباً شديداً لدينها، وقرابتها منه، وحسنها الباهر.

الثانية: أمره الله ـعز وجلـ بذبح ولده فاستسلم لأمر الله هو وابنه، فحين أضجعه كما تضجع الذبائح، وأمرّ السكينَ على حلقه لم تقطع شيئاً، فعند ذلك فداه الله ـتعالىـ برحمته بكبش أبيض أعين أقرن قد رعى في الجنة أربعين خريفاً هبط عليه من ثبير وله ثغاء[1] فذبحه بمنى؛ فهذا البلاء المبين، وقد ورد ذلك صريحاً في القرآن الكريم.

الثالثة: إلقاؤه في النار بسبب مناظرته لأهل بابل الذين كانوا يعبدون الأصنام، وقد كانت مناظرة عقلية مفحمة انتصر بها عليهم حتى رجعوا إلى أنفسهم، وقالوا: إنكم أنتم الظالمون، ثم انقلبوا فقالوا: إنا وجدنا آباءنا لها عابدين، ثم أجمعوا على

١ـ الثغاء: صوت الشاة والمعز وما شاكلهما، والثاغية: الشاة، والراغية: البعير.

قال في مختار الصحاح، وثبير: جبل بين مكة ومنى، ويرى من منى وهو على يمين الداخل منها إلى مكة، قاله في المصباح المنير.

إحراقه بالنار فرموه فيها فكانت عليه برداً وسلاماً لم يمسسه سوء، بل كان على أحسن حال مدة إقامته فيها، والقصة مذكورة في القرآن العظيم. ص١٣_١٤

٥_ وكذلك وقع لإبراهيم _عليه السلام_ كثير من الأمور العظيمة المدهشة، منها:

أ_ مناظرته مع نمرود المذكورة في القرآن حيث يقول الله _تعالى_: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ...﴾ البقرة:٢٥٨.

ب_ طلبه من الله _تعالى_ أن يريه كيف يحيي الموتى كما هو صريح في قوله _تعالى_: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنْ الطَّيْرِ﴾ البقرة:٢٦٠.

جـ_ أنه أول من عمر مكة، وأسكن فيها من ذريته، وبنى بها الكعبة المعظمة؛ قال الله _عز شأنه_: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ. وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ الحج:٢٦_٢٧. ص١٤_١٥

٦_ توفي إبراهيم الخليل _عليه الصلاة والسلام_ عن مائة وخمس وسبعين سنة، وقيل: وتسعين سنة، وقيل: عاش مائتي سنة، وتولى دفنه إسماعيل وإسحاق _عليهم الصلاة والسلام_ ودفن عند امرأته سارة، وكانت توفيت قبله بقرية (حَبْرون) بفتح الحاء المهملة ثم موحدة ساكنة، وهي البلدة المعروفة بالخليل اليوم، ولها من العمر مائة وسبع وعشرون سنة، فحزن عليها إبراهيم واشترى من رجل من بني حيث، يقال له عفرون بن صخر مغارة بأربعمائة مثقال ودفن فيها سارة هنالك. ص١٥

٧_ وكان إبراهيم _عليه الصلاة والسلام_ يشبه نبينا محمداًﷺ كما ورد ذلك صريحاً

في بعض الأحاديث المذكورة في صحيح مسلم، وأن إبراهيم ـعليه السلامـ أول من أضاف الضيف، وأول من رأى الشيب، وأول من قص شاربه، وأول من اختتن، وأول من استحدّ، وأول من لبس السراويل.

قال ابن عباس ـرضي الله عنهماـ: الإسلام ثلاثون سهماً، وما ابتلي أحد بهذا الدين فأقامه إلا إبراهيم، قال الله ـتعالىـ: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (النجم:٣٧) فكتب الله له براءة من النار.

وعن ابن عباس ـأيضاًـ في قوله ـتعالىـ: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ (البقرة: ١٢٤) قال ابتلاه الله ـعز وجلـ بالطهارة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد: في الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس؛ وفي الجسد: تقليم الأظافر، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل أثر الغائط، والبول بالماء. اهـ من تاريخ الطبري. ص١٥ـ١٦

٨ـ كانت صحف إبراهيم أمثالاً، ولم نعثر مع الأسف الشديد في المراجع التي اطلعنا عليها، والمؤلفات التي رجعنا إليها، واقتبسنا منها على هذه الأمثال كلها؛ وكم كنا نود أن نقرأ ويقرأ الناس صحف إبراهيم، لكن شاء الله أن تختفي تلك الصحف عن الأنظار؛ لتقادم العهد، وأن تصبح في غير متناول الأيدي. ص١٨

٩ـ ولم يرو الرواة من هذه الصحف غير مثالين فقط من تلك الأمثال، وما أظن مُؤرخاً أو راوياً جاء بالأمثال كلها وفي ما يلي نص المثالين:

أـ أيها الملك المغرور المبتلى إني لم أبعثك لتجمع بعضها إلى بعض، ولكن بعثتك لتنصر دعوة المظلوم؛ فإني لا أردها وإن كانت من كافر.

بـ على العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، ويتفكر في صنع الله، وساعة يحاسب نفسه فيما قدم وأخر، وساعة يخلو

فيها بحاجته من الحلال لا من الحرام في المطعوم والمشروب وغيرهما.

وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه، ومن علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه. ص١٨

١٠ـ بُنيت الكعبة المعظمة إحدى عشرة مرة: بنتها. (١) الملائكة. (٢) ثم آدم. (٣) ثم شيث. (٤) ثم إبراهيم. (٥) ثم العمالقة. (٦) ثم جرهم. (٧) ثم قصي. (٨) ثم قريش. (٩) ثم عبدالله بن الزبير. (١٠) ثم الحجاج. (١١) ثم السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد من سلاطين آل عثمان، وذلك سنة أربعين وألف هجرية، وقد نظم بعضهم أسماء هؤلاء فقال:

بنى الكعبةَ الغراءَ عشرٌ ذكرتُهم ... ورتَّبتهم حَسْبَ الذي أخبر الثقه

ملائكةُ الرحمنِ، آدمٌ، ابنُه ... كذاك خليلُ اللهِ، ثم العمالقه

وجُرهمُ، يتلوهم قصيٌّ، قريشهم ... كذا ابنُ الزبيرِ، ثم حَجّاجُ لاحقه

ومن بعدهم من آل عثمان قد بنى ... «مرادٌ» حماه الله من كل طارقه

ص٣٣

١١ـ مقاييس الكعبة وحدود المطاف:

لقد قمنا في شهر رجب عام ١٣٦٧هـ بأخذ أقيسة الكعبة، وما حولها من المطاف ما عدا ارتفاعها من سطحها للأرض؛ فإننا لم نتمكن من أخذ قياسه، وإنما ذكره إبراهيم رفعت باشا رحمه الله في كتابه مرآة الحرمين، ولم نر من تعرَّض قبلنا لحدود المطاف بالمتر، وإليك بيان كل ذلك في هذا الجدول:

سنتيمتر	متر	بيان بارتفاع الكعبة وطولها، وحدود المطاف
٠٠	١٥	مقدار ارتفاع الكعبة من الأرض للسماء «كما ذكره صاحب مرآة الحرمين»
٥٨	١١	مقدار طول الكعبة المعظمة من الجهة الشرقية التي بها الباب «من غير الشاذروان».
٩٣	١١	مقدار طولها من الجهة الغربية «من غير الشاذروان».
٢٢	١٠	مقدار طولها من الجهة الشامية أي من جهة حجر إسماعيل «من غير الشاذروان».
١٣	١٠	مقدار طولها من الجهة اليمانية أي ما بين الركنين «من غير الشاذروان».
٥٠	١	مقدار ارتفاع الحجر الأسود عن الأرض (بحيث يمكن لكل إنسان تقبيله بسهولة).
٠٠	٢	مقدار ارتفاع باب الكعبة عن الأرض.
٠٠	٢	مقدار طول بابها.
٦٥	٢	مقدار فتحة حِجْر إسماعيل من الجهة الشرقية.
٥٨	٢	مقدار فتحة حِجْر إسماعيل من الجهة الغربية.
٣٦	٨	طول ما بين ميزاب الكعبة إلى وسط جدار حِجْر إسماعيل.
١٠	١١	طول ما بين شاذروان الكعبة من الجهة الشرقية إلى شباك مقام إبراهيم.

٠٠	١٢	طول ما بين جدار حِجْر إسماعيل من وسطه من الجهة الشامية إلى دائر المطاف الذي أمام المقام الحنفي.
٨٠	١٥	طول ما بين شاذروان الكعبة من وسط جدار الجهة اليمانية إلى دائر المطاف الذي أمام المقام الحنبلي.
٨٠	١٥	طول ما بين شاذروان الكعبة من وسط جدار الجهة الغربية إلى دائر المطاف الذي أمام المقام المالكي.

ص٤٩

١٢ـ وكان السلطان مراد رحمه الله كثير الإحسان لأهل الحرمين، وأمر مصر وغيرها من الجهات بإجراء حبوبهم، وإرسال غلات أوقافهم، وكان يحثهم بذلك على الدوام.

وكان ـأيضاًـ كثير الالتفات إلى أخبار الرعية مطلقاً، وكان كثير البحث عن أحوال ولاة البلدان لا يغفل عنهم بحيث صار الولاة لا يجاوزون حداً.

وفي زمانه وقع السيل العظيم بمكة المشرفة سنة تسع وثلاثين وألف ودخل المسجد الحرام، وبسببه انهدمت الكعبة المعظمة، فقام بتعميرها وبنائها السلطان مراد، وهذا من أعظم مناقبه وأفخر أعماله، وهو الذي أمر بإبطال القهاوي في جميع ممالكه، ومنع شرب الدخان، واستعمال النشوق، وكان يجازي على ذلك.٥٦ـ٥٧

١٣ـ ولقد خصَّ الله ـتعالىـ بيته الحرام بالمهابة والتعظيم، والإجلال والتكريم، وأحاطه بالأسرار القدسية، والأنوار الإلهية، يقف عنده الزائر خاشعاً خاضعاً، ويطوف به الجبار ذليلاً متواضعاً، ويقوم لديه المذنب منكسراً باكياً، ويبتهل المضطر إلى الله أمامه راجياً داعياً، فعندها تستجاب الدعوات، وتقال العثرات، وتسكب العبرات. ص٦١

١٤ـ بمكة حَمَامٌ مملوك، وحَمَامٌ غير مملوك: أما الأول فأجناس مختلفة وأشكال متباينة يقتنيه الناس كما في البلدان الأخرى.

وأما الثاني فهو حمام الحرم الذي نعقد له هذا الفصل، وله شكل خاص، وخلقة لا تتغير ولا تتبدل، ولونه واحد لا يختلف، فمن رأسه إلى رقبته شديد الزرقة والبروق، وطرف جناحيه وذنبه أسود، وباقيه أزرق يضرب إلى البياض، وفي جناحيه مما يلي ذنبه خطان أسودان لا يوجدان في غير حمام الحرم فهما له بمثابة «ماركة مسجلة» وشارة خاصة، ويقال لحمام الحرم حمام مكة، وحمام رب البيت، وهو منتشر بالحجاز، وبالأخص بمكة المشرفة؛ فإنها تكاد تكون موطنه ومنبعه.

أما في غير الحجاز فقد يوجد بها نادراً، فقد رأينا منه بمصر قليلاً يسمونه الحمام البري، ورأينا منه في بلد الموصل بالعراق، وهو في غير مكة لا يأوي كثيراً إلى المساجد، وإنما يكون مملوكاً، ويقال: إنه يوجد في بعض جهات الهند من هذا الحمام بعضه مملوك، وبعضه وحشي يصاد. ص٩٨

١٥ـ ولقد تكلم بعضهم عن بدء وجود هذا الحمام بمكة، ولكن نرى أن كل ما ذكروه إنما هو من باب الحدس والتخمين؛ فإن الكلام عن بدء وجود أي حيوان لا بدّ من استناده إلى دليل قاطع، وبرهان ساطع؛ حتى لا يتطرق الشك والاحتمال إليه.

نعم يمكننا أن نقول: إن الحمام مطلقاً كان موجوداً بمكة أيام الجاهلية. أما كون حمام الحرم متى نشأ بمكة؟ أو متى جاء إليها؟ وهل هو من نسل الحمامتين التي عشّشتا على غار ثور حينما اختبأ فيه رسول الله ﷺ مع صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه؟ فكل ذلك لا يعلمه إلا الله ـسبحانه وتعالىـ.

ولما كان الدين الإسلامي الحنيف منع الصيد في الحرم صار هذا الحمام لا يخاف من الناس بل يقرب منهم، وربما وقع على رأس بعضهم أو كتفه إذا كان في يديه حبّ

يلقيه إليه، وكان ابن عمر يغشاه الحمام على رحله وطعامه وثيابه ما يطرده، وإن رجلاً قال لعطاء: أجعل بيضة دجاجة تحت حمام مكة؟

قال: لا؛ أخشى أن يضر ذلك بيضها، وقتل غلام من قريش حمامة من حمام الحرم فقال ابن عباس: فيها شاة.

فهذا مما جعل حمام مكة لا يستوحش من الناس، ويا ليته ابتعد عنهم بُعدَ الصقر والغراب؛ فقد تضرروا منه ضرراً بليغاً؛ فإنه يدخل عليهم في منازلهم، ويقع على طعامهم، ويلوّث بِذَرْقِهِ الأرض والفراش، وكلما طردوه رجع إليهم ما دام يرى عندهم ما يؤكل، وهو يُرى كثيراً في طريق مكة وجدة، حيث يركب فوق الجمال المحملة بالحنطة والحبوب، ويخرق أكياسها بمنقاره القوي، ولا يطير من فوقها حتى يشبع. ص٩٨_٩٩

١٦_ وقد لاحظنا على حمام الحرم بمكة فقط، جملة أمور، منها:

أ_ أن حمام الحرم لا يألف حماماً من غير جنسه، ولا يتزاوج منه إلا إذا حبس شخص حمامة من حمام الحرم وحمامة من غيره في قفص مدة طويلة، وهذا نادر جداً.

ب_ حمام الحرم يشارك الحمام المملوك في أكله وشربه إذا وجد إلى ذلك سبيلاً، بخلاف العكس.

جـ _ حمام الحرم أشد نَهَماً، وأكثر أكلاً من الحمام الآخر، وإذا طرد حين يأكل فلا يطير سريعاً، ويرجع حالاً إذا طار.

د_ حمام الحرم أعظم نشاطاً، وأسرع حركة من الحمام المملوك سواء في طيرانه، وحدّة نظره، وخصامه مع جنسه، وانقضاضه لالتقاط الحبوب؛ فلا تفوته الفرصة قط.

هـ ـ إذا نثر أحد حبوباً في المسجد الحرام أو في أي مكان تجد حمام الحرم يسقط لالتقاطها بالآلاف من غير عدد ، ولا تجد بينها حمامة واحدة من غير جنسه.

وـ إذا نثر شخص حبوباً أياماً متوالية في مكان مخصوص وفي وقت معلوم فإن حمام الحرم يأتي إلى ذلك المكان في نفس الوقت المحدد على الدوام.

زـ حمام الحرم إذا بنى عشه لبيضه وفراخه لا يبنيه في الخرابات والجبال ، وإنما يبنيه في وسط العمران ومنازل الناس ، وفوق الأبواب والطاقات وبين الفجوات.

حـ ـ حمام الحرم له شكل خاص ، وخلقة ثابتة لا تتغير، ولا تتبدل على مر السنين والأعوام ، كما ذكرنا ذلك في أول الكلام.

طـ بهذه الأمور يمتاز حمام الحرم عن غيره، ويشترك معه في الصفات الخاصة بمطلق الحمام ، كاتخاذه زوجة واحدة ، وغيرته على أنثاه ، وهيامه بها ، وشوقه وحنينه إليها ، ...إلخ. ص٩٩

١٧ـ غالب الناس يظن أن حمام مكة لا يعلو الكعبة المشرفة حرمة لها ، وإن وقع عليها فإنما ذلك للاستشفاء من مرض أصابه.

فهذا الظن في غير محله؛ لأن حمام الحرم قد يقع على الكعبة في النادر كما نشاهده؛ أما غيره من الحمام الأبيض فلا يقع على الكعبة مطلقاً ، بل لا يأتي المسجد الحرام على سعته.

والسبب في عدم وقوع الحمام على الكعبة المعظمة بكثرة ما يأتي :

أـ أن الحمام يتطلب العلو ، والكعبة المشرفة بالنسبة لما حولها من البيوت قصيرة.

بـ جميع الطيور من حمام أو غيره لا يحب الجلوس على سطح مستو ناعم مفروش بالرخام إلا إذا كان فوقه حب فيأكله ويطير، وإنما يحب الجلوس على ما برز من الأخشاب ، والأعواد ، والحجارة ، والشرفات ، والأغصان ، والحبال الممدودة ،

وغيرها من كل ما يمكنه أن يستمسك عليه بمخلبه كما يحب المشي والوقوع على التراب.

والكعبة ليس بها شيء بارز يستمسك عليه، بل إنها مغطاة بالكسوة الحريرية، وسطحها صغير مفروش بالرخام الأملس معرض لحرارة الشمس المحرقة، وليس عليه حبوب، حتى يلتقطها الحمام أما ميزابها فالحمام يقع عليه أحياناً لبروزه.

جـ ـ الحمام من طبعه أن يدخل في كل فجوة وفي كل خرق بين الشبابيك والجدران، وليس في الكعبة شيء من ذلك يجلب الحمام. ص١٠٠ـ١٠١

١٨ـ وأما قولهم إذا شاهدوا حمامة فوق الكعبة: إنها ما وقعت عليها إلا للاستشفاء فهو غير صحيح وغير معقول لما يأتي:

أـ أن جميع الحيوانات لا يعقلون، فكيف نسند إليهم طلب الاستشفاء؟

وأيضاً إنهم غير مكلفين، فكيف نقول: إن الحمام لا يعلو الكعبة حرمة لها؟

ثم من أين لنا أن نحكم بذلك، ونحن لا نفهم لغتها، وهي لا تفهم لغتنا.

بـ لو كان وقوع الحمامة فوق الكعبة للاستشفاء يكون معناه أنها عرفت قدسية الكعبة، وشرف المكان؛ فكيف إذن ترمي ذرقها عليها وعلى كسوتها وعلى أرض المسجد الحرام؟

جـ ـ لو كانت الحيوانات تعرف حرمة الكعبة فكيف إذن كانت القطط تصيد الحمام من المسجد، ثم تدخل في جوف الكعبة فتأكله، وتتلوث أرضيتها الطاهرة بدمه وريشه، وذلك حينما هدمها السيل سنة ١٠٣٩ هجرية، وقبل أن يشرع السلطان مراد في عمارتها، وقبل أن يجعل أمير مكة يومئذ ستارة من الخشب وغيره حول ما سقط من البيت الشريف مؤقتاً إلى أن تتم عمارته، كما ذكره الغازي في تاريخ إفادة الأنام نقلاً عن رسالة للشيخ محمد علي بن علان الصديقي الشافعي في عمارة البيت

الحرام؟

ولقد روى الإمام الأزرقي: أن الحمام كان يقع على الكعبة فتتناثر حجارتها، وذلك حينما احترقت أيام ابن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ.

فعلم مما ذكرناه أن ما يشاع لدى الناس: بأن حمام الحرم لا يعلو الكعبة المشرفة، وإن علاها فإنما هو للاستشفاء وَهْمٌ لا حقيقة له، ودعوى لا دليل عليها. ص١٠١

١٩ـ لم يتخذ الحمام المسجدَ الحرامَ مسكنه ومأواه في صدر الإسلام؛ حيث كان صغيراً، ولم يكن له سور ولا سقف، أما الآن ففي المسجد الحرام من الحمام ما لا يحصى ولا يعدّ؛ لاتساعه العظيم، ولكثرة ما فيه من الأروقة، والشرفات البارزة، والأعواد الممدودة، والفجوات العديدة.

والذي يغلب على الظن أن الحمام لم يستوطن المسجد الحرام إلا في عهد الدولة العثمانية حيث إنها خصصت له كل عام كمية كبيرة من الحبوب تنثر له في أرض المسجد، ولا يزال الناس إلى اليوم يرمون له الحبوب فيه خصوصاً الحجاج، فأصبح المسجد الحرام مرعى خصباً للحمام فيه الأمن، والطعام، والماء، والسكن.

ومن المؤلم حقاً أن نرى هذا المسجد الأعظم الذي هو أفضل المساجد على الإطلاق، والذي فيه أول بيت وضع للناس، وفيه آيات بينات مقام إبراهيم ـ ملوثاً بذرق هذا الحمام، ومستقذراً بخرئه النجس في بعض المذاهب، حتى كاد أن يتعذر فيه المشي والصلاة، فتضايق منه الناس، وقد ينبعث من المسجد رائحة كريهة بسبب خرئه إذا جاء مطر قليل. ص١٠١ـ١٠٢

٢٠ـ قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ البقرة: ١٢٥، قال بعضهم عند هذه الآية: يحتمل أن تكون من تبعيضية أو زائدة في الإثبات على مذهب الأخفش، أو بمعنى في، وكل بعيد؛

والأقرب أنها بمعنى عند اـهـ.

والمقام هو بفتح الميم من قام يقوم: موضع القيام، وأما المقام بالضم فهو من أقام يقيم.

واختلفوا في المراد بالمقام فقيل: المسجد كله مقام إبراهيم، وقيل الحرم كله مقام إبراهيم، وقيل: جميع مشاهد الحج كمنى ومزدلفة وعرفة، وقيل: المقام هو الحجر الذي وضعته زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم ـعليه السلامـ حين غسلت رأسه،

وقيل: مقام إبراهيم هو الحجر الذي قام عليه إبراهيم ـعليه السلامـ عند بناء الكعبة، وكان يرتفع به كلما ارتفع البناء[1] وإلى هذا أشار صاحب نظم عمود النسب بقوله:

وكلما طال البناء ارتفعا به المقام في الهوا ورفعا

به القواعد وفيه قدم تشبهها للهاشمي قدم

وحين بالحج الخليل أذّنا وفي كلا أُذْنيه أصبعاً ثنى

أيضاً كأطوال الجبال ارتفعا به وكل من يحج أسمعا

فهذا القول الأخير هو الصحيح المعوّل عليه؛ حيث يفهم من الآية أنه مقام مخصوص، وذلك بالنظر إلى الأمر بالصلاة عنده؛ أما بالنظر إلى معناه اللغوي فإنه يصدق بجميع الأماكن التي قام عليها إبراهيم ـعليه السلامـ ومن تأمل قوله ـتعالىـ: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَاركاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ آل عمران: ٩٦ـ٩٧ وقوله ـتعالىـ: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾

١ـ ارتفاع المقام بإبراهيم ـعليه الصلاة والسلامـ عند بناء الكعبة وحين أذانه بالحج كان من معجزاتهﷺ فلا غرابة في ذلك.

البقرة: ١٢٥ ظهر له ذلك جلياً.

ويؤيد صحة هذا القول الأخير: ما حدث جابر عن حجة النبيﷺ قال: «لما طاف النبي ـعليه الصلاة والسلامـ قال له عمر: هذا مقام أبينا؟ قال: نعم، قال: أفلا نتخذه مصلى؟ فأنزل الله ـعز وجلـ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾».

وفي رواية: «أن رسول اللهﷺ مرّ بالمقام ومعه عمر، فقال: يا رسول الله أليس هذا مقام أبينا إبراهيم؟ قال: بلى؛ قال: أفلا نتخذه مصلًّى؟ قال: لم أومر بذلك، فلم تغب الشمس حتى نزلت الآية».

وفي البخاري عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب: «وافقت ربي في ثلاث، أو وافقني ربي في ثلاث قلت: يا رسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى، فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ ...إلخ» الحديث.

وعن جابر أنه قال: «استلم رسول اللهﷺ الركن، فرمل ثلاثاً، ومشى أربعاً، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين».

قال ابن كثير في تفسيره: وهذه قطعة من الحديث الطويل الذي رواه مسلم في صحيحه من حديث حاتم بن إسماعيل. ص١٠٥ـ١٠٦

٢١ـ فالخلاصة: أن مقام إبراهيم ـعليه السلامـ هو الحجر الذي كان يقوم عليه لبناء البيت الحرام لما ارتفع جداره، وكان إسماعيل يناوله الحجارة؛ فيضعها بيده وكلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه حتى انتهى إلى وجه البيت. ص١٠٦

٢٢ـ ولقد كان من معجزات إبراهيم ـعليه السلامـ أن صار الحجر تحت قدميه رطباً فغاصت فيه قدماه، وقد بقي أثر قدميه ظاهراً فيه من ذلك العصر إلى يومنا هذا

وإن تغير عن هيئته الأصلية بمسح الناس بأيديهم قبل وضع الحجر في المقصورة النحاسية، والعرب تعرف ذلك في جاهليتها، قال أبو طالب[1] في قصيدته اللامية المشهورة:

وثور ومن أرسى ثبيراً مكانه   وراق لبرّ في حراء ونازل

وبالبيت حق البيت من بطن مكة   وبالله إن الله ليس بغافل

وبالحجر المسودّ إذ يمسحونه   إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة   على قدميه حافياً غير ناعل

ص١٠٦_١٠٧

٢٣_ ومما هو جدير بالذكر والالتفات: أن العرب في جاهليتها مع عبادتهم الأحجارَ، وبالأخص حجارة مكة والحرم _ لم يسمع عنهم أن أحداً عبد الحجر الأسود، أو حجر المقام مع عظيم احترامهم لهما، ومحافظتهم عليهما.

ولقد تأملنا في سر ذلك وسببه، فظهر لنا أن ذلك من عصمة الله _تعالى_ فإنهما لو عبدا من دون الله في الجاهلية، ثم جاء الإسلام بتعظيمهما باستلام الركن الأسود، والصلاة خلف المقام_ لقال المنافقون وأعداء الدين: إن الإسلام أقر احترام بعض الأصنام، وأنه لم يخلص من شائبة الشرك، ولتمسك بعبادتهما من كان يعبد أحدهما من قبل؛ فلهذا حفظ الله _تعالى_ هذين الحجرين الكريمين من أيام إبراهيم _عليه

١_ أبو طالب: هو عم النبيﷺ، وله قصيدة لامية مشهورة قالها حين تحالفت قريش على بني هاشم في أمر النبي _عليه الصلاة والسلام_ وأول هذه القصيدة:

ولما رأيت القوم لا ودّ عندهم   وقد قطعوا كل العرى والوصائل

السلام ـ إلى يوم القيامة من عبادة أهل الجاهلية لهما، كما حفظ بيته الحرام من عبادتهما ـ أيضاً ـ ولا يخفى أن هذه نقطة دقيقة لا يتنبه لها كل أحد. ص١٠٧

٢٤ـ صفة المقام:

ـ كنا نعتقد أن مقام إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ الموجود في باطن الصندوق الخشبي، والمغطى بستارة حريرية مكتوبة ومنقوشة، والذي يحيط بجوانبه الأربع شباك من الحديد المضروب باللون الأخضر المقابل لباب الكعبة المعظمة ـ هو حجر كبير لا يمكن أن يحمله أقل من خمسة رجال تقريباً، وكنّا نظن أن ما بقي من أثر قدمي خليل الله إبراهيم ـ عليه الصلاة السلام ـ شيء يسير بقدر ما يظهر أقدام الإنسان في الأرض الترابية.

ولكن جاء الأمر بعكس ما كنا نعتقده ونظنه بعد مشاهدتنا له برؤية العين في السابع والعشرين من شهر شعبان سنة ألف وثلاثمائة وسبع وستين هجرية كما سنبين ذلك ـ. ص١٠٨

ـ إننا لما شرعنا في تأليف كتابنا هذا عن مقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ وما كان أحد سبقنا إلى مثله من قبل ـ حَصَلَتْ عندنا رغبةٌ شديدة وميل عظيم إلى مشاهدة نفس المقام الكريم، فالتمسنا فتح مقصورة المقام لنا من حضرة صاحب السمو الملكي ولي عهد المملكة العربية السعودية الأمير المعظم سعود بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل ـ حفظه الله ـ، فصدر أمر سموه الكريم بفتح مقصورة مقام إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي هو أمام الكعبة المشرفة للنظر إليه ونكتب عنه الحقيقة بالتفصيل التام خدمة للدين والعلم؛ ليعرف المسلمون حقيقة المقام الكريم الذي هو مستور عن أعينهم فنقول: إنه في صباح يوم الأحد السابع والعشرين من شعبان سنة

ألف وثلاثمائة وسبع وستين هجرية جاء إلى المسجد الحرام السادن الثاني لبيت الله المعظم صاحب السعادة الشيخ عبدالله ابن المرحوم الشيخ عبدالقادر الشيبي صحبة ابنه الفاضل الشيخ عبدالعزيز؛ لغسل الكعبة المشرفة حسب العادة، ولفتح مقام إبراهيم ـعليه السلامـ لنا، فدخلنا أولاً بيت الله الحرام، وتشرفنا بغسل داخله بالزمزم بعطر، وكان معنا صاحب السعادة الشيخ محمد صالح قزاز ابن المرحوم عبدالرحمن قزاز مدير شؤون الحج، وحضرات الأفاضل الكرام السيد هاشم نائب الحرم رئيس مجلس إدارة الحرم، والشيخ عمر عبدالجبار رئيس شرطة الحرم، والشيخ صالح باخطمة رئيس القسم الإداري بالأمن العام، والسيد عبدالله ابن المرحوم السيد محمد علي الدباغ، والشيخ عبدالله ابن الشيخ أحمد الباز، وبعض الخدمة الخاصة، ثم بعد انتهائنا من غسل الكعبة المعظمة توجّه بنا سادنها سعادة الشيخ عبدالله الشيبي المذكور إلى مقصورة مقام إبراهيم ـعليه الصلاة والسلامـ ففتحها بحضور مندوب رياسة القضاء الشيخ عبدالعزيز العقيلي، وحضور الشيخ عبدالله ابن المرحوم الشيخ أمين ميرداد، وحضور الجماعة المذكورين، وحضور جمع غفير من أهل مكة والحجاج القادمين إليها.

وبعد تنظيف المقام من الأتربة والغبار دخلت أنا محمد طاهر الكردي المكي الخطاط مؤلف هذا الكتاب إلى داخل الصندوق الذي فيه نفس حجر مقام إبراهيم ـعليه السلامـ لإجراء البحث الدقيق عليه، ومكثت في داخل الصندوق نحو ساعة ونصف أي تسعين دقيقة تقريباً وحجر المقام الشريف بهيئته بين يديّ، ثم طلبت من صديقنا الشيخ عمر عبدالجبار المذكور أن يجلس بجانبي داخل الصندوق؛ ليساعدني في مسك الأوراق وضبط القياسات، فجلس بجواري ملتصقاً بي لضيق الصندوق، وقد جلس أمامنا جَمْعٌ كثير ومن ذكرنا أسماءهم يشاهدون أبحاثنا الدقيقة حول المقام الكريم.

وإليكم بيان ذلك بالتفصيل التام والتحقيق الكامل بتوفيق الله ـتعالىـ :

لقد وجدنا حجر مقام إبراهيم الخليل ـعليه الصلاة والسلامـ مثبتاً فوق قاعدة صغيرة من الرخام المرمر بقدر قياس نفس المقام الشريف طولاً وعرضاً.

وأما ارتفاعها فثلاثة عشر سنتيمتراً، وقد استمسك المقام بهذه القاعدة بوساطة الفضة التي تحيط بنفس المقام مع جزء من هذه القاعدة، حتى صار المقام ثابتاً فيها ثبوتاً قوياً بحيث لا يمكن تحريكه قط.

ثم إن هذه القاعدة الصغيرة ثابتة ثبوتاً محكماً جداً في وسط قاعدة كبيرة من الرخام المرمر ـأيضاًـ تشبه الدكة طول ضلعها من جميع الجهات متر واحد، وارتفاعها من الأرض ستة وثلاثون سنتيمتراً ولون الرخامتين أبيض.

ويحيط بهذه القاعدة الكبيرة صندوق من الخشب كهيئة الهرم الرباعي ارتفاعه نحو القامة، ليس به منافذ مطلقاً سوى الباب الذي يرى منه المقام الكريم، وهو في الجهة الشرقية، وهذا الصندوق ملبس كله من الظاهر بصفائح الفضة مكتوب عليه من الجهة الشرقية فقط ما يأتي: «بسم الله الرحمن الرحيم وبه الهداية ـ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَاركاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً».

كتبه الحافظ إسماعيل الزهدي ادرنوى خوجه، كتبه عام ألف ومائتين وثمان وعشرين.

وباب الصندوق مصفح من الظاهر بالفضة ـأيضاًـ وقد كتب عليه هذه العبارة: صاحب الخيرات والحسنات سلطان البرين وفاتح الحرمين الغازي السلطان محمود خان بن عبدالحميد خان دام ملكه سنة ألف ومائتين وثمان وعشرين هجرية.

والذي يظهر لنا من هذه العبارة: أن الذي أمر بتلبيس هذا الصندوق بصفائح

الفضة هو السلطان محمود خان المذكور، وأما الصندوق من الداخل فهو خشب عادي بلونه الطبيعي لا أثر فيه لكتابة أو نقش.

وهذا الصندوق مغطى كله من قمته إلى الأرض بكسوة من الحرير مكتوب فيها بعض آيات قرآنية كتبها مؤلف هذا الكتاب سنة ألف وثلاثمائة وثمان وأربعين، وصنعت بدار الكسوة بمكة المشرفة في السنة المذكورة، ومن هذه السنة إلى الآن لم تغير الكسوة؛ ثم يحيط بهذا الصندوق الشباك الحديد المضروب باللون الأخضر من الجهات الأربع.

أما مقام إبراهيم ـعليه الصلاة والسلامـ: فهو حجر لونه ما بين الصفرة والحمرة، وهو إلى البياض أقرب، ويمكن أن يحمله أضعف الرجال وهو حجر ليس بصوان[1].

وأما حجم حجر المقام الكريم: فهو يشبه المكعب، ارتفاعه عشرون سنتيمتراً، وطول كل ضلع من أضلاعه الثلاثة من جهة سطحه ستة وثلاثون سنتيمتراً وطول ضلعه الرابع ثمانية وثلاثون سنتيمتراً، فيكون مقدار محيطه من جهة السطح مائة وستة وأربعين سنتيمتراً.

وأسفل المقام أوسع بقليل من أعلاه، فيكون مقدار محيطه من جهة القاعدة نحو:

---

١ ـ روى الإمام الأزرقي في الجزء الثاني من تاريخه صحيفة ٢٨ أن أمير المؤمنين المهدي حج سنة ستين ومائة فنزل دار الندوة، فجاء عبيد الله بن عثمان بن إبراهيم الحجي بالمقام مقام إبراهيم في ساعة خالية نصف النهار مشتملاً عليه، فقال للحاجب ائذن لي على أمير المؤمنين؛ فإن معي شيئاً لم يدخل به على أحد قبله وهو يسر أمير المؤمنين فأدخله عليه، فكشف عن المقام فسر بذلك وتمسح به، وسكب فيه ماءً، ثم شربه، وقال له: اخرج وأرسل إلى بعض أهله، فشربوا منه، وتمسحوا به، ثم أدخل؛ فاحتمله ورده مكانه وأمر له بجوائز عظيمة، وأقطعه خيفاً بنحلة يقال له ذات القويع، فباعه من منيرة مولاة المهدي بعد ذلك بسبعة آلاف دينار. اـهـ.

مائة وخمسين سنتيمتراً.

وفي هذا الحجر الشريف غاصت قدما خليل الله _تعالى_ سيدنا إبراهيم _عليه الصلاة والسلام_ مقداراً كبيراً إلى نصف ارتفاع الحجر، فعمق إحدى القدمين عشرة سنتيمترات، وعمق الثانية تسعة سنتيمترات، ولم نشاهد أثراً لأصابع القدمين مطلقاً، فقد انمحى من طول الزمن ومسح الناس بأيديهم، وأما موضع العقبين: فلا يتضح إلا لمن دقق النظر وتأمل، وحافة القدمين الملبستين بالفضة أوسع من بطنها من كثرة مسح الناس بأيديهم.

وطول كل واحدة من القدمين من سطح الحجر والفضة سبعة وعشرون سنتيمتراً، وعرض كل واحدة منهما أربعة عشر سنتيمتراً، أما قياسهما من باطن القدمين من أسفل الفضة النازلة فيهما، فطول كل واحدة منهما اثنان وعشرون سنتيمتراً، وعرض كل واحدة منهما أحد عشر سنتيمتراً.

وما بين القدمين فاصل مستدق نحو سنتيمتر واحد، وقد استدق هذا الفاصل من أثر مسح الناس له بأيديهم للتبرك، وكذلك اتسع طول القدمين وعرضهما من أعلاهما بسبب المسح _أيضاً_ ومع أنه قد مر على حجر المقام الشريف أكثر من أربعة آلاف سنة فإن معالمه وهيئة القدمين واضحة بينة لم تتغير ولم تتبدل، وتبقى كذلك إلى يوم القيامة، مصداقاً لقوله _تعالى_: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾.

وحجر المقام كله ملبس بالفضة الخالصة، فلا تظهر حقيقة الحجر إلا من باطن حفرة القدمين وجوانبهما، وإن باطنهما غير مستو، بل فيهما بعض نتوءات صغيرة، وقد كتب على الفضة حول القدمين من سطح المقام آية الكرسي بخط الثلث الواضح الجميل، وكتب عليه من الجوانب بخط الثلث _أيضاً_ ما يأتي: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ ﴾.

ثم كتب بعد ذلك: «أمر بتجديد صحيفة القدم الشريف ابتغاء لمرضاة الله _تعالى_ ومحبة لصاحبه مولانا السلطان مصطفى خان ابن السلطان محمد خان دام عزه ونصره سنة ١١١٣ سنة ألف ومائة وثلاثة عشر».

ويوجد على الفضة شيء من النقش، أما ما نزل من الفضة في حفرة القدمين فليس عليه شيء لا من الكتابة ولا من النقش.

ولما كان المقام الشريف ملبساً كله بالفضة، وثابتاً ثبوتاً قوياً لا يتحرك لم يظهر لنا هل فيه شطب وكسر أم لا؟ ونحمد الله _تعالى_ أن وفق سلاطين المسلمين وملوكهم للعناية والاهتمام بهذا المقام الإبراهيمي الشريف، ويحق للمسلمين والعرب أن يفخروا بهذا المقام الأثري القديم المقدس. ص١١٠_١١٤

_ والذي نستنتج من رؤيتنا للقدمين الشريفين أن طول سيدنا إبراهيم الخليل _صلوات الله وسلامه عليه_ هو كطول الرجل العادي في زماننا، لا بالطويل ولا بالقصير، ولذا كان نبينا محمد يشبه جده إبراهيم _صلى الله وسلم عليهما وعلى جميع الأنبياء والمرسلين_.

فقد ورد في صحيح البخاري في كتاب بدء الخلق عند وصف موسى وإبراهيم _عليهما السلام_ صريح قول نبينا محمدﷺ ضمن الأحاديث مراراً، فمنها قال: «ورأيت إبراهيم وأنا أَشْبَهُ ولدِهِ به... إلخ»، ومنها: «وأنا أشبه ولد إبراهيم به... الخ»، ومنها: «أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم... إلخ».

ولقد ذكر بعض العلماء: أن قدم نبينا محمد يشبه قدم إبراهيم الخليل _صلوات الله وسلامه عليهما_ وإلى ذلك أشار ناظم عمود النسب بقوله:

وكلما طال البناء ارتفعا به المقام في الهوى ورفعا
به القواعد وفيه القدم تشبهها للهاشمي قدم

وهو حق لا شك فيه؛ لما تقدم من الأحاديث الصحيحة، ولما يدل عليه شكل القدمين اللتين على المقام الكريم.

وكان أبو جهم بن حذيفة القرشي الذي حضر بناء الكعبة المعظمة مرتين: بناء قريش، وبناء ابن الزبير- يقول: ما رأيت شبهاً كشبه قدم النبيﷺ بقدم إبراهيم التي كنا نجدها في المقام. ص١١٦

٢٥- أرجح الأقوال في موضع المقام:

- لقد ذكرنا هذه الأقوال المتقدمة في موضع المقام بنصها ولفظها من غير تعليق عليها، ثم رأينا أن نأتي هنا بأرجح الأقوال على رأينا، وما نميل إليه، فنقول وبالله العون والتوفيق:

إذا لا حظت ما تقدم عن حدّ المسجد الحرام قديماً وأن مكان البيت كان ربوة مرتفعة عن الأرض ذات الرمال والحصى، وأن إبراهيم -عليه السلام- ما بنى الكعبة بالطين ولا بالجص وإنما رضمها رضماً ولم يسقفها، وتصورت أن أهل الجاهلية كانوا يجلسون في ظل الكعبة ويقعدون حولها يتذاكرون شؤونهم العامة، وأنه لم يكن حينئذ للمسجد الحرام على صغره سور ولا حائط حتى بنى عليه عمر بن الخطاب جداراً قصيراً بعد أن زاد فيه ووسعه - ظهر لك أن أرجح الأقوال المتقدمة وأقربها إلى الصواب هو ما رواه البيهقي في سننه من أن المقام كان في زمن النبيﷺ وزمن أبي بكر ملصقاً بالبيت حتى أخره عمر بن الخطاب، وما ذكره -أيضاً- ابن حجر العسقلاني في فتح الباري بأن المقام كان في عهد إبراهيم -عليه السلام- لَزْقَ البيت إلى أن أخره عمر

إلى المكان الذي هو فيه الآن، وما قاله _أيضاً_ ابن كثير في تفسيره بأن المقام كان ملصقاً بجدار الكعبة قديماً، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحِجر.

وكان الخليل _عليه السلام_ لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة، أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك، وأنه أخره عن جدار الكعبة، أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ... إلخ كلامه المتقدم وهو كلام حسن جيد للغاية.

وما ذكره ابن كثير _أيضاً_ في تفسيره من رواية ابن مردويه أن مقام إبراهيم كان في الكعبة فأخرجه رسول الله ﷺ فألزقه في حائط الكعبة وذلك حينما دخل الكعبة يوم فتح مكة.

ولقد رجحنا هذه الأقوال الأربعة مما تقدم؛ لأن المعقول أن إبراهيم _عليه السلام_ لا بد أن يضع الحجر الذي قام عليه في بناء البيت بلزقه وجواره لا أن يضعه بعيداً عن البيت حيثما اتفق وهو ياقوتة من يواقيت الجنة ومقامه الذي كان يقوم عليه، _وأيضاً_ لا بد أن الله _تعالى_ أمره بحفظه، وعدم التفريط فيه؛ حيث يأتي في آخر الزمان خاتم النبيين محمد ﷺ فيؤمر هو وأمته بالصلاة عنده وقبلتهم البيت المعظم.

ويؤيد كلامنا هذا ما جاء في الجزء الثاني من تاريخ الأزرقي أن إبراهيم _عليه السلام_ قام على المقام حينما أذن في الناس بالحج، فلما فرغ من التأذين أمر بالمقام فوضعه قبلة؛ فكان يصلي إليه مستقبل الباب ثم كان إسماعيل بعد يصلي إليه إلى باب الكعبة... إلخ.

فلدى التأمل في هذه النقطة يظهر جلياً أن إبراهيم _عليه السلام_ جعل الحجر الذي قام عليه لبناء الكعبة بلصقها ولا يبعده عنها بمسافة أذرع مخصوصة إلا لسبب وأي سبب لذلك في أيامه، _ وأيضاً_ أن أهل الجاهلية كانوا ألصقوا المقام بالبيت؛ خيفة السيل بل وضعوه في جوف الكعبة حتى أخرجه رسول الله ﷺ منها، فألزقه في حائطها

كما تقدم بيان ذلك، فما الذي يدعو أهل الجاهلية إلى إبعاد ذلك الحجر الأثري المحترم عن الكعبة ووضعه في هذا المحل الذي هو عليه الآن كما في رواية السنجاري المتقدمة ولا أحد منهم يتعبد عنده، بل لو أبعدوه عن البيت لكان المعنى أنهم لم يعتبروه ولم يحترموه حيث رموه في آخر ساعته عند أبواب بيوتهم المحيطة بالبيت، وكيف يقع ذلك منهم وهم الذين يعتقدون أنه ذلك الحجر المقدس الذي عليه أثر قدمي إبراهيم الخليل ـعليه السلامـ؟ وقد قال أبو طالب فيه وفي الحجر الأسود.

وبالحجر المسودّ إذ يمسحونه ... إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل

وموطىء إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل

فلما جاء الإسلام أكد احترامهما وجعل لهما مغزى خاصاً، ورمزاً تعبدياً، وإن كان الحجر الأسود أعظم حرمة من المقام؛ فإنه يمين الله في الأرض، وإنه يبعث يوم القيامة وله عينان يبصر بهما، ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بالحق كما ورد ذلك.

وقد تقدم أن الحجر الأسود والمقام هما من ياقوت الجنة، وفي الأزرقي عن مجاهد أنه قال: يأتي يوم القيامة الركن والمقام كل واحد منهما مثل أبي قبيس يشهدان لمن وافاهما بالموافاة اـ هـ. ص١١٩ـ١٢١

٢٦ـ زيادة عمر رضي الله عنه في المسجد الحرام:

ـ لما انتهى عمر بن الخطاب من أمر المقام رأى أن المسجد الحرام لا يسع الناس لكثرة المصلين، فاشترى الدور الملاصقة للمسجد، وأدخلها فيه، وأحاط عليه جداراً ارتفاعه دون القامة، وجعل فيه أبواباً يدخل الناس منها، لكنه لم يسقفه، وإنما سقفه عبدالله بن الزبير لما زاد في المسجد، ولم يُعْرَفْ مقدارُ ما سقفه هل كله أم بعضه؟

ثم إن عبدالملك بن مروان رفع جدرانه، وعمره عمارة حسنة من غير أن يزيد فيه

شيئاً.

ومن أراد الاطلاع على ما وقع من الزيادات في المسجد الحرام فليراجع كتب التاريخ. ص١٢٣_١٢٤

_ ومن اللطائف: أن رجلاً سأل عمر بن القيس عن الحصاة يجدها الإنسان في ثوبه أو خفه أو جبهته من حصى المسجد؟ فقال: ارم بها، قال الرجل: زعموا أنها تصيح حتى ترد إلى المسجد، فقال: دعها تصيح حتى ينشق حلقها، فقال الرجل: سبحان الله، ولها حلق؟ قال: فمن أين تصيح؟. ص١٢٤_١٢٥

٢٧_ رأى عمر بعد فراغه من أمر المقام أن المسجد الحرام وما حوله عرضة لخطر السيول، وأنه لا بدّ من وضع حاجز في وجه الماء يمنع دخوله، فعمل في هذه السنة _أيضاً_ الردم بأعلى مكة من جهة المدعى، وبناه بالضفائر[1] والصخور العظام، وكبسه بالتراب والأحجار، فلم يَعْلُهُ منها شيء كما ذكره أبو الوليد عن جده.

وفي سنة اثنتين ومائتين جاء سيل ابن حنظلة فكشف عن بعض أحجار ردم عمر، وشوهدت فيه صخار عظيمة، حتى قال بعضهم: ورأينا فيه صخراً ما رأينا مثله، وكان هذا السيل في خلافة المأمون، وعلى مكة يزيد بن محمد بن حنظلة المخزومي، فسمي السيل سيل ابن حنظلة، وكان سيلاً عظيماً أحاط بالكعبة، وبلغ دون الركن بذراع.

فانظر _رحمك الله_ إلى قوة ردم عمر رضي الله عنه، ومكثه مائتي سنة لا تعلوه السيول، ولا تخربه، مع أنه كبسه بالتراب والأحجار، لا بالجصّ والنورة، ولا بالأسْمنت

١_ الضفيرة: الحائط يبنى في وجه الماء، قاله في المصباح المنير.

والبلاط[1] ولا بناه بالآلات الفنية والمقاييس المبتكرة الحديثة، وإنما بناه بإخلاص النية والتقوى على أيدي عمَّال خير القرون ـرضي الله تعالى عنهم أجمعينـ. ص١٢٥

٢٨ـ كان المقام في أرض المطاف من أيام إبراهيم ـعليه السلامـ إلى ما بعد الإسلام معرضاً للتلف من تأثير السيول والأمطار والمس واللمس[2]، فلا بد بمرور هذه الأحقاب الطويلة والعصور البعيدة أن تضعف قوة صلابته، فيصبح رخواً قابلاً للتفتت والتلف خصوصاً وقد أظهر الإسلام فضله، وازدحم الناس لاستلامه، وإن لم يؤمروا بذلك ما لم يحفظ في مكان لا تصل إليه الأيدي؛ لذلك عملت له مقصورة عليها قبة، ووضعت فوق المقام؛ فبذلك صار في حرز مكين مأمون العاقبة.

ولقد كان حجر المقام موضوعاً على كرسي ملبّس بصفائح الرصاص، ثم في سنة إحدى وأربعين ومائتين أمر أمير المؤمنين محمد المستنصر بالله بإبدال صفائح الرصاص بصفائح فضة، كما ذكر ذلك الإمام الأزرقي في تاريخه أخبار مكة. ص١٢٨

٢٩ـ ولم يعرف بالضبط أول من وضع له تابوتاً، غير أنه قيل: إن أقرب وقت صنع فيه ذلك سنة عشر وثمانمائة، بمعنى أنه صنعت للمقام مقصورة ثابتة لا تنتقل ولا تتحرك، وإلا فقد كانت للمقام قبة قبل هذا التاريخ؛ فقد ذكر ابن جبير الأندلسي في رحلته ـ وقد حج سنة خمسمائة وثمانية وسبعين للهجرةـ صفة المقام، ثم قال: لموضع المقام قبة مصنوعة من حديد موضوعة إلى جانب زمزم، فإذا جاءت أشهر الحج،

١ـ البلاط: بفتح الباء معروف، أما الأسمنت فلم يكن ظهوره إلا في عصرنا، ويسمونه النورة الإفرنجية؛ لأنه من مخترعات الإفرنج وهو أنعم من الدقيق، وإذا عجنت به الحجارة والحصى، ثم وضعت في قالب فإنه يكون هذا الخليط صلباً شديداً متماسكاً مثل الحديد.

٢ـ المس واللمس: تقريباً بمعنى واحد إلا أن الفقهاء قالوا: المس لا يكون إلا بباطن الكف بخلاف اللمس فإنه يكون بأي جزء من البدن.

وكثرت الناس رفعت القبة الخشب، ووضعت القبة الحديد اـهـ. ص١٢٩

٣٠ـ أما وضع الكسوة على المقام فالذي يظهر أنه من اختراع دولة آل عثمان؛ فقد كان من عادة سلاطينهم أن يكسوا مقام إبراهيم الخليل ـعليه الصلاة والسلامـ الذي هو بجوار الكعبة بكسوة سوداء مطرزة بأسلاك الفضة المموهة بالذهب على شكل ستارة باب الكعبة المعظمة، وتوضع هذه الكسوة على التابوت الخشبي الذي هو داخل الشباك الحديد فوق حجر المقام.

وكانت هذه الكسوة تأتي سنوياً مع كسوة الكعبة من مصر زمن الدولة العثمانية، وأحياناً كانت تأتي كسوة المقام في كل خمسين سنة مرة، ثم انقطعت كسوة المقام منذ سنوات عديدة إلى اليوم، والكسوة التي على المقام الآن هي قديمة لها أكثر من سبعة عشر سنة. ص١٣٠ـ١٣١

٣١ـ على أنه يشترط في مسحهما وتقبيلهما عدم حصول الأذية والضرر، فقد روى الأزرقي في تاريخه أن رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب: «يا عمر إنك رجل قوي، وإنك تؤذي الضعيف؛ فإذا رأيت خلوة فاستلمه، وإلا فكبر وامض».

وروى فيه ـأيضاًـ عن عطاء أنه سمع ابن عباس يقول: إذا وجدت على الركن زحاماً فلا تؤذ، ولا تؤذَ. ص١٣٥

٣٢ـ فينبغي للمسلم أن يكون على بصيرة من أمرِ دينه القويم، وأن يتبع منهج السلف الصالح الذين مشوا على الصراط المستقيم؛ حتى لا يقع فيما يقع فيه العوام والجهلة.

وإذا أمكنه إرشاد أحد بالتي هي أحسن لم يُحرم من الأجر والثواب؛ فالدال على الخير كفاعله.

فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كان باللطف واللين كان أسرع إلى القبول

والامتثال، وإذا كان بالعنف والغلظة كان أدعى إلى النفور والعناد، قال الله ـتعالىـ ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ النحل: ١٢٥. ص١٣٥

٣٣ـ تكلم كثير من العلماء عن الحفرة التي على يمين باب الكعبة المشرفة التي يبلغ طولها **٢٠٦** سنتيمتر، وعرضها **١١٢** سنتيمتر، وعمقها **٢٧** سنتيمتراً.

ونأتي هنا بخلاصة شافية نسأل الله الهداية إلى الصواب.

فقد قيل: إنها المعجن، عجن فيها إسماعيل ـعليه السلامـ الطين لبناء البيت الحرام، فهذا القول غير صحيح وبعيد الاحتمال لأمرين:

الأول: أن إبراهيم وإسماعيل ـعليهما السلامـ ما بنيا الكعبة المشرفة بالطين ولا بالجصّ، وإنما رضماها رضماً ولم يسقفاها، فعن ابن عباس ـرضي الله عنهماـ قال: «أما والله ما بنياه بقَصّة ولا مَدَر[1]، ولا كان معهما من الأعوان والأموال ما يسقفانه، ولكنهما أعلماه، فطافا به» رواه الأزرقي في تاريخه.

الثاني: لو فرض أن إسماعيل كان يعجن الطين للبناء للزم أن يعجنه عند كل جهة من الجهات الأربع للبيت، حتى لا يحمله ويدور حول البيت فيتعب، على أن هذا الموضع صغير لا يكفي لعجن الطين الكثير اللازم لبناء البيت الحرام.

فعلم مما ذكرناه بأن ما قيل: إن الحفرة هي معجن إسماعيل ـعليه السلامـ غير صحيح.

وقيل: إن هذه الحفرة هي مصب لغسيل الكعبة قاله ابن جبير في رحلته، فهذا القول لا يطابق الحقيقة والواقع كما هو مشاهد عندنا، ولربما سأل ابن جبير عنها

١ـ القصة بالفتح: الجصّ، والمدر بفتحتين: الطين أو التراب المتبلد، قاله في المصباح المنير.

بعض من لا خبرة له فأفهمه ذلك، أو رأى بالمصادفة غسل الكعبة وامتلاء الحفرة من الماء فظنها كذلك، ولو كانت الحفرة لأجل تجمّع ماء غسيل الكعبة لكان المعقول أن تجعل عند بابها تحت العتبة.

وبهذه المناسبة نذكر استطراداً أن أول من غسل الكعبة رسول الله ﷺ، فقد روي عن ابن عمر ـرضي الله عنهماـ أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة يوم الفتح أمر بلالاً فرقِيَ على ظهر الكعبة، فأذن بالصلاة، وقام المسلمون، وتجردوا في الأزر، وأخذوا الدلاء وارتجزوا على زمزم، فغسلوا الكعبة ظهرها وبطنها، فلم يدعوا أثراً من آثار المشركين إلا محوه وغسلوه اـهـ.

فمن هنا جرت العادة بغسل الكعبة من ذلك التاريخ إلى اليوم، وهي تغسل في العام مرتين بماء زمزم مضافاً إليه ماء الورد، ثم يطيبونها بالعطر، ويبخرونها بالعود والعنبر والندّ، وغالباً يكون ذلك بحضور ولاة الأمور، وكبار رجال الدولة.

وقد تشرفنا بغسلهاـ ولله الحمدـ عام ١٣٦٧هـ يوم أن فتحوا لنا مقصورة المقام.

وقيل: إن شطر الحفرة الملاصق للكعبة هو موضع مقام إبراهيم ـعليه السلامـ قبل أن ينقله عمر رضي الله عنه وهو ـأيضاًـ موضع المقام حينما أخذه سيل أم نهشل إلى أسفل مكة، فلما جاء عمر من المدينة نقله منه إلى موضعه الآن؛ فهذا القول غير بعيد، بل هو الصواب، كما علم ذلك مما سبق في تحقيق موضع المقام.

وقيل: إن الحفرة هي مصلى جبريل بالنبيﷺ حين فرضت الصلوات الخمس، وقد ذكر ذلك كثير من العلماء منهم الأزرقي فروى بسنده عن ابن عباس أن النبيﷺ قال: «أمّني جبريل عند باب الكعبة مرتين».

فهذا القول أقرب إلى الصحة، بل هو الصواب ـأيضاًـ ويطابق القول المتقدم؛ لأن مقام إبراهيم كان في شطر الحفرة الملاصق للكعبة كما ذكر، فوافقت صلاتهما عنده

قبل نزول: «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى» فكأن صلاة جبريل بالنبيﷺ هناك إشارة إلى أنه سيؤمر هو وأمته بالصلاة عند المقام، والله ـسبحانه وتعالىـ أعلم. ص١٤٦ـ١٤٧

٣٤ـ من المعروف في التاريخ أن أبا طاهر القرمطي وافى مكة في سابع ذي الحجة سنة سبع عشرة وثلاثمائة، وفعل فيها هو وقومه أموراً منكرة، وأمر أبو طاهر جعفر ابن أبي علاج البنَّاء بقلع الحجر الأسود، فقلعه لأربع عشرة خلت من ذي الحجة من السنة المذكورة وذهب به معه إلى بلاد هجر، وبقي موضعه من الكعبة المعظمة خالياً يضع الناس فيه أيديهم للتبرك.

ثم إن سنبر بن الحسن القرمطي وافى مكة بالحجر الأسود سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، فوضعه بيده إلى موضعه من الكعبة وقال: أخذناه بقدر الله ورددناه بمشيئة الله، وذلك يوم النحر من السنة المذكورة... إلخ. ص١٤٨

٣٥ـ فبعض المغفلين يظن أن القرامطة استبدلوا الحجر الأسود بحجر آخر حينما ردوه إلى الكعبة، فهذا الظن في غير محله. ص١٤٨

٣٦ـ أما موسى الكليم ـعليه السلامـ: فإحسانه عظيم ـأيضاًـ على الأمة المحمدية قاطبة؛ حيث طلب من نبينا محمد ﷺ ليلة عرج به واجتمع معه في السماء السادسة أن يراجع ربه ـعز وجلـ في تخفيف الصلاة عن أمته التي فرضها الله ـتعالىـ عليهم أولاً، وقال له: إن أمتك لا تطيق ذلك، فلم يزل رسول الله يرجع بين ربه ـعز وجلـ وبين موسى ـعليه السلامـ حتى بلغ التخفيف عنا خمس صلوات كل يوم وليلة بعد أن كانت خمسين صلاة. ص١٥٢

٣٧ـ فموسى ـعليه السلامـ قد أحسن إلى جميع المؤمنين والمؤمنات في هذه المسألة إحساناً كبيراً، ووفق فيها أعظم توفيق، كيف لا؟ وهو الذي رأى من أحوال بني

إسرائيل العجب العجاب.

والحق أننا قد وصلنا في هذا الزمان إلى حالة من العجز والتقصير، لا نقدر أن نقوم بأداء هذه الصلوات الخمس حق أدائها، بل تهاون الكثير بها في غير قطرنا حتى تركوها بتاتاً والعياذ بالله؛ فكيف لو لم يخفف الله عنا بفضله ورحمته؟ فجزى الله موسى وإبراهيم ونبينا عنا ما هو أهله. ص١٥٢

٣٨_ كلمة ختامية:

_ هذا، ولما كنت مشتغلاً بالتصنيف، مخالطاً للعلماء أرباب التأليف يمكنني أن أقول: إنني لم أجد أصعب، ولا أتعب، ولا أشغل للإنسان من تأليف الكتب مهما تنوعت واختلفت.

ولئن كان شيء يسرع في ضعف الإنسان وهرمه فذلك الشيء إنما هو الاشتغال بالتأليف وحده، وفي الوقت نفسه تجد المؤلف مع وهنه وضعفه قوياً في معلوماته، راسخاً في دراساته ومراجعاته، فكل شيء ينقص إذا أنفقت منه إلا العلم؛ فكلما أنفقت منه لغيرك بالإفادة زادت معرفتك مهما تكررت منك الإعادة. ص١٥٣

_ فالاشتغال بالتأليف أو بالفنون الجميلة، هو الشغل الذي لا شغل بعده، والعمل الذي ينقطع إليه المرء وحده، تجده يبحث عن مسألة إذا به يعثر على أخرى ولما يكمل الأولى بعد، تراه يحقق في بحث إذا به يصل إلى غيره؛ لتشعّب الكلام، وارتباط بعضه ببعض، وإنه كثيراً ما تطرأ عليه المسائل، وتنكشف له الدقائق وهو يأكل أو يمشي، أو يريد النوم، لذلك يكون المؤلف الخبير بالأحوال لا يخلو عن القلم والورق أنّى سار، وحيثما كان؛ ليقيد رؤوس المسائل التي تطرأ على فكره بغتة، حتى إذا ما رجع إلى حالة الاشتغال قتلها بحثاً وأشبعها درساً، تجده يبتعد عن الأهل والولد خوفاً من أن يقطع عليه أحد أفكاره، ينفرد عن الناس بنفسه، وقد يصطفي

شخصاً من شكله وجنسه، يساعده في البحث والتنقيب، ويبيض له مسوداته بنظام وترتيب، وإلى هذا المعنى أشار بعضهم بقوله:

وأطيب أوقاتي من الدهر خلوة ... يقرّ بها قلبي ويصفو بها ذهني

ويأخذ لي من سَورة الفكر نشوة ... فأخرج من فنّ وأدخل في فنّ

ويفهم ما قد قال عقلي تصوري ... فنقلي عن أذني وسمعي بها مني

وأسمع من نجوى الدفاتر طُرفة ... أزيل بها همي وأجلو بها حزني

ينادمني قوم لديّ حديثهم ... فما غاب منهم غير شخصهم عني

ص١٥٤

ـ ولست مبالغاً إن قلت: إنه يقضي الساعات الطوال، ويسهر غالب الليالي بالاشتغال في المطالعة والكتابة، لا يسأل عن أكل ولا شرب، ولا يصغي لحديث أو خبر، ولا تجد الراحة إلى جسمه سبيلاً، قد يعتريه الملل، وتتعب أعصابه، وهو مع ذلك يتطلب برهاناً، ويستنبط دليلاً، وقد يريد النوم فيمتنع عليه لشدة تعبه المتواصل لإتمام ما لديه، فهو لذلك قد يكون مقصراً عن زيارات إخوانه وأحبائه؛ فإنه من لا يؤدي حقوق نفسه كيف يؤدي حقوق غيره؟ وهو في ذلك معذور مأجور، وفي عمله مغبوط مشكور. ص١٥٤

ـ مسكين المؤلف، يشغل حواسه الخمس، ويصل يومه بالأمس، ليريح طلاب العلم والفنون، ولأن يصل في بحثه إلى نتيجة مرضية، وخلاصة شافية، وأجوبة سديدة، أحبّ إليه من الدنيا وما فيها، وأشد ما يكون فرحاً إذا ما اهتدى إلى حلّ مسألة عويصة كانت مستعصية عليه، أو أتى ببحث لم يسبقه إليه أحد. ص١٥٤

ـ ومن أعظم نعم الله على المؤلف، أن يرى عند عزمه على التأليف أنه سهل

ميسور، وأنه لا تمر عليه مدة وجيزة إلا أنجزه وأتمه، فإذا ما ابتدأ فيه وظهر جزء منه، تفتق ذهنه عن مسائل لم يحلم بها، وطرأت على باله أبحاث لم يكن يتخيلها، وإذا به في وادٍ متشعب، يرى من الواجب عليه أن يسلكه ويمهده، حتى يَخرج للناس بسِفرٍ هم في أمسّ الحاجة إليه.

فلو علم بادئ بدء ما سيلقاه من المشقة والتعب، والصعوبة والنصب لأبعد عن فكره خيال التأليف، وابتعد عن مسالك التكليف، مفضلاً الراحة والهناء على نيل الفخر بالعناء، لكنه حاز الشرف والفخار، وأتته رغماً عنه بعون الله وتوفيقه.

أما ثوابه على عمله وجزاؤه فهذا موكول إلى الله _عز شأنه_ فهو الذي لا يَضيع عنده عمل عامل من ذكر أو أنثى، على أنه _سبحانه وتعالى_ قد رفع ذكر العلماء، وأعلى شأنهم في الدارين، وحفظهم من التخريف مهما عمروا وتقدموا في سن الشيخوخة.

وأما تقديره ومكافأته في المجتمع الإنساني، فهذا راجع إلى الوسط الذي يعيش فيه، وإلى القوم الذين ينتمي إليهم؛ فعلى قدر مكانتهم في العلم والأدب، وثقافتهم في مختلف الفنون، وخلوّهم من المكر والحسد يكون تقديرهم لمنزلته، ومعرفته لمكانته، وأكثر المؤلفين لا يظهر فضلهم إلا بعد الممات.

هذه بعض حالات المشتغلين بالتأليف «ولا ينبئك مثل خبير».

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ... ولا الصبابة إلا من يعانيها

ص١٥٤_١٥٥

عاشراً : نقولات مختارة من كتاب :

عجائب من عصور متفرقة الجزء الأول تأليف محمد بن إبراهيم الشيباني

«**تعريف بالمؤلف وبالكتاب**» : أما مؤلف الكتاب فهو الشيخ المحقق البحاثة محمد بن إبراهيم الشيباني_حفظه الله_ فهو الذي انتقى هذه العجائب وعلق عليها.

أما الكتاب فهو صغير الحجم، ويقع في ٩٦ صفحة.

وقد جمعه مؤلفه من كتب عديدة في السير والتواريخ وغيرها.

وقد قال في مقدمته : «وضعت لك هذا الكتاب الذي انتقيته من جملة الكتب التي تحدثت عن تواريخ الناس والبلدان والملوك والأمراء، سرائهم وضرائهم، أفراحهم وأتراحهم، فيه يطيب السمر، ويستعذب القارئ أبوابه وما فيها من لطيف الخبر، والجيد من حوادث الدهر، نوعت فيه الأخبار وشكلت فيه من المختارات، لترغب النفس في القراءة وتستمر في استعذابه، وتتذكر ما كان الناس فيه من أحوال حلوة ومُرَّة، وتتذكر بأن الرزاق يعطي ويمهل؛ فما على من فهم المراد إلا السير بالدُّلْجَة[1] على مهل، والسلامة من كل خطر، ومن كل عمل غير مدروس ينتج عن العجل والخلل، ويؤدي بعد ذلك بالإنسان إلى سوء المآل والحزن.

ولقد صنعت لموضوعات الكتاب عناوين لأبوابها استنبطتها من الموضوعات نفسها حتى تكون الترجمة لصيقة بالموضوع». ص٥_٦

والكتاب من منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق في الكويت.

١_ الدلجة : الساعة المتأخرة من الليل.

ـ «النقولات المنتقاة» :

١ـ استجابة دعاء

يقول ابن الجوزي : ومن الحوادث في هذه السنة (٢٦٢هـ) ما أنبأنا به أبو بكر ابن محمد بن أبي طاهر البزار عن أبي الحسين بن المهتدي قال : رأيت بخط بن الفرات حدثنا القاضي أبو الحسن الجرامي حدثني عبدالخالق بن الحسن قال : سمعت أبا عون الفرائضي يقول : خرجت إلى مجلس أحمد بن منصور الزيادي سنة اثنتين وستين ومائتين ، فلما صرت بطاق الحراني رأيت رجلاً قد أمر بالقبض على امرأة ، وأمره بجرها فقالت له : اتق الله ، فأمر أن تجر ، فلم تزل تناشده الله وهو يأمر بجرها إلى باب القنطرة ، فلما يئست من نفسها رفعت رأسها إلى السماء ثم قالت : ﴿قُلْ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ الزمر:٤٦ إن كان هذا الرجل يظلمني فخذه.

قال أبو عون؛ فوقع الرجل على ظهره ميتاً وأنا أراه فحمل على جنازة وانصرفت المرأة. المنتظم٥/٣٤ ص١١.

٢ـ ريح

هبت ريح شديدة بالديار المصرية غرّقت مئتي مركب ، وهلك منها خلق كثير. (سنة٦٦٧هـ). الشذرات ٥/٣٢٤ ص١٥.

٣ـ بَرَدة

وقع بَرَدٌ، وزنوا بردة فكانت مئة رطل بالبغدادي. (وقائع سنة ٦٢٣هـ). الشذرات ٦/٣٣٧ ص١٥.

٤_ سيل عظيم

في ربيع الآخر حصل بحلب سيل عظيم فساق جملة كثيرة من الوحوش والأفاعي فوجد ثعبان فمه يسع ابن آدم إذا بلعه، وكان طوله أكثر من سبعة أذرع. (حوادث سنة ٧٩٥). الشذرات ٣٣٧/٦ ص١٥.

٥_ كسوف

واجتمع في المحرم (سنة٢٦٩هـ) كسوف الشمس والقمر، وغابت الشمس منكسفة. المنتظم ٦٥/٥ ص١٨.

٦_ أكلوا بغلة الوزير

عام ٤٦٢هـ.

وفيه كان غلاء شديد بمصر فأكلوا الجيف، والميتات، والكلاب؛ فكان يباع الكلب بخمسة دنانير، وماتت الفيلة فأكلت ميتاتها، وأفنيت الدواب فلم يبق لصاحب مصر سوى ثلاثة أفراس، بعد أن كان له العدد الكثير من الخيل والدواب، ونزل الوزير يوماً عن بغلته، فغفل الفلاح عنها؛ لضعفه من الجوع، فأخذها ثلاثة نفر فذبحوها، وأكلوها، فأخذوا، فصلبوا فما أصبحوا إلا وعظامهم بادية قد أخذ الناس لحومهم فأكلوها، وظُهر على رجل يقتل الصبيان والنساء، ويدفن رؤوسهم وأطرافهم، ويبيع لحومهم، فقتل وأكل لحمه، وكانت الأعراب يقدمون بالطعام يبيعونه في ظاهر البلد، لا يتجاسرون يدخلون لئلا يخطف، وينهب منهم، وكان لا يجسر أحد أن يدفن ميته نهاراً، وإنما يدفنه ليلاً خفية؛ لئلا ينبش فيؤكل.

المنتظم ٢٥٧/٨

البداية والنهاية ٩٩/١٢ ص١٩

٧ـ قصة سواك

وفي سنة ٦٦٥هـ كما قال ابن خلكان بلغنا من جماعة يوثق بهم وصلوا إلى دمشق من أهل بصرى[1] أن عندهم قرية يقال لها دير أبي سلامة كان بها رجل من العربان فيه استهتار زائد وجهل، فجرى يوماً ذكر السواك، وما فيه من الفضيلة، فقال: والله ما أستاك إلا من المخرج فأخذ سواكاً وتركه في دبره، فآلمه تلك الليلة ثم مضى عليه تسعة أشهر وهو يشكو من ألم البطن والمخرج، ثم أصابه مثل طلق الحامل، ووضع حيواناً على هيئة الجرذون ورأسه مثل رأس السمكة، وله أربع أنياب بارزة، وذنب طويل مثل شبر وأربع أصابع، وله دبر مثل دبر الأرنب ولما وضعه صاح ذلك الحيوان ثلاث صيحات فقامت ابنة ذلك الرجل، فشجت رأسه، فمات وعاش ذلك الرجل بعده يومين ومات، وهو يقول: هذا الحيوان قتلني وقطع أمعائي وشاهد ذلك الحيوان جماعة من تلك الناحية وخطيب المكان. الشذرات ٣١٧/٥ ص١٩ـ٢٠

٨ـ عجيبة

قال الذهبي: في نيسان مطرنا مطراً أحمر كأعكر ماء الزيادة، وبقي أثر الطين على التمر والورق نحو شهرين. (سنة٧١٠هـ). الشذرات ٢١/٦ ص٢١

٩ـ العلاج لبس سروال وشرط أذن

علاء الدين علي بن نجم الدين بن عبدالواحد بن شرف الدين محمد بن صغير

١ـ بصرى: هي البلدة التي خرجت منها النار التي تحدث عنها رسول الله ﷺ «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز؛ تضيء أعناق الإبل ببصرى» رواه البخاري ومسلم.

وكانت هذه النار في زمن ابن كثير الدمشقي.

رئيس الأطباء بالديار المصرية.

كان يصف الدواء للموسر[1] بأربعين ألفاً، ويصف الدواء في ذلك الداء للمعسر بفلس.

دخل عليه شيخ شكا ما به من السعال، فقال: لعلك تنام بغير سراويل. قال: إي والله، قال لا تفعل نم بسراويلك، فمضى فصدفت ذلك الشيخ بعد أيام فسألته عن حاله، فقال: عملت بما قال، فبرئت.

قال وكان لنا جار حدث لابنه رعاف حتى أفرط فانحلت قوى الصغير، فقال له: شرِّط آذانه؛ فتعجب، وتوقف، فقال: توكل على الله وافعل، قال: ففعل ذلك، فبرئ، وله من هذا النمط أشياء عجيبة. شذرات الذهب ٣٤٦/٦ ص٢٢

١٠_ شيخ الوضوء

شهاب الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم الصفدي (شيخ الوضوء) لأنه كان يتعاهد المطاهر، فيعلم العوام الوضوء. الشذرات ٣٥٧/٦ ص٢٣

١١_ طفل

أحضر بين يدي الظاهر طفل ميت له رأسان وأربعة أعين، وأربعة أيدٍ، وأربعة أرجل. (حوادث عام ٦٦٢هـ). شذرات ٣٠٧/٥ ص٢٤

١٢_ امرأة تتحول رجلاً

قال ابن كثير: كان في طرابلس بنت تسمى نفيسة زوجت بثلاثة أزواج ولا يقدرون عليها يظنون أنها رتقاء فلما بلغت خمس عشرة سنة غار ثدياها ثم

١_ الموسر: الذي يملك المال.

جعل يخرج من محل الفرج شيء قليلاً إلى أن برز منه قدر إصبع وأنثيان، وكتبت ذلك في محاضر. (حوادث سنة ٧٥٤هـ). شذرات الذهب ١٧٥/٦ ص٢٤

١٣_ دعاء بقي بن مخلد

يقول عبدالرحمن بن أحمد: سمعت أبي يقول: جاءت امرأة إلى ابن مخلد فقالت: إن ابني قد أسره الروم ولا أقدر على مال أكثر من دويرة، ولا أقدر على بيعها، فلو أشرت إلى من يفديه بشيء، فليس لي ليل ولا نهار ولا نوم ولا قرار.

فقال انصرفي حتى أنظر في أمره _إن شاء الله تعالى_.

قال وأطرق الشيخ وحرك شفتيه.

قال فلبثنا مدة فجاءت المرأة مع ابنها وأخذت تدعو له وتقول قد رجع سالماً وله حديث يحدثك به، فقال الشاب: كنت في يدي بعض ملوك الروم مع جماعة من الأسارى، وكان له إنسان يستخدمنا كل يوم نخرج إلى الصحراء، ثم يردنا وعلينا قيود، فبينا نحن نجيء من العمل بعد المغرب انفتح القيد من رجلي، ووقع على الأرض، ووصف اليوم والساعة فوافق اليوم الذي جاءت المرأة ودعاء الشيخ.

قال: فنهض إليّ الذي كان يحفظني وقال: قد كسرت القيد[1]، قلت: لا إنه سقط من رجلي، فتحيروا خبر صاحبه، وأحضر الحداد، وقيدني فلما مشيت خطوات سقط القيد من رجلي، فتحيروا في أمري فدعوا رهبانهم فقالوا لي: ألك والدة؟ قلت: نعم. قالوا: قد رافق دعاءَها الإجابةُ.

وقالوا: أطلقك الله لا يمكننا أن نقيدك، فردوني وأصبحوني إلى ناحية

١_ القيد: السلاسل التي يربط بها يد ورجل الأسير.

المسلمين. المنتظم ١٠١/٥، ١٠٠ ص٢٨_٢٩

١٤_ قتلى أحد لم يتغيروا بعد ٤٦ عاماً

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه :

... فبينا أنا في خلافة معاوية بن أبي سفيان إذ جاءني رجل فقال يا جابر ابن عبدالله والله لقد أثار أباك عمال معاوية، فبدا فخرج طائفة منه، فأتيته فوجدته على النحو الذي دفنته لم يتغير إلا ما لم يدع القتل أو القتيل، ثم ساق الإمام قصة وفائه دين أبيه كما هو ثابت في الصحيحين.

وروى البيهقي من طريق حماد بن زيد عن أيوب عن أبي الزبير عن جابر ابن عبدالله قال: لما أجرى معاوية العين عند قتلى أحد بعد أربعين عاماً استصرخناهم إليهم، فأتيناهم فأخرجناهم، فأصابت المسحاة قدم حمزة فانبعث دماً، وفي رواية ابن إسحاق عن جابر قال: فأخرجناهم كأنما دفنوا بالأمس.

وذكر الواقدي أن معاوية لما أراد أن يجري العين نادى مناديه من كان له قتيل بأحد فليشهد، قال جابر: فحضرنا عنهم، فوجدت أبي في قبره كأنما نائم على هيئته ووجدنا جاره في قبره عمرو بن الجموح ويده على جرحه فأزيلت عنه فانبعث جرحه دماً، ويقال: إنه فاح من قبورهم مثل ريح المسك _رضي الله عنهم أجمعين_ وذلك بعد ست وأربعين سنة من يوم دفنوا. البداية والنهاية ٤٣/٨ ص٣١_٣٢

١٥_ الحاكم بأمر الله

ثم كان يركب حماره، وينزل عند باب جامعه، الذي عند باب النصر،

ويأخذ من يختار من غلمانه، فيرقده على باب الجامع، ويشق بطنه بيده، ثم يخرج مصارينه بيده، ويرميهم إلى الكلاب، ويترك المقتول مكانه، حتى يدفنه أهله؛ وكان يعذب جماعة من غلمانه بالنار. تاريخ ابن إياس ١/١/٢٠١ ص٣٥

١٦ـ وجدتها عوراء عرجاء

أخبرنا أبو منصور القزار أخبرنا أبو بكر بن ثابت قال أخبرني محمد بن أحمد ابن يعقوب قال حدثنا محمد بن نعيم الضبي قال سمعت أمي تقول سمعت مريم امرأة أبي عثمان[1] تقول صادفت من أبي عثمان خلوة فاغتنمتها فقلت يا أبا عثمان أي عملك أرجى عندك؟ فقال يا مريم لما ترعرعت وأنا بالري، وكانوا يريدونني على الزواج فأمتنع جاءتني امرأة فقالت: يا أبا عثمان قد أحببتك حباً أذهب نومي وقراري، وأنا أسألك بمقلب القلوب وأتوسل إليك أن تتزوج بي، قلت: ألك والد؟ قالت: نعم فلان الخياط في موضع كذا وكذا، فراسلت أباها أن يزوجها مني، ففرح بذلك، وأحضرت الشهود، فتزوجت بها فلما دخلت وجدتها عوراء عرجاء مشوهة الخلق فقلت: اللهم لك الحمد على ما قدرته لي! وكان أهل بيتي يلومونني على ذلك، فأزيدها براً وإكراماً إلى أن صارت بحيث لا تدعني أخرج من عندها، فتركت حضور المجالس، إيثاراً لرضاها، وحفظاً لقلبها، ثم بقيت معها على هذه الحال خمس عشرة سنة، وكأني في بعض أوقاتي على الجمر وأنا لا أبدي لها شيئاً من ذلك إلى أن ماتت! فما شيء أحب عندي من حفظي عليها ما كان في قلبها من جهتي. المنتظم ٦/١٠٧ ص٣٧ـ٣٨

١ـ هو أبو عثمان الحيري.

١٧ـ أكل الناس بعضهم بعضاً

حوادث سنة ٢٨١هـ:

فيها غارت المياه بالري[١]، وطبرستان[٢] وأصاب الناس بعد ذلك جهد جهيد، وقحط حتى أكل الناس بعضهم بعضاً، وأكل إنسان منهم ابنته.

المنتظم ١٤٧/٥ ص٤٢

١٨ـ ومن غرائب المنقول وعجائبه

الأمير بدر الدين أبو المحاسن يوسف المهمندار المعروف بمهمندار العرب أنه قال: حكى الأمير شجاع الدين محمد الشيرازي متولي (القاهرة) في الأيام الكاملية سنة ثلاث وستمائة، قال: بتنا عند رجل ببعض بلاد الصعيد، فأكرمنا وكان الرجل شديدَ السمرة، وهو شيخ مخضر له أولاد بيض الوجوه حسان الأشكال، فقلنا له هؤلاء أولادك؟ فقال: نعم؛ وكأني بكم وقد أنكرتم بياضهم وسوادي فقلنا له: نعم، قال: هؤلاء أمهم إفرنجية أخذتها في أيام الملك الناصر صلاح الدين وأنا شاب، فقلنا: وكيف أخذتها؟ قال: حديثي بها عجيب. قلنا: أتحفنا به قال: زرعت كتاناً في هذه البلدة، وقلعته، ونفضته، فانصرف عليه

١ـ الرّي: بفتح أوله، وتشديد ثانيه، وهي أكبر من أصبهان بناها المهدي في خلافة المنصور (معجم البلدان ١١٨/٣)، وتسمى طهران حالياً.

٢ـ طَبَرستان: بفتح أوله وثانيه، وكسر الراء، واستان: الموضع أو الناحية، كأنه الطبر، وهي بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم، وطبرستان في البلاد المعروفة بمازَنَدْرَان، فتحت أيام عثمان ابن عفان رضي الله عنه بوساطة عبدالله بن عامر كريز بن صبيب، وغزا سعيد بن العاص طبرستان وافتتح ـأيضاًـ من طبرستان الرويان ودنباوند. (معجم البلدان ١٣/٤).

خمسمائة دينار، ولمَّ الثمن إلى أكثر من ذلك، فحملته إلى (القاهرة) فلم يصل إلى أكثر من ذلك، فأشير عليّ بحمله إلى (الشام) فحملته، فما زاد على تلك القيمة شيئاً، فوصلت به إلى (عكا) فبعت بالأجل، البعض تركته عندي واشتريت حانوتاً أبيع فيه على مهلي إلى حيث انقضاء المدة، فبينما أنا أبيع إذ مرت بي امرأة إفرنجية ـ ونساء الإفرنج يمشون في الأسواق بلا نقاب في الأسواق ـ فأتت تشتري مني كتاناً، فرأيت من جمالها ما بهرني، فبعتها، وسامحتها ثم انصرفَتْ، وعادتْ إليّ بعد أيام، فبعتها وسامحتها أكثر من المرة الأولى، فتكررت إليّ، وعلمت أني أحبها، فقلت للعجوز التي معها: إنني قد تلفت بحبها وأريد منك الحيلة، فقالت لها ذلك، فقالت تروح أرواحنا الثلاثة أنا وأنت وهي، فقلت لها قد سمحت بروحي في حبها واتفق الحال أن أدفع خمسين ديناراً صورية فوزنتها وسلمتها للعجوز فقالت نحن الليلة عندك، فمضيت وجهزت ما قدرت عليه من مأكول، ومشروب، وشمع وحلاوة، فجاءت الإفرنجية فأكلنا، وشربنا، وجن الليل ولم يبق غير النوم فقلت في نفسي: أما تستحي من الله وأنت غريب تعصي الله مع نصرانية! اللهم إني أشهدك أني قد عففت عنها في هذه الليلة؛ حياءً منك وخوفاً من عقابك، ثم نمت، ونامت إلى الصبح، وقامت في السحر وهي غضبى ومضت ومضيت أنا إلى حانوتي فجلست فيه وإذا هي قد عبرت عليّ هي والعجوز، وهي مغضبة وكأنها القمر؛ فهلكتُ فقلت في نفسي من هو أنت حتى تترك هذه البارعة في حسنها ثم لحقت، وقلت ارجعي،

فقالت..[١] ما أرجع إليك إلا بمائة دينار، فقلت: نعم رضيت، فوزنت مائة دينار، فلما حضرت الجارية عندي لحقتني الفكرة الأولى، وعففت عنها وتركتها؛ حياءً من الله ـتعالى ـ ثم مضت، ومضيت إلى موضعي ثم عبرت بعد ذلك عليّ وكانت مستعربة، فقالت..[٢] ما بقيت تفرح بي عندك إلا بخمس مائة دينار أو تموت كمداً، فارتعدت لذلك، وعزمت أن أصرف عليها ثمن الكتان جميعه؛ فبينما أنا كذلك والمنادي ينادي: معاشر المسلمين إن الهدنة التي بيننا وبينكم قد انقضت، وقد أمهلنا من هنا من المسلمين إلى جمعة[٣]، فانقطعت عني وأخذت أنا في تحصيل ثمن الكتان الذي لي والمصالحة على ما بقي منه وأخذت معي بضاعة حسنة وخرجت من (عكا) وفيّ قُلبة[٤] من الإفرنجية فوصلت إلى (دمشق) وبعت البضاعة بأوفى ثمن؛ بسبب فراغ الهدنة، ومنّ الله بكسب وافر وأخذت أتجر في الجواري عسى أن يذهب ما بقلبي من الإفرنجية؛ فمضت ثلاث سنين وجرى للسلطان الملك الناصر ما جرى من (وقعة حطين) وأَخْذِه جميعَ الملوك، وفَتْحِه بلادَ الساحل ـبإذن الله تعالى ـ فطُلب مني جارية للملك الناصر، فأحضرت جارية حسناء، فاشْتُرِيَتْ له مني بمائة دينار فأوصلوا إلي تسعين ديناراً، وبقيت عشرة دنانير فلم يلتقوها في الخزانة ذلك اليوم؛ لأنه

١ـ٢ـ عبارة شطبتها من النص لأن فيها حلفاً بالمسيح، وهذا مما لا يجوز شرعاً؛ لأنه من الشرك بالله سواء من حلف بالأنبياء أو بغيرهم، يقول ـعليه الصلاة والسلام ـ: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك» رواه مسلم. قاله المحقق الشيخ محمد الشيباني.

٣ـ أسبوع.

٤ ـ حرة ولوعة وأثر.

أنفق جميع الأموال فشاوروه على ذلك، فقال امضوا به إلى الخزانة التي فيها السبي من نساء الإفرنج في واحدة منهن يأخذها بالعشرة دنانير التي له، فأتيت الخيمة فعرفت غريمتي الإفرنجية، فقلت أعطوني هاتيك، فأخذتها، ومضيت إلى خيمتي وخلوت بها وقلت لها: أتعرفيني؟ قالت: لا، فقلت: أنا صاحبك التاجر الذي جرى لي معك ما جرى وأخذت مني الذهب، وقلت ما بقيت تبصرني إلا بخمسمائة دينار، وقد أخذتك ملكاً بعشرة دنانير، فقالت: مد يدك أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فأسلمت وحسن إسلامها، فقلت: والله ما وصلت إليها بأمر القاضي[1]، فرحت إلى ابن شداد وحكيت له ما جرى، فعجب، وعقد لي عليها، وباتت تلك الليلة عندي فحملت مني، ثم رحل العسكر، وأتينا دمشق وبعد مدة يسيرة أتى رسول الملك يطلب الأسارى والسبايا باتفاق وقع بين الملوك فردوا من كان أسيراً من الرجال والنساء، ولم يبق إلا التي عندي فسألوا عنها واتضح الخبر أنها عندي، وطلبت مني فحضرت، وقد تغير لوني وأحضرتها معي بين يدي مولانا السلطان الملك الناصر والرسول حاضر، فقال لها الملك الناصر بحضرة الرسول: ترجعين إلى بلادك أو إلى زوجك فقد فككنا أمرك وأمر غيرك، قالت: يا مولاي السلطان أنا قد أسلمت وحبلت وها بطني كما ترونه وما بقيت الإفرنج تنتفع بي فقال لها الرسول: أيما أحب إليك هذا المسلم أو زوجك الإفرنجي فلان؟ فأعادت عبارتها الأولى، فقال الرسول لمن معه من الإفرنج: اسمعوا كلامها ثم قال لي الرسول:

١ـ يقصد العقد عليها على سنة الله ورسوله، ولعل الصواب: والله ما وصلت إليها إلا بأمر... .

خذ زوجتك، فولعت بها فطلبني ثانياً، وقال إن أمها أرسلت معي وديعة وقالت: إن ابنتي أسيرة، وأشتهي أن توصل لها هذه الكسوة، فتسلمت الكسوة، ومضيت إلى الدار، وفتحت القماش فإذا هو قماش بعينه قد سيرته لها أمها، ووجدت الصرتين الذهب الخمسين ديناراً والمائة دينار كما هي بربطتي لم يتغير، وهؤلاء الأولاد منها، وهي التي صنعت لكم هذا الطعام.

المستطرف (للابشيهي ٧٩٠_٨٥٠هـ)

(٢٠١/١_٢٠٥) ص٥١_٥٤

١٩_ مات فجأة

أبو سعيد الإسماعيلي:

توفي فجأة بجرجان في ربيع الآخر (٣٩٦هـ) وهو قائم يصلي في المحراب، في صلاة المغرب، فلما قرأ ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ (الفاتحة: ٥) فاضت نفسه فمات رحمه الله. البداية والنهاية ٣٣٦/١١ ص٥٨

٢٠_ سجود

في سنة (٣٩٦هـ):

كانت الخطبة للحاكم العبيدي، وتجدد في الخطبة أنه إذا ذكره الخطيب يقوم الناس كلهم؛ إجلالاً له، وكذلك فعلوا بديار مصر مع زيادة السجود له، وكانوا يسجدون عند ذكره يسجد من هو في الصلاة، ومن هو في الأسواق يسجدون لسجودهم، لعنه الله وقبحه.

البداية والنهاية ٣٣٦/١١ ص٥٨

٢١ـ خنّاق النساء

عام ٢٥٧هـ

وفيها ظُفِر ببغداد بموضع يقال له بركة زَلْزَل برجل خنّاق قد قتل خلقاً من النساء كان يؤلف المرأة ثم يخنقها، ويأخذ ما عليها، فحمل إلى المعتمد، فضرب بين يديه بألفي سوط وأربعمائة، فلم يمت حتى ضربه الجلادون على أنثييه[١] بخشب العقابين[٢] فمات ورد إلى بغداد وصلب هناك، ثم أحرقت جثته.

البداية والنهاية ١١/٢٨ ص٦٠ـ٦١

٢٢ـ زلزال واسط

عام ٢٥٨هـ

وقعت زلزلة شديدة، وهدَّة عظيمة، تهدمت فيها بيوت ودور كثيرة، ومات من الأناس نحو من عشرين ألفاً. البداية والنهاية ١١/٣٠ ص٦١

٢٣ـ الزبير يملك خمسين مليون درهم

قال ابن قتيبة: حدثنا محمد بن عتبة، حدثنا أبو أسامة، عن هشام، عن أبيه أن الزبير ترك العُروض بخمسين ألف ألف درهم، ومن العين خمسين ألف درهم. (رجاله ثقات).

وقال ابن عيينة: عن هشام، عن أبيه قال: اقتسم مالُ الزبير على أربعين ألف ألف. سير أعلام النبلاء ١/٦٥ ص٦٣ـ٦٤

١ـ أنثييه: خصيتيه.

٢ـ العقابين: خشبتان يشبح الرجل بينهما للجلد. (لسان العرب ٢/٨٣٤).

٢٤_ حامل كفنه

أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت قال بلغني المعروف بحامل كفنه _ محمد ابن يحيى أبو سعيد توفي، وغسل، وكفن، وصلي عليه، ودفن فلما كان في الليل جاء نباش فنبش عنه فلما حل أكفانه؛ ليأخذها استوى قاعداً فخرج النباش هارباً منه، فقام، وحمل كفنه، وخرج من القبر، وجاء إلى منزله وأهله يبكون، فدق الباب عليهم، فقالوا: من أنت؟ قال: أنا فلان! فقالوا له: لا يحل لك أن تزيدنا على ما بنا، فقال: يا قوم افتحوا فأنا والله فلان! فعرفوا صوته، ففتحوا، وعاد حزنهم فرحاً، وسمي من يومئذ حامل كفنه، توفي محمد بن يحيى في هذه السنة (٢٩٩هـ).

ومثل هذه جرى لسعير بن الخمس الكوفي فإنه لما دلي في حفرته اضطرب، فحلت عنه أكفانه، فقام، ورجع إلى منزله، وولد له بعد ذلك ابنه مالك ابن سعير. ص٧٦

٢٥_ نهاية الظلم

حوادث سنة ٥١٦هـ

علي بن أحمد السميرمي: نسبة إلى قرية بأصبهان[١]، كان وزير السلطان

١_ أصبَهان: منهم من يفتح الهمزة، وهم الأكثر وكسرها آخرون منهم السمعاني وأبو عبيد البكري الأندلسي: وهي مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها ويسرفون في وصف عظمها حتى يتجاوزوا حدّ الاقتصاد إلى غاية الإسراف وأصبهان: اسم للإقليم بأسره (معجم البلدان ٢٠٦/١).

محمود، وكان مجاهراً بالظلم والفسق، وأحدث على الناس مكوساً[1]، وجددها بعد ما كانت قد أزيلت من مدة متطاولة، وكان يقول: قد استحييت من كثرة ظلم من لا ناصر له، وكثرة ما أحدثت من السنن السيئة، ولما عزم على الخروج إلى همذان أحضر المنجمين فضربوا له تَخْتَ رملٍ لساعة خروجه ليكون أسرع لعودته، فخرج في تلك الساعة وبين يديه السيوف المسلولة، والمماليك الكثيرة بالعدد الباهرة، فما أغنى عنه ذلك شيئاً، بل جاءه باطني فضربه فقتله، ثم مات الباطني بعده، ورجع نساؤه بعد أن ذهبن بين يديه على مراكب الذهب، حاسرات عن وجوههن، قد أبدلهن الله الذل بعد العزة، والخوف بعد الأمن، والحزن بعد السرور والفرح جزاءً وفاقاً، وذلك يوم الثلاثاء سلخ صفر، وما أشبه حالهن بقول أبي العتاهية في الخيزران وجواريها حين مات المهدي:

رُحن في الوشى كسيرا ... ت عليهن المسوح

كل بطّاح من النا ... س له يوم بطوح

لتموتنّ ولو عمّر ... ت ما عُمِّر نوح

فعلى نفسك نحْ إن ... كنت لا بدّ تنوح

البداية والنهاية ١٩١/١٢ ص٧٨_٧٩

١_ المكس: الجباية، مَكَسه يمكَسُه مكساً ومكستُه مَكساً. والمكس: دراهم كانت تؤخذ من بائع السّلع في الأسواق في الجاهلية. والمكس: الضريبة التي يأخذها الماكس وأصله الجباية. (لسان العرب ٥١٥/٣).

وفي الحديث: «لا يدخل صاحب مكس الجنة» حديث ضعيف رواه أحمد(١٥٠/٤) وأبو داود والدارمي (٣٩٣/١) والمشكاة (٣٢٥/٢) عن عقبة بن عامر.

المحتويات

المقدمة	٣
أولاً: نقولات مختارة من كتاب «**أدب النفس**» للحكيم الترمذي:	٥
- تعريف بالمؤلف وبالكتاب	٥
- النقولات المنتقاة _ ٢٥ نقلاً _	٦
ثانياً: نقولات مختارة من كتاب «**الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه**» لأبي هلال العسكري:	١٥
- تعريف بالمؤلف	١٥
- تعريف بالكتاب	١٦
- النقولات المنتقاة _ ٣٠ نقلاً _	١٧
ثالثاً: نقولات مختارة من كتاب «**الصداقة والصديق**» لأبي حيان التوحيدي:	٢٥
- تعريف بالمؤلف	٢٥
- تعريف بالكتاب	٢٦
- النقولات المنتقاة _ ١٠٣ نقول _	٢٨
رابعاً: نقولات مختارة من كتاب «**لباب الآداب**» تأليف الأمير أسامة ابن منقذ:	٥١
- تعريف بالمؤلف	٥١
- تعريف بالكتاب	٥٢

- النقولات المنتقاة: ٥٣
١- باب الوصايا ٥٣
٢- باب السياسة ٥٦
٣- باب الكرم ٦١
٤- باب الشجاعة ٦٣
٥- من اشتهر بالفتك بالجاهلية ٦٤
٦- ومن شهر بالفتك في الإسلام ٦٥
٧- باب الآداب ٦٧
٨- فصل في حسن الجوار ٦٨
٩- فصل في الصمت وحفظ اللسان ٦٩
١٠- فصل في التعفف ٦٩
١١- فصل في الصبر على الأذى ومداراة الناس ٧٠
١٢- فصل في حفظ التجارب وغلبة العادة ٧٠
١٣- باب البلاغة ٧١
١٤- باب في الحكمة ٧٣

خامساً: نقولات مختارة من كتاب «**الوصية المباركة**» لابن قدامة المقدسي: ٧٥
- تعريف بالمؤلف ٧٥
- تعريف بالكتاب ٧٦

- النقولات المنتقاة _ ١٥ نقلاً _ ٧٧

سادساً: نقولات مختارة من كتاب «**آداب الحرب في الإسلام**» تأليف العلامة محمد الخضر حسين: ٨٣

- تعريف بالمؤلف وبالكتاب ٨٣
- النقولات المنتقاة: ٨٤

١- أسباب الحرب ٨٤
٢- الاستعداد للحرب ٨٥
٣- التدريب على الحرب ٨٦
٤- محاكاة العدو في وسائل الدفاع ٨٦
٥- كتابة أسماء من يدعون إلى الحرب ٨٧
٦- إعلان الحرب ٨٧
٧- رفع الرايات في الحرب ٨٨
٨- الشعار في الحرب ٨٨
٩- تعهد الجند بالموعظة ٨٩
١٠- النشيد الحماسي ٨٩
١١- الزحف في صفوف منظمة ٨٩
١٢- الإقدام في الدفاع ٩٠
١٣- الثبات في مواقع الدفاع ٩١

١٤- الإخلاص في الحرب	٩١
١٥- أثر الاستقامة في الانتصار	٩٢
١٦- الدهاء في الحرب	٩٢
١٧- اطلاع ولي الأمر على سير الحرب يوماً فيوماً	٩٢
١٨- الشورى في الحرب	٩٣
١٩- كيف يكون قائد الجيش	٩٣
٢٠- استكشاف حال العدو	٩٤
٢١- التكتم في الحرب	٩٥
٢٢- الاحتراس في الحرب	٩٥
٢٣- حكم الجاسوس في الإسلام	٩٦
٢٤- الرفق بالجند ومعاملتهم بالعدل	٩٦
٢٥- تلقيهم أوامر القائد بحسن الطاعة	٩٧
٢٦- تحامي الاختلاف المؤدي إلى الشقاق	٩٧
٢٧- التخلف عن الدفاع	٩٨
٢٨- الفرار من صفوف القتال	٩٩
٢٩- الوفاء بتأمين المحارب	٩٩
٣٠- مجاملة رسل العدو وعدم التعرض لهم بأذى	١٠٠
٣١- تجنب قتل من لا يقاتل	١٠١
٣٢- معاملة الأسرى	١٠٢

٣٣- الدفاع في البحر ١٠٢

٣٤- عقد الصالح ١٠٣

٣٥- تخليص الأسرى من أيدي العدو ١٠٤

٣٦- تقدير البطولة ١٠٥

سابعاً: نقولات مختارة من كتاب «**عادات عربية**» تأليف محمد المكي بن الحسين: ١٠٩

- تعريف بالمؤلف ١٠٩

- تعريف بالكتاب ١١١

- النقولات المنتقاة: ١١٤

١- عادات شعراء العرب ١١٤

٢- عادات العرب في الأموات والقتلى ١١٥

٣- ميز شجعان العرب بعلامات في الحرب ١١٨

٤- عناية العرب بالضيف ١١٩

٥- تنكيل العرب في الجاهلية بالجناة ١٢٠

٦- عناية السلف باللغة العربية وكتبها ١٢٢

٧- أرخى عمامته ١٢٣

٨- أبو الأضياف ١٢٤

٩- تخيلات الأمة العربية في أطوار الجاهلية ١٢٤

١٠- عادات ملوك العرب في الجاهلية والإسلام ١٢٥
١١- عادات نساء العرب في الأعصر الجاهلية ١٢٧
١٢- عادات العرب في الخيل ١٢٧
١٣- عادات العرب في الإبل ١٣١
١٤- عادات العرب في الحروب والغزوات ١٣٥
١٥- عادات عربية خاصة بالأعراس ١٣٧
١٦- مجالس العرب في الجاهلية والإسلام ١٣٩
١٧- قرع السن كناية عن الندم ١٤٤
١٨- الأضياف والضيافة ١٤٤
١٩- عادات العرب بأمر الأضياف ١٤٦
٢٠- عادات عربية ١٤٧

ثامناً: نقولات مختارة من كتاب «**الحديقة**» لمحب الدين الخطيب: ١٥٥
- تعريف بالمؤلف ١٥٥
- تعريف بالكتاب ١٥٦
- النقولات المنتقاة: ١٥٧
١- هدية ١٥٧
٢- مرض حب الشهرة ١٥٧
٣- الزوجة ١٥٨

٤ـ السفور بعد الحجاب	١٥٨
٥ـ الرجولة في نظر المتنبي	١٥٨
٦ـ الاعتدال والبساطة	١٥٨
٧ـ الصابر العظيم	١٥٩
٨ـ من اعترافاتهم	١٥٩
٩ـ ملك القلوب	١٦٠
١٠ـ السعادة قريبة التناول	١٦٠
١١ـ سبيل النجاح في نظر فورد	١٦١
١٢ـ العمل رياضة العقل	١٦١
١٣ـ من أقوال شوقي	١٦٢
١٤ـ كلمات للإمام أحمد بن حنبل	١٦٣
١٥ـ ذكاء الأعراب	١٦٤
١٦ـ شمم العرب	١٦٤
١٧ـ من كلام الأحنف بن قيس	١٦٤
١٨ـ الرجل	١٦٥
١٩ـ المرأة	١٦٦
٢٠ـ من كلام سعيد بن المسيب سيد التابعين	١٦٦
٢١ـ من كلام طاووس	١٦٦
٢٢ـ خصومة العظماء	١٦٦

تاسعاً: نقولات مختارة من كتاب «**مقام إبراهيم**» لمحمد طاهر الكردي المكي: ١٦٩

- تعريف بالمؤلف ١٦٩
- تعريف بالكتاب ١٧٠
- النقولات المنتقاة ـ ٣٨ نقلاً ـ ١٧٩

عاشراً: نقولات مختارة من كتاب «**عجائب من عصور متفرقة**» الجزء الأول لمحمد بن إبراهيم الشيباني: ٢١٣

- تعريف بالمؤلف وبالكتاب ٢١٣
- النقولات المنتقاة: ٢١٤

١ـ استجابة دعاء ٢١٤
٢ـ ربح ٢١٤
٣ـ بَرَدة ٢١٤
٤ـ سيل عظيم ٢١٥
٥ـ كسوف ٢١٥
٦ـ أكلوا بغلة الوزير ٢١٥
٧ـ قصة سواك ٢١٦
٨ـ عجيبة ٢١٦
٩ـ العلاج لبس سروال وشرط أذن ٢١٦

١٠- شيخ الوضوء ٢١٧
١١- طفل ٢١٧
١٢- امرأة تتحول رجلاً ٢١٧
١٣- دعاء بقي مخلد ٢١٨
١٤- قتلى أحد لم يتغيروا بعد ٤٦ عاماً ٢١٩
١٥- الحاكم بأمر الله ٢١٩
١٦- وجدتها عوراء عرجاء ٢٢٠
١٧- أكل الناس بعضهم بعضاً ٢٢١
١٨- ومن غرائب المنقول وعجائبه ٢٢١
١٩- مات فجأة ٢٢٥
٢٠- سجود ٢٢٥
٢١- خنَّاق النساء ٢٢٦
٢٢- زلزال واسط ٢٢٦
٢٣- الزبير يملك خمسين مليون درهم ٢٢٦
٢٤- حامل كفنه ٢٢٧
٢٥- نهاية الظلم ٢٢٧

المحتويات ٢٢٩